رواية

مَعزوفة العَطش

مهاب السعيد

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

مَعزوفة العَطش

الكتـــــاب: معزوفة العطش
المـــؤلـــف: مهاب السعيد
تنسيق داخلي: سمر محمد
تدقيق لغـــوي: عماد غزير
الطبعة الأولـى: يناير 2021
رقم الإيـــداع: 2021/2100
I . S . B . N: 978-977-992-147-1

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رواية

مَعزوفة العَطش

مهاب السعيد

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

«أن تحيا يعني أن تعاني..

أن تنجو يعني أن تجد معنى ما في المعاناة»

فريدريك نيتشه

تمهيد

كانوا يسبقونني بخطوات، لم يكن ذلك عن جبن مني، ولكني لم أجد كبير جدوى في اللحاق بهم، جميعنا نتجه إلى ذات المصير في النهاية، حين تحكم علينا الحياة بعقوبة موحدة فمن العبث أن تسابق بقية الهالكين.

- «نيرال، أسرعي! بدأ الناس يستيقظون».

ناداني طويل القامة منهم، وهو يشير إلى أحد المارة عند زاوية الشارع بالقرب من المكتبة. ما اسم طويل القامة هذا؟ لقد نسيت اسمه، أنا لم أحرص على تذكر اسمه من البداية، لقد كففتُ عن تخزين المعلومات منذ زمن.

كان محقًّا مع ذلك، بدأ الناس يستيقظون بالفعل، بدأ لون الفجر المميز في تخلل نوافذ البيوت ليخبرهم أن عليهم استقبال واحد جديد من تلك الأشياء التي يسمونها الأيام، عليهم أن يقضوا يومًا آخر بشكل ما، أن يبحثوا عن لقمة وعن سترة وعن ضحكات تسليهم، حتى يحين موعد النوم، حتى يأتي الفجر التالي، أو يأتي الفجر الأخير، تلك هي قواعد اللعبة القاسية، بشكل ما قد رضي بها الجميع، لا أسمع أحدًا يعترض. أنا سوف أعترض!

مر الرجل بجانبنا فأجفل، أربعة شباب بعباءاتنا الخضراء المميزة، كان ذلك يعني الكثير من الأشياء، يعني المختلف من الأشياء، لم يكن يدري هل من المفترض أن يخاف منا أم علينا؟ هل نطارد أحدهم أم نهرب؟ ولكن شيئًا ما في نظرتنا طمأنه بأننا لسنا إلا مجموعة من الحزانى، كل الضرر الناتج عنا سيكون بعضًا من الضوضاء فحسب.

قبل الفنارة بقليل كانت هناك عائلة مشردة تفترش الأرض بجانب الجدار المهدم لأنقاض مصنع (ليبنتس) القديم، قبل أن يدركوا أن عليهم نقل المصنع إلى أطراف مدينة (أورارا) بعيدًا عن أعين الناس، لربما لو كفوا عن رؤيته سوف ينسون وجوده، وهم يريدون النسيان على كل حال.

كان أفراد العائلة يغطّون في النوم، رجل وامرأة وثلاثة أطفال، توقفت وأخذت أنظر إليهم. ناداني أحد رفاقي وهو يلهث: ليس آمنًا لأحدنا التوقف هنا، ولكني لم أكترث.

كنت أحدق في عيون الأطفال، ذكرني منظرهم المسالم بالكثير من الأشياء القديمة وشعرتُ بوخز بداخلي، وخز لم أشعر به منذ شهور، وبرغمي تسللت بسمة على شفتيّ، كخط يُحفَر بالأزميل على صخر صفوان أبيض، كانت بسمتي منحوتة من حجر، لذا لم تتسع كثيرًا ولم تختفِ سريعًا.

- «نيرال، سنتركك!».

أجفلتُ ونظرتُ له نظرة طويلة خاوية مندهشة وكأنه أيقظني لتوه، فكرت فعلًا، هل أدعهم يتركونني؟

اقتربتُ من الأطفال بحذر ووضعتُ يدي على جبهة أصغرهم، كان طفلًا في الخامسة تقريبًا، أيقظته لمستي، وقد كان البرد يمنعه من النوم العميق، نظر لي ورأى الندبة الكبيرة في وجهي، فخاف ثم بكى وأيقظ أمه.

- «عذرًا، آآ لم أقصد. طفلك جميل».

نظرت لي الأم نظرة طويلة بعينيها المنفوخة وشعرها الأشعث، وقالت: «خذيه»!

لم أفهم، ظننتها تهددني، فقلت وأنا أنظر بعيدًا وأهم بالانصراف: «لا أنوي اختطافه بالطبع، كنتُ أشفق عليه من البرد فحسب».

قالت بإصرار: «خذيه».

نظرتُ لها وفهمت، هذا ليس تهديدًا، إنه توسل!

- «تريدين أن آخذ منكِ طفلكِ؟».

نظرت لزوجها النائم وخفضت صوتها مخافة أن يسمعها: «أرجوكِ، لو كان لديكِ طعام لعشائه وسقف يظله، أرجوكِ خذيه».

لم تكن تبكي ولكن نظرة عيونها الجافة أرتني أي بؤس يعتري روحها الممزقة. نظرتُ حولي فوجدتُ القذارة تملأ كل شيء، لطخات على وجهها وعلى ثوبها وعلى دثارهم الواحد يتقاسمه خمستهم. لطخات على الرصيف الذي هو بيتهم

وعلى الحائط الذي هو غرفة معيشتهم وعلى كسرات الخبز الجافة بجانبهم رماها المارة لهم في اشمئزاز ورحلوا.

كررت توسلها: «أرجوكِ، إنه طفل طيب وذكي، لا يستحق».

تحدّرت دمعة من خدي وانصرفت قائلة: «آسفة، لا أقدر».

- «أرجوكِ».

ولكني كنت قد ابتعدت، وبدأت في الركض فعلًا، سألحق بهم! لماذا ترددت؟ ماذا كنت أحسب؟!

كانوا قد غابوا عن نظري ولكني أعرف أين ذهبوا. وبينما أحاول التقاط أنفاسي بصعوبة وأنا أصعد قرابة الألف من الدرجات الصخرية غير الممهدة المميزة لفنارة (سافينور) القديمة كنت أتساءل: لماذا يكون كل شيء بهذه الصعوبة؟! حتى هذا؟

حين وصلتُ إلى السطح وجدتهم الثلاثة بجانبي، ثلاثة إخوة، أنا الفتاة الوحيدة، من المفترض أن أستمد شجاعتي منهم، لكن ها أنا ذا وبعد أن وصلتُ إلى هنا أسأل نفسي إن كانت الشجاعة في المضي قدمًا أم العودة؟ حين تحاول الهرب فلا يسعك أن تغضب ممن يتهمك بالجبن إن أردتَ رأيي.

«جميلة، أليس كذلك؟».

قالها لي أحدهم بحزن وهو يتقدم نحوي مشيرًا إلى قرص الشمس المشرق بادئًا رحلته اليومية المعتادة بين سحابتين بيضاوين، وكأنهما غطاء مهاد صغير ودثاره، تبدو الشمس بينهما كما لو كانت طفلًا يتثاءب. من الصعب أن تعتاد عينك على شكل السماء لمجرد أنك رأيتَها كثيرًا. هناك في هذه الحياة من الأشياء ما يستعصي على القِدَم. وبرغمي شعرتُ بمزيج مؤلم من الحنين والأمل يتسرب إلى داخل نفسي بهدوء ففزعتُ! ليس ثانية!

أخرستُه عن تشتيتي: «اصمت أيها الأحمق».

ماذا يفعل؟!

على سطح الفنارة القديمة لا تجد أي شيء ذا قيمة، بعض الأغطية البالية كانت بلا شك تخص عائلة أخرى من الفقراء حاولوا أن يحتموا ببرد السماء من صقيع العالم بالأسفل قبل أن يطردهم الحرس، بعض كلمات العشق المحفورة على الحجارة القديمة للشعلة التي لم تعد تعمل منذ دهر، بعض مخلفات السياح الذين كانوا يصعدون إلى هنا قبل أن يفطن الناس أن هراء المباني القديمة التي صنعها اليور لا يستحق عناء صعود كل هذه الدرجات، ثم هناك بعض التراب والكثير والكثير من القذارة في كل مكان. كحال أي شيء في هذا العالم.

اقتربتُ من السور القصير، بينما ذيل ثوبي الأبيض غير المريح يكنس سطح الفنارة، ونظرتُ إلى المارين في شارع (سافينور) المزدحم من تحتي، من هذه المسافة بدا هؤلاء الكِميتيون كمجموعة نشيطة من النمل. في الصباح الباكر حيث كل الناس تسعى إلى شيء ما، لا يوجد من يتسكع الآن أو ينوي زيارة قريب له، كل هؤلاء يذهبون بجدية إلى المحطة التالية من حياتهم. إلى أين أنتم ذاهبون يا حمقى؟ إلى الوباء الجديد؟ الحرب القادمة؟ أم إلى عجز الشيخوخة؟ ما الجميل في سعيكم الجاد إن كنتم تسعون إلى العبث؟ ما المثير في حياة واعدة إن كانت لا تعدكم إلا بالفناء؟

الفناء؟ أحيانًا أشكر هذه الحياة على قسوتها! لربما لو كانت السعادة تحيط بنا لصارت لحظات الانتهاء هذه من أصعب ما يكون. لربما علينا أن نشكر كدر الحياة إذ سهّل علينا قبول انتهائها.

أحاط بي البقية، وقفنا برهة نحدق في الشارع من أسفلنا. أحدهم رفع بصره إلى الدخان المتصاعد من مصنع (ليبنتس) وتمتم: «كل الخواتيم تتشابه». نظرتُ إلى السماء فوجدت الشمس قد توارت بين سحابتين، شكرتها في سري ممتنة، ورددتُ بصوت خفيض: «كل الخواتيم تتشابه».

وتسلقتُ السور الخفيض.. وقفزت!

تومان

بعد أن قلّت الفوضى قليلًا، وصار الصخب أقل، صار بوسعي أن أتعرف على الموتى، كانوا ثلاثة أشخاص، شابّين وفتاة، لم يبق من ملامحهم شيء، السقوط من أعلى الفنارة على الصخور الصلبة المميزة لشارع (سافينور) لا يسمح لك بالحفاظ على الكثير من جمالك عادةً.

كانت بركة الدماء المحيطة بهم مروعة لمعظم الناس حولي، النساء يصرخن ويحطن أعين أطفالهن بالثياب، ونظرات الذعر تعتري الرجال حتى الأشداء منهم، لم أكن أنا أشعر بكثير من الفزع، الجثث لا تخيفني، هي أقرب لآلات قد خربت، أو ماكينات مصنع معطّلة في حجرة مهجورة تعتريها الأتربة. أما الإنسان الحي فهذا أمر آخر.

ما كان جديرًا بالملاحظة فعلًا هو ثيابهم، ثياب بيضاء مع بعض الخطوط الخضراء في تشكيلة مميزة، لقد فهمت، وعلى الأرجح كان قد فهم المارة المتجمعون من قبلي، ربما لهذا فتر الكثير من حماسهم وانصرفوا عن الموتى قبل أن يصل حتى رجال التهيئة لأداء عملهم.

كانت الكلمات تتردد من حولي يخبر الناس بها بعضهم البعض: «متشيئون»، «متشيئون». وفور أن يسمع الناس بالكلمة تظهر على وجوههم حسرة مشوبة ببعض الملل، القليلون منهم أظهروا بعض التعاطف، ويبدو أن أحدهم قد اشتمّ ذلك فصاح بحماس غير مفهوم: «لا يشفقنّ عليهم أحد، لقد كانوا من المتشيئين"، بينما صاح عجوز آخر: «علموا أولادكم تعاليم (الكِميت)، فهذا زمان أغبر».

كنتُ متعجلًا ومتأخرًا عن موعدي، فتركت المشهد الصاخب، وامتطيت طمجني، وأكملتُ طريقي إلى مبنى الجمهورية، كل الأزمنة غابرة لو أخذت برأيي، لا يوجد ما يميز الزمان سوى إحساسنا به، وها أنا ذا وبعد أن بلغت السادسة والثلاثين لا أتذكر أن جاء زمان على الناس لم يوصف بأنه أغبر.

ولكني أفهم ما يريد ذلك العجوز قوله، في الماضي لم يكن الشباب يفكرون بهذه الطريقة، لم تكن هناك (كِميت توبو) ولا (متشيئون) ولا (سولي تراك) ولا (كروماز). كانت التساؤلات بداخل الجميع ولكنهم لم يكونوا بذات القرب الذي هم عليه الآن، فصارت أسئلة كل واحد هي أسئلة الجميع، ثم تحولت إلى ذلك الغموض المقدس الذي يغلف كل شيء.

في الطريق المزدحم بالمارة وعربات الخيول والطماجن، كان الناس ينظرون إليّ كثيرًا، ربما تعرف بعضهم عليّ وقد سمع عن أبحاثي أو الجوائز العلمية التي نالتها مدينتنا بفضلي، غير أني أحسب أن معظمهم يتساءل في فضول فقط عن السبب الذي يجعل رجلًا ثريًّا بالقدر الذي يسمح له بامتلاك طمجن أسود يركبه بنفسه بدون عربة أو سائس.

رأيتُ (ميرون) أمام بيته على ناصية السافينور، محاولًا أن يشير لعربة تُقلّه، أعرف أن (ميرون) لا يثق في أي سائس، إنه ينتقي السائس العجوز الذي يبدو من ملامحه أنه قد ملّ الحياة وملّته، يعلم أن هذا العجوز لن يسرع كالأحمق قاتلًا من معه و(ميرون) لم يعد معه أحد على كل حال.

وقفتُ بجانب (ميرون) فلاحظني، ابتسم ولم يعلّق، ثم امتطى الطمجن خلفي بين عظمتي أجنحته الضامرة، تلك الأجنحة التي قضت علينا أن نفرّق بين الطمجن والخيل، وعدا ذلك فلا فرق بينهما تقريبًا، غير أن ظهور الخيل منخفضة للغاية، ولا أدري كيف يتحملها الناس من حولي، الطمجن له ظهر عالٍ مميز يمنحك رؤية فوقية لما حولك! قال لي (ميرون) بعد أن استقر أخيرًا على ظهره: «تأخرتَ كثيرًا، ألم يكن من المفترض أن تكون في مكتب النائب الآن؟"، أخرستُه سريعًا بقولي: «أعرف، أعرف».

سكتُّ برهة مترددًا إن كنت أخبره أم لا، ثم قدّرتُ أنه سيعرف قريبًا من غيري، فقلتُ له: «كانت هناك حادثة جديدة للمتشيئين».

قال: «أين؟» قلتُ: «قريبًا من منزلك، من أعلى فنارة السافينور».

سكت برهة، ثم قال: "إذن كان هذا هو سبب الزحام"، كان هدوءه مثيرًا للعجب.

قال: «هل فكرتَ يومًا أن لربما كان المتشيئون محقين؟»

انفعلتُ: «محقون في أي شيء؟! هم لم يدّعوا أنهم يعرفون أي شيء، هم لا يعرفون عمّ يبحثون، المتشيئون مجانين ليس أكثر».

سكت (ميرون) ولم يعلق، لا أظن أن كلامي قد أعجبه. وأنا لم أكن أبالي كثيرًا بأن أقنعه به أو بغيره، الأمر كله لا يعنيني، عليهم اللعنة جميعًا إن شاؤوا.

لما وصلتُ إلى مبنى الجمهورية ترجلتُ وتركت طمجني لميرون يذهب به إلى عمله القريب، قلتُ له: «عدني ألا تثرثر بشأن المتشيئين مع غيري. أنت تعرف أن جواسيس الضبط في كل مكان. لا تكن أبله!».

أكمل صمته ولم يعلق، وبينما أراقبه يرحل كنت أفكر: كم أشتاق إلى صاحبي القديم قبل أن يرحل ويسكن جسده هذا الشبح الحزين. أي حسرة تلك التي أفسدت روحك إلى الأبد يا ميرون؟

ثم حولتُ نظري إلى مبنى الجمهورية، ومعه حولتُ تفكيري فجأة، وحين كنت أصعد الدرجات الرخامية، كنت أسأل نفسي: ترى ما مصير تلك الأوراق في مكتب النائب الآن؟

هل يمكن أن توافق الجمهورية على إرسالي لحافة العالم؟

جيرالد

على سطح إحدى البنايات المرتفعة انبطحت مع (إيزكل) نراقب بوابة مصنع (ليبنتس)، وبينما تدخل حافلة جديدة أشار لي (إيزكل) منبهًا، فقمت باستخدام المِقراب بحذر من فوق حافة السطح، الضوء المنبعث من مصابيح البوابة كان شحيحًا ولكنه كان كافيًا.

قال (إيزكل): «شحنة جديدة؟».

- «لا أعلم، لا تبدو كذلك، لحظة. لا توجد حركة تحت أغطية الصندوق. ربما تكون مجرد مؤن».

- «أو ربما فضلوا تسليمهم جثثًا هذه المرة».

التفتُّ إليه بحدة: «لا تملك فكرة عن ماهيّة مصنع (ليبنتس)، أليس كذلك؟»

بدا الشاب الصغير الأشقر محرجًا وهو يقول: «في الحقيقة، لا. لم تتسنَّ لي فرصة التعرف على مدينتكم بشكل كافٍ، عندنا في الجبل الغربي نشاطات مريعة أخرى للكِميتيين، كلها تنتهي بمحرقة مثل هذه».

- «ليبنتس ليس محرقة».

لم أرغب بذكر المزيد، هو في سن أبنائي لو كان لي أبناء، لا أرغب بإضافة المزيد من بؤس العالم إلى معارفه، كان (إيزكل) شابًّا متحمسًا سمع عنا هناك في الجبل الغربي فلحق بنا في الثكنات، واحد آخر من الأغراب الذين يضمهم (كروماز) باستمرار، ولكنه بدا مصرًّا على الفهم، فقال: «ما مصنع (ليبنتس) إذن؟ ولماذا طُلبَ منا مراقبته؟».

تجاهلته قليلًا، ولكنه بدا مصرًّا على إلحاحه، في النهاية قلت له: «متجر لبيع الأغراض المنتهية!».

أضاف ذلك المزيد إلى ارتباكه، فقلتُ موضحًا: «المرضى وكبار السن الذين يصبحون عالة على عوائلهم، حين يدرك رب الأسرة أن أمامه عدة أعوام من الإنفاق على عاجز أو عجوز، يضطر إلى حمله لقضاء حاجته، وإسناده إلى دور (التروّح)، والصراخ في أذنيه طوال الوقت بعد أن تدهور سمعه، وتفكر لنفسك، ماذا أنتظر؟ أنتظر اللحظة التي أدفنه فيها وأرتاح من كل ذلك، لِمَ لا نختصر هذا الانتظار إذن؟».

ونظرت إلى (إيزكل) وابتسمت ابتسامة مريرة. بعد برهة أكملتُ: «حينها تقدم له حكومتنا الرشيدة خدمة العمر، تشتريه منه».

- «تشتريهم؟! كيف؟».

- «ألف روكيّة أو ألفان، شيءٌ في هذا النطاق أظن. الطفل عادةً أغلى من الشاب، والشاب أغلى من الكهل، والشيوخ أرخص من الجميع، إنهم مستهلكون بشكل كافٍ. على صاحب الشأن أن يقدم إثباتًا فقط بالحالة الصحية الميئوس منها للحالة، ثم تسلمها لهم.

يخبرونك أنهم سيقومون بإعطائهم عقارًا يريحهم من معاناتهم، ينظرون إليك في حنان ويؤكدون: هذا أفضل لهم، هم فقط لا يعلمون أن هذا أفضل لهم! هم ككل البشر يتعلقون بالحياة لأنهم اعتادوا على العيش قبل أن يتعلموا طريقة التفكير.

يعدونك أنك لن تسمع عنهم شيئًا بعدها، يعدونك بموت رحيم لقريبك الذي تدّعي أنه حبيب قلبك، ولكنه في الحقيقة عبء جديد عليك. يعدونك أنك لن ترى توسلاتهم ولا صدمة الذعر في أعينهم حين يعلمون أنك قد تخليتَ عنهم، ولن تسمع منهم عبارات لوم، يعدونك أن الأيام سوف تنسيك كل ذلك بعدها.

ثم يُشحَنون إلى (ليبنتس)، هناك يُرقّمون، ويُوزّعون على حجراتهم الضيقة، يُسجّلون برموز جديدة، وتُنسَى أسماؤهم، ثم تُجرَى عليهم جميع أنواع التجارب، يجرّبون العقاقير الجديدة، الإجراءات الجراحية المثيرة للجدل، ويعلمون أكثر عن أجساد البشر، هل تعلم كل تلك النتائج العلمية المثيرة التي تعلنها مدينتنا في المحافل العلمية الكبيرة بالفخر اللازم؟ يتحمل الإنسان عدد كذا من الأيام في جرة مغلقة سوداء قبل أن يجن، يتحمل عدد كذا من الأيام قبل أن يموت عطشًا، السود أكثر تحملًا للألم من البيض، والنساء يشعرن بآلام الاغتصاب أكثر من الرجال! كل تلك المعلومات المباركة، لم نحصل

عليها بطريقة مباركة تمامًا!

ثم في النهاية، يُحقَنون بالعقار الأخير وتُحرَق أجسادهم في المحرقة الملحقة. تزداد معرفتنا بأنفسنا، يزداد الإنتاج تباعًا، يقل العبء على رب الأسرة، يرتاح المرضى من الألم بعد أن يجرب ذروته لأيام قلائل، الجميع يربح كما ترى. (ليبنتس) صديق لكل الكِميتيين!».

انتهيتُ من كلامي، فاتسعت عينا (إيزكل) في ذعر، صمت برهة، ثم قال: «ألا يعترض أحد؟».

- «يعترض؟ من يعترض؟».

- «الصحافة، المعارضة...».

قاطعته بضحكاتي، يا له من ساذج: «حبيبي، المعارضة تعارض ما تسمح به حكومة الجمهورية بأن تعارضه، الصحافة تكتب عن الفضائح التي ترغب حكومتنا بالاعتراف بها، ليبنتس ليس من هذا ولا ذاك، ودعني أخبرك شيئًا آخر يا بني، الجميع يعلم كل شيء عن ليبنتس، ولكنهم فضلوا النسيان أو التناسي، والحكومة ساعدتهم على ذلك، ونقلته من وسط المدينة إلى أطرافه، فلنبقِ الأمر بيننا، والموتى لن يعودوا ليشتكوا، هكذا فكر الجميع وقرروا».

هز (إيزكل) رأسه بحزن وقال: «كمِيت توبو، أليس كذلك؟»

لم أرد عليه. لا أحب صحبة هذا الفتى. أتمنى لو كنت اصطحبت صديقي (كاي) للمراقبة وتركته هو لحراسة العربة بالأسفل، ولكني لا أثق فيه مع عربة طماجن ثمينة للأسف.

استمررت في المراقبة، كانت حافلة أخرى تقترب، وعند البوابة لمحت بِمقرابي حركات منتفضة أسفل أغطية الصندوق، هذه شحنة جديدة بلا شك. المسكين يحاول الهرب أو الاعتراض.

- «هاك. الآن دخلت الشحنة، هذا هو الموعد، كم الوقت الآن؟».

نظر إيزكل إلى السماء فقال: «لا أدري، ساعتان قبل الشروق؟».

ضحكتُ برغمي ضحكات عصبية، وأشرتُ له إلى برج ساعة المدينة، برغم المسافة كانت العقارب واضحة: «ألا تملكون ساعات في الجبل الغربي؟». لم يجب ولكن من نظرته المذعورة المنبهرة فهمت أنها مرته الأولى.

ابتعدتُ عن السور بحذر، وقمت ونفضت ثيابي، وعاونت (إيزكل) على القيام وهممنا بالانصراف، أتممنا مهمتنا بنجاح، ما إن التفتنا إلى سلم النزول حتى رأيناها، امرأة في منتصف العمر كانت على ما يبدو قد سمعت حركة أعلى سطح منزلها وارتابت فينا، ثم كانت من الحماقة بمكان أن صعدت بمفردها لتتأكد من ظنونها.

- «من أنتما؟».

هكذا صرخت بصوت عالٍ مرتجف، فلم نُجِب، ولكن يبدو أن عينيها كانتا قد اعتادتا على الظلام بشكل كافٍ لتتبين ألوان عباءاتنا البيضاء ذات الخطوط الخضراء المميزة، اتسعت عيناها في ذعر، وهتفت: «متشيئون!»، التفتت لتركض ولكنها اصطدمت في جسد (كاي) العملاق، الذي كان قد سمع صوتها من موقعه في الأسفل على ما يبدو، قبل أن يعاجلها بضربة ثم ضمادة على فمها لمنعها من الصراخ، وحملها على ذراعه والتفت لنا قائلًا: «هيا بنا».

تومان

لم يكن الترحاب الذي قوبلتُ به من رجال الضبط العام في مبنى الجمهورية والذي يليق برجل في حجم شهرتي متناسبًا مع البرود الذي قابلني به (دايك) نائب الأبحاث العلمية. لم أتفاجأ لذلك عمومًا، فلا يوجد أكثر من (دايك) التجريبي المتطرف يتمنى فشلي أنا وكل المنتمين إلى مدرسة الرصد الحديث.

حاولتُ أن أبدو بكل الوقار الذي يجب أن يبدو به (تومان نيقه) مشرف الرصد في مجمع الأبحاث، ولكني فشلتُ للأسف، كان حماسي البادي في وجهي ونظرات اللهفة في عينيّ كفيلة بإفقادي أي وقار مصطنع، وكان النائب الذي يجلس أمامي والذي أحتقره سرًّا يلاحظ ذلك ويستمتع به.

هو واحد آخر من هؤلاء (الموظفين) رفيعي الشأن الذين يتحكمون بمجريات الأمور لمجرد أن من فوقهم يثقون بولائهم لهم، ما أدرى نائب المدينة أو حتى وكيل الجمهورية بنظريات المرصد أو الحسابات المرهقة التي استهلكت آخر تسع سنين من عمري؟ تخيل أن يكون مصير المعرفة في يد واحد من هؤلاء الجُهّال ضيقي الأفق لمجرد أن معهم الموارد والأموال المطلوبة.

قلتُ له: «تخيل أن يكون مصير المعرفة في يد واحد من الأذكياء المتعلمين واسعي الأفق مثل سيادتك! أصدقك القول، لقد اطمأننتُ حين علمتُ أن النائب (دايك) هو الذي سينظر في أوراقي».

نظر لي وابتسم مستمتعًا بتملقي المفضوح، ثم طوى أوراقي بعناية ووضعها جانبًا وقال لي: «سيد (تومان)، لا يوجد ما يمنع من قبول هذه البعثة عندي، ولكن للأسف القرار ليس بيدي، لا بد من عرض الأمر على مجلس النوّاب العام، الأمر أكبر من حدود مدينتنا الصغيرة، لقد أدخلتُ مشروعك إلى جدول أعمال اللجنة العلمية، وسيتم عرضه على المجلس خلال يومين من الآن».

- «أخبرني يا سيد (دايك)، متى كانت آخر مرة وافق فيها المجلس العام على قرار ما بعد أن تم إقرار قانون التسعين بالمئة في التصويتات؟».

- «وما الذي يجعلك تظن أن تسعينًا بالمئة من النوّاب لن يوافقوا على بعثة علمية عريقة كهذه؟ ألستَ تزعم أنك وفريقك متأكدون من حساباتك؟». ثم ابتسم في خبث واضح. هذا الرجل بالتأكيد كان في طريقه لأداء دور شرير قذر في أحد مسرحيات (هَنَا) هذا الصباح قبل أن يضل طريقه إلى مبنى الجمهورية!

حين تيقنتُ أني قد وصلتُ معه إلى طريق مسدود، أخذت أوراقي وشكرته بنفاق وقاومتُ رغبتي في أن أقذفه بحافظة الأقلام على مكتبه، ثم انصرفت.

فور ما رآني خارجًا، قال لي (هوسيرل) الذي كان ينتظرني خارج مكتب النائب: «مجلس النواب؟». هززتُ رأسي أن نعم.

- «كل شيء يسير على ما يرام إذن».

- «أفضل مما توقعت».

لم يكن الأمر ليصل إلى مجلس النوّاب لولا أن (دايك) الذي يكرهني كالأفاعي يظن أن هذا سوف يقضي على أملي، يقولون دومًا: أسهل طريقة للوصول إلى مرادك أن يظن أعداؤك أنه مرادهم!

كالينا

حين استدعاني (نوبير) هذه المرة إلى مكتبه في أعلى تلك البناية الشهيرة في وسط المدينة، وحين كنتُ أصعد درجات السلم الذي يفصل مكاتب الموظفين عن مكتبه الخاص رأيتُ طفلة صغيرة تسير بجوار أمها ذكرتني بـ (ماندا)، قضى ذلك على ما تبقى من طاقتي النفسية لذلك اليوم.

هل حقًّا يبدو الشيء عزيزًا عليك فقط إلى اللحظة التي تملكه فيها؟ هل نزهد في كل ما نعتاده ونقدّس كل تلك الأشياء المتوارية عنا بين طيّات ستائر الزمن؟ يبدو أن الأمر كذلك فعلًا، لربما كانت (ماندا) دليلًا جيدًا عليه ولكن خير دليل عليه سيكون هو السيد (نوبير) الذي يحسده الناس على أمواله الطائلة، ولكني أعلم أنه لم يعد يأبه كثيرًا بماله بقدر عطشه تجاه شيء آخر، يحتاج الأمر إلى أن تكون أحد مديري أعماله المقربين كي تدرك ذلك. فالعامة لا يعرفون أن (نوبير) يموّل بشكل سري الكثير من نشاطات حزب (العدالة) المنافس الأول للحزب الحاكم في الانتخابات السابقة.

المال رائع، ولكن السلطة شيء آخر، إنها الدليل على أنك صرتَ الإنسان الأقوى، الدليل على أنك تستحق البقاء بعد أعنف الصراعات الممكنة، لو كان السيد (نوبير) قردًا لكان هو الذكر الألفا، أو كان أحد الذكور الميتة بعد معركة شرف طويلة في وسط الغابة.

لا يتورّع (نوبير) عن فعل الكثير من الأشياء الحميدة أو القذرة من أجل السلطة التي يحلم بها، أعلم ذلك بطبيعة حال عملي ولا يثنيني ذلك عن إخلاصي في العمل لأجله، هذا لأن المال الذي يملكه (نوبير) ويزهد فيه كفيل بإجابة أي أسئلة أخلاقية لديّ! كل إنسان هو أسير لرغبة ما كما ترى.

كان الوقت مساءً وكان مكتب (نوبير) مضاءً ببعض الشموع، يمقت نوبير إضاءة المصابيح الساطعة، وبجانبه القفص الذي به طائر الـ (ريكسيس) الذي يعشقه، يسميه (كاني) وهي كلمة بلغة (اليور) الأوائل وتعني: فريد.

نوبير يحب (كاني) أكثر من أولاده، ويقضي الكثير من الوقت متأملًا في ألوان ريشه الخفيف التي تميز الريكسيس وتتغير بتغير حالته المزاجية، إنه من الطيور النادرة التي تم اكتشافها في بعثة الجمهورية العلمية الثانية، واضطر علماء الحيوان إلى تغيير الكثير من نظام التصنيف لديهم بعدها.

أمام (نوبير) كان يجلس رجل طويل القامة بشكل ملحوظ بجسد رياضي قوي وملامح جميلة مميزة، بل مألوفة أيضًا، بينما ينسدل شعر رأسه الناعم على كتفيه، وعلى عنقه قلادة حمراء مميزة يحاول أن يخفيها تحت ملابسه، وكان يرتدي تحت عباءته سروالًا ضيقًا، إذن هو من محبي امتطاء الخيول أو الطماجن، فهؤلاء الذين يركبون العربات لا يحتاجون إلى لبس السراويل.

- «طلبتَ رؤيتي يا سيد (نوبير)".

- «نعم، اجلسي يا (كالينا)، السيد (تومان نيقه) مشرف الرصد في مجمع الأبحاث لديه ما يود عرضه علينا».

(تومان نيقه)! الآن فهمت لماذا يبدو وجهه مألوفًا، لقد رأيته بالفعل في عدة محافل عامة من قبل. كان قد نال شهرة واسعة منذ بضع سنوات بعد كتابه عن (مبادئ الرصد الحديث)، هو من أتباع المدرسة الحديثة، النظرية تسبق التجربة، والعداء بينه وبين التجريبيين وصل أشده في السنوات الأخيرة في الصحف الشعبوية قبل العلمية. برغم أن أفكار هذا الرجل أكثر منطقية ونظامًا فإنني لم أستطع أن أحبه قط، كان على قدر لا بأس به من العجرفة والغرور، وبالتأكيد يرى نفسه بشكل أكبر بكثير مما يستحق.

نظر لي (تومان) نظرة باردة وقال بلهجة واثقة: «لا بد أن السيد (نوبير) يثق بكِ كثيرًا إذ إنه اشترط وجودك كي يسمع عرضي». قلتُ بطريقة سريعة: «هو فقط يثق بأني لا أسمح لأي هراء بأن يضيّع وقته».

بدا مرتبكًا من إهانتي المفاجئة ونظر إلى (نوبير) فوجده هادئًا تمامًا مقرًّا لي في لهجتي الجافة، لكم أعشق إهانة هؤلاء المتكبرين! من ثمّ أخرج (تومان) من حقيبته بعض الألواح الكبيرة ونثرها على المكتب وقد قرر على ما يبدو أن يبدأ في الأمر مباشرة.

- «هذه هي خريطة العالم كما نعرفها. بفضل جهود الأخوين (هيجا) وفريق البحّارة الخاص بهما اكتملت معرفتنا

بأجزاء المحيط وبقارّتيه منذ ما يزيد على المئة سنة، نلاحظ أن للعالم ثلاثة أركان كما يظهر لنا، اثنان منهما تنتهي بالجبال الشاهقة على اليابسة التي لا يقدر أحد على تسلقها، جبال (إرني هيجا) في آخر قارّة الشمال، وجبال (ناكل هيجا) في آخر قارة الجنوب، وبعدها الركن الثالث والذي ينتهي بالمحيط الأكبر، تعرفون أنه في آخر هذا المحيط هناك الشلالات الخضراء العظيمة التي نعرفها بالحافّة».

بدّل الألواح التي أمامه فظهر لوحٌ آخر عليه بعض الأرقام والرسوم الهندسية، ثم أكمل كلامه: «الحافة كما تعرفون هي مساحة واسعة من الشلالات العملاقة، تكتسب لونها الأخضر المشع من أحجار مجهولة تحت سطحها مباشرة، هذه الحسابات الرياضية هي التي قام بها أشهر علماء الرياضيات في قارة الشمال بناءً على نظرية (كريس) وتشرح لنا كيف يتماسك سطح أرضنا بفضل فراغ القوة في هذه الشلالات.

لا أحد يعلم ما يوجد تحت هذه الحافة، يظن أغلب الناس أن الفراغ واللا شيء هو الذي يقبع هناك، هناك نظريات كثيرة بديلة، تشترك جميعها في أننا لا نملك أدنى فكرة عن مدى صحتها بالفعل. هذه هي حافة العالم كما نعرفها إلى الآن، لا نعلم من سقط فيها ثم قدر على العودة أو التواصل معنا".

قاطعته ساخرة: «باستثناء (سولي تراك) بالطبع».

نظر لي وكأنه يحاول أن يتبين إن كنت أمزح أم لا، ثم قال: «هل تصدقين يا سيدتي تراث مجنون عجوز لم يره أحد منذ عشر سنوات؟!».

قال (نوبير): «(كالينا) تمزح بالطبع يا سيد (تومان)، أرجوك أكمل».

ابتسم تومان ابتسامة عصبية سريعة ثم قال: «والآن تخيلا لو أن الحافة ليست نهاية العالم، لو كان هناك ما بعدها، أو تحتها بمعنى أصح، تخيلا لو استطعنا إثبات أن الحافة لها عمق محدد، ومهّدنا الطريق لاكتشاف ما يوجد هناك، تخيلا لو كان عالمنا الذي نحيا فيه جزءًا من عالم أكبر لا نعلم عنه شيئًا، أية ثروات تختبئ هناك؟ أية شعوب؟ أية حيوانات خلابة لا نعرفها بعد». وأشار إلى الركسيس بجانب (نوبير) مما وضع على شفتي الأخير ابتسامة.

قلتُ: «هذا يناقض قانون (سالين) لثبات الكتلة».

قاطعني بصوت عالٍ: «ينص قانون (سالين) على أن الكتلة لكي تثبت وتستقر لا بد من وجود قوتي ارتكاز وفراغ على ركنيها، على حسب هذا القانون فأرضنا ثابتة بسبب وجود قوة ارتكاز على ركنيها هناك متمثلة في جبال (هيجا)، ومجال فراغ قوة في ركنها الثالث تحت شلالات الحافة. أعرف ذلك القانون يا سيدتي، أنا رجل علم بالمناسبة، ولكن العلم لم يقل يومًا إن لديه الكلمة الأخيرة بخصوص أي شيء. وظيفتي كرجل علم أن أتشكك في كل شيء سابق وتقودني ملاحظاتي إلى قوانين العلم الجديدة».

تكلم (نوبير) وقد بدا غير مهتم بالمحادثة: «وما فكرتك العلمية بالضبط؟».

- «أملك نظرية مكتملة الأركان لماهية الحافة بالظبط! سأقوم ببعثة مع فريق بحثي وأجهزة رصد كافية لتأكيد أو نفي نظريتنا، وسنعود بكل المعلومات الثمينة. سيدي، سوف أغير من نظرتنا للعالم!».

- «وما هذه النظرية؟».

- «لن أتحدث عنها بالطبع لحقوق ملكيتنا الفكرية»!

ابتلع السيد (نوبير) ريقه بصبر، وقال بدماثته المعهودة: «جميل، ولكن ما شأني أنا بكل هذا إذن؟».

- «أحتاج إلى تمويل للبعثة، أحتاج إلى سفينة من نوع (جائر) مزودة بجدّافات تثبيت من الفئة الخامسة، أحتاج إلى طاقم ماهر شجاع لقيادة السفينة، وإلى خزين طعام شهرين على الأقل، وإلى أسلحة حماية من حيتان (السياج). أحتاج إلى المال يا سيدي، الكثير منه في الواقع».

قلت أنا: «تريد منا الكثير من المال لتمويل بعثة مجنونة بناء على فكرة علمية مجهولة ترفض الإفصاح عنها؟».

- «نعم».

- «ولماذا نفعل ذلك؟».

- «لأنني (تومان نيقه)»!

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة ساخرة، تجاهلها (تومان) وقال موجهًا كلامه لـ (نوبير): «عليك أن تفتش الكثير من المجامع العلمية في قارة الشمال كي تجد خبيرًا واحدًا يتشكك في علمي! كتبي يتناقشها طلاب الطبيعيات قبل الاختبارات في أرقى جامعات جمهورية (الكرم)، يمكنك أن تذهب إلى آخر قارة الشمال وتسأل رجل الشارع عن (تومان نيقه) سوف يخبرك أنه لم يفهم كلامه قط ولكنه يعلم أنه حين يتحدث عن العلم فهو لا يمزح».

ثم قام من على مقعده وجمع أوراقه، ونظر إلى (نوبير) نظرة ثاقبة، وقال: «سيدي أنا لا أطلب منك مالك، أنا أعطيك الفرصة كي تكون جزءًا من شيء عظيم. يمكنك أن تشكرني على ذلك لاحقًا».

نظر لي (نوبير) نظرة فهمتها أنا على الفور، فقلتُ لـ (تومان): «الجمهورية تُموّل البعثات العلمية بكفاءة معقولة، لماذا لا تعرض مشروعك على نائب المدينة؟».

نظر لي وابتسم في غموض، ثم فتح الباب وخرج! هكذا بدون أي مقدمات.

نظرتُ إلى (نوبير) في دهشة: «من هذا الأحمق؟!».

جيرالد

عدنا إلى الثكنات خارج حدود مدينة (أورارا) بعدد أكبر مما خرجنا به منها، كانت اللفافة التي تحوي جسد المرأة على كتف (كاي) ذات أبعاد مميزة تعفينا من إجابة أسئلة لا داعي لها، لفافة لها ثقل مميز وصمت هو أصخب من عواء جميع ذئاب البوشين في ليلة البدر.

ما إن اجتزنا بوابة الثكنات المعدنية الطويلة، حتى وضع (كاي) المرأة من على كتفه معتدلة على الأرض المرصوفة بحجارة بدائية، وهي معصوبة العينين والفم وهمس في أذنها: «سيري معي من فضلك بهدوء». ثم اقتادها إلى الجناح الجنوبي، حيث الزنازين ومخازن المؤن والأسلحة. همّ (إيزكل) باتباعهما ولكني أشرت إليه أن يتوقف: «(كروماز) بانتظارنا».

- «(كروماز) ليس هنا».

جاءت هذه من (سوقار) أحد الإخوة الذين يحرسون البوابة الليلة، نظرتُ إليه متسائلًا، قال: «خرج بمفرده»، ثم نظر لي نظرة ذات معنى. قال لي (إيزكل): «ما معنى هذا؟».

وضعت أمتعتي بجانب (سوقار) ثم قلت لـ (إيزكل): «لا يعني هذا أي شيء، ابقَ هنا، لقد انتهى عملك هذه الليلة». ثم خرجت.

على ضفة بحيرة المِلح، في مكان يبعد عن الثكنات نصف الميل، وجدتُه كما توقعت، بقعته المفضلة الخربة التي تطل على مسرح (هنا) المكشوف، وتسمح له بأن يتابع عروض (هنا) المسرحية من بعيد، بينما يبقى هو في الظلام.

كان يجلس على مقعده البدائي المنحوت من جذع شجرة لم تُقتَلع بالكامل، ويتسلى ببعض أوراق القِريط يلوكها في فمه، ونظره منصب على العرض المسرحي البعيد، وبرغم طول المسافة إلا أن سكون الليل مكنّا من سماع أصواتهم بوضوح.

بينما كنت أقترب منه بدأ هو في الكلام معي بدون أن يلتفت إليّ وبصوت هادئ منخفض وكأني أشاركه الأمسية منذ البداية: «الأمير الغني يتبادل الحياة مع الشاب الفقير لأنه قد سئم الحياة المترفة. انظر بالله عليك إلى هذا الهراء؟ من يفكر كذلك؟!».

قلت وأنا أجذب حجرًا لنفسي بجانبه: «أنت تعلم أن كتاب مسرحيات (هنا) هم مجموعة من البائسين يسودون الصفحات لإطعام أولادهم لا أكثر».

تجاهل ما قلته للتوّ وأكمل: «من يفكر كذلك يا (جيرالد)؟ هل تفكر أنت كذلك؟ هل تظن أن لائحة أمانيك لو تحققت لسئمتَ من إكمال الحياة، مثل... آآ، مثل قطعة من الكعك تبدأ بعد إنضاجها في الفساد والعفن بالتدريج. هل تفكر في حياتك كذلك يا (جيرالد)؟».

- «(كروماز)، هناك ما هو أهم الآن».

وضع قطعة من ورق القِطيم في فمي: «لا أشعر بالرغبة في أن أكون مستمعًا لأحد الآن، اصمت قليلًا، هاك، امضغ هذه، واستمع لتلك الألحان الجميلة». ثم أغمض عينيه وقطّب جبينه في استمتاع، بينما أوركسترا المسرح تعزف أحد الألحان الحالمة هناك.

(كروماز) المهول، لا يوجد في هذه المدينة من لا يرتعب من اسمه، هو في الحقيقة مجرد ذلك الكهل متوسط القامة أشقر الشعر ذو العوينات بجانبي! كان (كروماز) يعتاد لبس السراويل الجلدية والأقمصة القصيرة، لم يستطع أن يألف العباءات قط منذ أن وفد إلينا، وهو يتعجب منا كيف نتحرك بسهولة بهذه الألبسة الفضفاضة.

وبعد أن انتهى اللحن، فتح عينيه ونظر لي وابتسم: «هل تعلم كم مرة استمعت إلى ذات اللحن؟».

قلت بسأم: «ألف مرة؟».

- «لماذا قلتَ ذلك؟».

- «قلتُ ماذا؟».

- «قلتَ ألف مرة، من المستحيل أن أستمع إليه ألف مرة، هذه المسرحية تُعرّض منذ شهرين فقط».

- «لم أقصد بالمعنى الحرفي، كنتُ.. أبالغ فحسب».

بدا يفكر قليلًا، ثم قال: «لماذا تبالغ؟ أنت غير مهتم بسؤالي؟».

قلت: «بلى، مهتم. فقط...».

- «أنت لا تبالي بالتفاصيل الصغيرة، أليس كذلك؟».

ثم قام من مقعده وأخذ بيدي يهزها بقوة، وقال: «(جيرالد)، حرر وعيك، لا تهتم بالأمور الكبيرة فقط كما يفعل الكِميتيون، لا تحاول أن تفكر في كيف نشأ العالم كما فعل (سولي تراك)، جسدك سوف يفكر عوضًا عنك في طعام الغداء وأوحال الطريق والمرأة التي ستصحبها للفراش والرائحة العجيبة التي تأتيك من أسفل وادي الرمال، كل هذا سوف يحدث لك دون عناء» ثم انحنى على الأرض والتقط يعسوبًا كان يتسكع على الحشائش المبتلة وقال: «ولكن أخبرني، من الذي سوف ينظر إلى هذا اليعسوب الصغير ويتساءل: هل هناك غرض لكل هذه اليعاسيب الصغيرة؟ هل هناك معنى من وجود هذا اليعسوب الصغير؟ هل سيفتقده أحد عندما يتوقف عن أن يكون... موجودًا؟». ثم فرك يديه ساحقًا المسكين الصغير.

استمعت في صمت ولم أعلق، فاقترب من الفرجة في اللوح الخشبي الذي يحجب حوض البحيرة، وأشار لي إلى العرض المسرحي البعيد، ثم أعطى لي ظهره وقال: «أو يمكنك أن تفكر يا (جيرالد) في هذه المسرحية هناك، في قصة الأمير الهزيلة، والألحان العذبة، فقط الإنسان من يمكنه أن يصنع مزيجًا من الهراء والجمال».

ثم أضاف بصوت أخفض وكأنما يكلم نفسه: «ربما لأنه هو نفسه هراء جميل».

أجبتُ باقتضاب: «ربما، نعم».

بعد برهة، عاد إلى مقعده وتناول المزيد من أوراق القِميط، وقال: «كنتَ تقول..؟».

- «نعم، كنت أريد إخبارك عن نتيجة جولتنا. عرفنا موعد دخول الشحنة إلى ليبنتس، لو صح افتراضك بثبات هذا الموعد كل ليلة...».

قال بطريقة آلية محدقًا في الفراغ وكأنه يستذكر دروسه: «يجب أن يثبت نعم».

- «حسنًا يمكننا الآن التنفيذ».

- «حسنًا يمكنكم ذلك».

- «لا أفهم، هل هذه إشارة بدء؟».

بدا ممتعضًا إلى أقصى درجة، وأخذ يهز رأسه ويغمض عينيه ويقول: «لا، لا، (جيرالد)، توقف عن ذلك، لا توجد إشارات من أي نوع، كف عن رسم الحياة، وكف عن السماح للآخرين بأن يرسموها لك».

ثم نزع عويناته ينظفها بطرف قميصه ونظر في عينيّ مبتسمًا وقال: «اترك الحياة لترسمك، لوحاتها هي ما يبقى في النهاية».

شعرتُ برجفة! هاتان العينان. لا أدري ما الموجود في هاتين العينين!

- «حسنًا إذن».

وهممتُ بالانصراف ثم تذكرت شيئًا.

- «(كروماز)، هناك آآ.. أمر آخر».

نظر لي منتظرًا، فقلت: «رأتنا امرأة، تعرفت على ملابسنا، فاضطررنا إلى أخذها معنا، أنت تعلم أنه لو علم أحد أننا نراقب ليبنتس سيفشل كل شيء. هي الآن في الجناح الجنوبي، في الثكنات».

مط شفتيه بمعنى: لا مانع. ثم أشار لي بيديه أن أصمت، وبدأ يراقب مشهدًا بعينه يحبه في العرض المسرحي، قدّرتُ أن محادثتنا انتهت فانسحبت بهدوء. وقبل أن أبتعد أكمل كلامه بصوته الهادئ كعادته وكأني ما زلتُ بجانبه، قال: «المرأة ستموت».

نظرتُ له فوجدته ما زال يراقب العرض معطيًا ظهره لي. ثم التفتُّ وانصرفت.

كالينا

[الحبيبة (ماندا)، أرجو أن تكوني بخير في عامك الدراسي الجديد، لقد اشتقتُ إليكِ وإلى أيام عطلتنا في سفوح جبال الإقليم، أحتاج إلى أن أسمع منكِ باستمرار وأطمئن على أحوالك مع أبيكِ وعمّاتك. أرفقتُ مع خطابي بعض القطع النقدية، هي لكِ لتشتري بها ما تحبين من ملابس الصيف، كوني بخير دائمًا.

كالينا]

انتهيتُ من كتابة الخطاب، ثم أخذتُ أتأمله قليلًا، ثم مزّقته وكتبت واحدًا آخر:

[(ماندا) ابنتي الحبيبة، كيف حالكِ؟ اشتقتُ إليكِ كثيرًا، أتمنى لو كنتِ بين ذراعيّ الآن، كوني بخير دائمًا.

كالينا]

تأملتُ الخطاب قليلًا، ثم مزقته مرة أخرى، وكتبت واحدًا آخر بنفس صيغة الخطاب الأولى، لما انتهيتُ لاحظتُ أن هناك قطرات من العرق على جبهتي. اللعنة! هل يفترض أن يكون الأمر بهذه الصعوبة؟

أعطيتُ الطرد لحاجب المكتب ليوصله إلى سعاة البريد. أخذ مني الطرد وقبل أن ينصرف سلّمني نسخة اليوم من صحف الجمهورية.

أخذتُ منه الصحف، وبدأتُ بجريدة (العدالة)، صوت المعارضة في البلاد. تخطّيت كعادتي أخبار الثقافة والمسرح والطقس والرياضة إلى جزأي أخبار السياسة والسوق، ولكن شيئًا ما استوقفني في الجزء الخاص بمحاورات (قومار سيرابيس)، كان هناك اسم مألوف في أحد العناوين مكتوب بخط مائل: (تومان نيقه) عالم الرصد الأبرز في الجمهورية.

انتابني الفضول فقرأت المقال كاملًا، كان حوارًا صحفيًا مع (تومان) أجراه معه (قومار) شخصيًا! (قومار) من أشهر المثرثرين على صفحات الجرائد، وهو معروف بمعارضته للحكومة والوكيل دائمًا، اهتماماته سياسية في المقام الأول والأخير، بصفته عضوًا مؤسسًا في حزب (الإحالة). يصعب علي أن أتخيل سبب اهتمام شخص كـ (قومار) بتومان أو أبحاثه.

كتب قومار:

[تومان نيقه واحد آخر من الذين أرادوا أن يغيروا عالمنا للأفضل بعبقرية فذة وسذاجة منقطعة النظير في نفس الوقت، سذاجة من يظن أن حكومتنا الرشيدة قد تأبه بالفعل بالعلم والرصد والمعرفة ونظرتنا للعالم، أو تأبه بفلسفة الوجود وماهيّة حدود دنيانا عُشر اهتمامها بأسلحة جيشها الجديد، أو رفاهية نواب مجلسها العام الذين يضمنون لها أن تبقى سبع سنينها الجديدة في الانتخابات القادمة. اسمح لي يا سيدي أن أبدأ كلامي معك بأن أصارحك بأنك كنتَ ساذجًا لما عرضت مشروعك على مجلس نوّابنا الموقر!

- «لم أكن أعلم ذلك، سيد (قومار)، طوال عمري وأنا في معملي بمجمع الأبحاث منشغل عن السياسة وألاعيبها، وها أنا ذا أتعلم بالطريقة الصعبة أن السياسة تؤثر في حياة كل واحد منا، حين يملك من لا يستحق سلطة مجريات الأمور".

- «سيد تومان، رحلتك الاستكشافية لحافة العالم، ما غرضها بالضبط؟»

- «لدينا من الدوافع ما يجعلنا نعتقد أن الحافة ليست نهاية العالم، هناك امتداد لعالمنا لا نعلم عنه شيئًا، نحن حتى لا نثق في قوانين (سالين) و(رابيل) تمامًا. قد تكون أرضنا ثابتة بطرق أخرى. ربما نثبت كل ذلك في رحلتنا المنشودة. ربما أرضنا منحنية الأطراف وليست مستوية، ربما عند حافة العالم ندخل إلى عالم مجاور، ربما يمتد عالمنا إلى ما لا نهاية، وتستمر دنيانا إلى اللاحدود، ربما كان اليوريّون الأوائل على حق، وكنا نعيش بالفعل على ظهر عملاق من عمالقة الـ(جوس) كالبراغيث».

- «هل يمكن أن يقودنا العلم إلى الأساطير والخرافات؟»

- «العلم يرينا في كل يوم أن الواقع يحوي من الخيال أكثر مما تحويه حكايات العجائز».

- «هناك من يقول إن الحكومة قد منعت تمويل بعثتكم لدوافع السلامة والأمن، بالطبع نحن نعلم أن وكيل جمهوريتنا

الموقّر يحافظ على سلامة مواطنيه بالفعل بدليل إرساله عدة آلاف من جنود جيشنا ليموتوا على حدود (الكرم) لمد حكمه إلى هناك! ولكن على كل حال ما ردك على من يتهم بعثتك بأنها عملية انتحار؟».

- «هل تمزح؟ البحارة والصيادون يذهبون إلى الحافة كل يوم، من أين تظن أننا نحصل على لآلئ الـ(شين) أو أسماك الـ(كالي) إذن؟! أي سفينة مزوّدة بجدّافات تثبيت مناسبة قادرة على البقاء بالقرب من شلالات الحافة بدون أن تسقط، احتمالية الخطر موجودة بالطبع خصوصًا مع حيتان السياج، ولكنها غير مؤكدة، وجميع أفراد البعثة يعلمون ذلك ويقبلونه. من جديد أؤكد، المعرفة تستحق!»

- «ولكن سيدي لو تسمح لي بسؤال أخير، ما شأنك أنت باستكشاف ما وراء الحافة؟ لماذا لم تسجل فكرتك أو براءة اختراعك أو أيًّا يكن في مجمع الأبحاث ثم تترك شأن الاستكشاف للبحارة ورسّامي الخرائط؟».

- «لأني عالم، والعلم هو أن تموت بعد أن تكون قد فهمتَ كل شيء»!

حين انتهيتُ من حواري مع السيد تومان، سألته هل تظن أنك قادر على تحقيق حلمك وتجربة كشفك عما قريب؟ أخبرني أنه مضطر بأن ينتظر حتى يستمع أحد العقلاء، حسنًا لو كنت تقصد بالعقلاء أحد منتسبي الحزب الحاكم، فأظن أنك سوف تنتظر كثيرًا يا سيدي]

انتهيتُ من قراءة مقال (قومار) وأخذت أفكر.

تومان، يا لك من ماكر!

ميرون

«هل نسيتَ شيئًا؟»

نعم، نسيتُ الطعوم! نسيت المذاق. نسيت حلاوة الماء البارد أو متعة لحم الماعز الحنيذ. نسيت نَوْمة السكينة وبسمة الهناء وارتخاء انقباضات نفسي المتشنجة من عناء اليوم. نسيت دفء العناق الطويل ورائحة النعاس الواعد بعد ليلة أرق مرهقة. لقد نسيتُ الكثير من الأشياء حقًّا.

نظرتُ إلى البائع متسائلًا، فمد لي ببقية نقدي بابتسامة هادئة: «لقد نسيتَ بقية مالك». أخذتها منه شاكرًا وانصرفت.

قدّرتُ أن المسافة الباقية حتى دار (التروّح) ليست بالطول الذي يحتاج إلى عربة خيل تقلّني، فبدأتُ في السير إلى هناك ململمًا أطراف عباءتي السوداء الواسعة على أحجار شارع الميناء المصفوفة بعناية مع نسمات هواء المساء البارد القادم من البحر بجانبي.

مررتُ بجانب سجن القلعة المظلم المهيب، سمعت أن البرج الأول قد امتلأ عن آخره بالمتشيئين. الأمور تتسارع، ولا شك أن سبع عشرة سنة من (سولي تراك) قد فعلت في هذا البلد الكثير!

في مدخل بناية دار (التروّح) لافتة مكتوب عليها: (هذه الدار تابعة لنادي المدينة العام، ومصرح بها من نائب المدينة لشؤون الرياضة، وسياسات النادي تتفق جميعًا مع تعاليم الكِميت، والدار غير مسؤولة عن نشاطات أي من منتسبيها). أذكر أني حين جئتُ هنا أول مرة كنت فضوليًّا لأعرف، ترى أية نشاطات روحية قد نقوم بها تبعًا لتعليمات الكِميت؟! إذا كان الكِميت صادقًا، فنحن لا شيء إلا مجرد أجسادنا.

كان الوقت مساءً، وكانت الدار مغلقة، طرقتُ الباب مرتين لم يفتح أحد، في المرة الثالثة فتحت لي السيدة (شاتان) بانزعاج، وما إن رأتني حتى اتسعت ابتسامتها: «ميرون! ظننتُ أني لن أراك مرة أخرى».

- «صدقيني، لقد حاولتُ كثيرًا ألا تريني مرة أخرى!»

ثم رفعتُ اللفافة التي اشتريتها لتوي في وجهها: «أحضرتُ أزهار البوليفار وأعشاب الناجيلين وكل شيء». ابتسمت في رضا وأفسحت لي الباب لأدخل.

دار تروّح معتادة، ولكنها خربة مع ذلك، ركن صالة الاستقبال حيث كان من المعتاد أن تجد فرقة (الأوركسترا) تعزف الألحان المدوّخة، بينما هو الآن يمتلئ ببعض الصناديق القديمة، بينما يعلو التراب المقاعد الخشبية، فقط الأرض كانت نظيفة، مما يوحي بعملية نظافة دورية متعجلة من عاملة لا تحصل على القدر الكافي من المال ولا تمانع في أن تُطرَد في الصباح الباكر.

كان الوقت مساءً، وهو ذروة العمل بالنسبة إلى (شاتان)، المساء حيث تتصاعد الأسئلة وتتعاظم الزفرات ويعظم الاحتياج إلى التروّح حين نفطن إلى أن اليوم انتهى وبقيت ساعات قليلة من الراحة قبل العودة إلى دائرة العمل في الصباح، وفي تلك اللحظة التي نخلد فيها إلى النوم ونحدق في سقف غرفتنا نتساءل: هل الحياة مؤلمة؟ وإن كانت كذلك فلماذا لا أترك ذلك الحمل المؤلم ليفلت من بين يديّ؟ والإجابة بسيطة، في الحقيقة أنت لا تملك حتى القدرة على إصدار مثل ذلك الحكم! تفكر: نعم، هناك معنى لقيامك في الصباح، ولكن ترى ما مغزى هذا المعنى؟!

وبرغم ذلك كانت الدار خالية. منذ حادثة مكتبة المدينة العام الماضي، وبعد أن ثبت أن جنود (كروماز) الذين ارتكبوها كانوا من منتسبي النادي هنا، والحكومة تتحرى عن كل رواد الدار من وقتها، جعل هذا الناس يخافون ويبالون أقل بالقدوم هنا، وهم لم يخسروا كثيرًا في رأيي.

وقفت (شاتان) في مواجهتي وقبل أن أدخل غرفة الشموع وقالت بابتسامة مهنية جافة: «ثلاث روكيّات من فضلك». ناولتها العملات وقلت: «ألم تكن اثنتين؟». أشارت إلى الدار الخالية إشارة بمعنى: (ألا ترى الفقر الذي أصبحت فيه)، ثم فتحت لي الباب، وقالت: هل تحتاج إلى إرشاد؟

- «أضواء الشموع، ورائحة البوليفار، ونقيع الناجيلين في معدتي، وذكريات الطفولة، وتخيلي لغد سعيد. هل هناك شيء آخر؟»

بدت غير سعيدة بإهانتي غير المتعمدة لعملها المعقد حين بدا أنه ليس على هذه الدرجة من التعقيد، وقالت: «لا»، ثم أغلقت الغرفة خلفي وانصرفت.

خلعت عباءتي وبقيت بالبطانة الداخلية، الجو بارد ولكن من المفترض أن أتخفف من الأحمال الميكانيكية كي ينجح الأمر، والأمر لا ينجح أبدًا على العموم.

كانت الشموع المضاءة تصيبني بالدوار، ولكني كنت مصرًّا هذه المرة على الصبر حتى النجاح، رصصتُ الأزهار وأخرجتُ أعشاب الناجيلين وصنعتُ لنفسي كوبًا من نقيعها باستخدام الماء الساخن في القدر في ركن الغرفة، وجلستُ على الحشيّة في استرخاء، وأغلقت عيني، وبدأت في زيارة أماكن ذكرياتي السعيدة كما تقول (شاتان).

هل تعلم (شاتان) أية خرائب صارت إليها هذه الأماكن؟ هل تعلم أنني الآن أزور أضرحة مقابرها؟ هل جربت (شاتان) محاولات الهروب من شموس الحقائق المؤلمة في صحراء جرداء من أي ظل، فقط الرمال الساخنة، فقط الأشعة الحارة. تفتش في كل مكان فلا تجد الرضا، لا تعرف أين السكينة، فقط وجه (ألفن) الجميل، نغنغاته وهو رضيع، أسنانه الحمقاء حين يصرخ ضاحكًا، ونعشه على القارب الخشبي الأخير على شاطئ البحر.

(ألفن).. لكم اشتقتُ إليك. اخرج أرجوك، دعني أعش قليلًا بلا عذاب، ارحل عني وأرحني من جمال ذكراك.

(ألفن).. متى تواتيني الشجاعة بالانضمام إليك؟

قطع علي تروّحي الفاشل طرقات على زجاج الغرفة. ارتبكتُ، لقد كانت الطرقات من النافذة المطلة على الشارع. أشعلت مصباح الغرفة، واقتربت من النافذة بحذر، فتكررت الطرقات مرة أخرى، كشفتُ الستائر بهدوء، كان رجلًا ملثمًا يتلفّت وراءه بحذر، ولكني عرفته على الفور. ماذا يفعل هنا؟!

فتحت النافذة وساعدته على تسلقها، والتفتُّ بدوري يمينًا ويسارًا لأتأكد أن لم يره أحد، ثم أحكمت غلق النافذة من خلفي، ثم الستائر، ثم قبل أن يتكلم أحدنا أشرتُ له أن يعاونني بجر المقعد الخشبي العملاق أمام باب الغرفة، لو دخلت (شاتان) ووجدت (دال) معي لصارت قصة مأساوية لثلاثتنا. واجهته أخيرًا وقلتُ له همسًا: «دعنا لا نكثر من اللقاءات، كانت هذه كلمتك أنت، أليس كذلك؟".

- «بلى، ولكن أسماك الكامي تقفز أحيانًا".

لم أفهم ما يريد قوله، على الأرجح هو مثل آخر من أمثلة اليور، لا بد أنه يقصد أن للضرورة أحكامًا، أو شيئًا كهذا.

جلس على الأرض وأراح قدميه، والتقط واحدة من الأزهار وقلّبها في يده، وقال: «أخبروني أني سوف أجدك هنا فلم أصدق، لم أتخيل أن من جرّب الحقيقة، سوف يطيق مجددًا تَرِهات نقيع الناجيلين وأزهار الكِميت العفنة».

- «لماذا أنت هنا يا (دال)؟».

أخذ يشتمّ في الزهرة بين يديه محاولًا أن يتحاشى النظر إلى وجهي: «كان عليّ أن أتأكد. إذن أنت لم تقفز فعلًا مع (نيرال) والبقية كما تعاهدنا، لقد وقفتَ في الأعلى هناك تراقبهم يقفزون إلى نومتهم الأخيرة، ثم هربتَ كالجبان!».

حاولتُ أن أسترق السمع من خلال الباب الخشبي، لأتأكد إن كانت (شاتان) تسمعنا أم لا، ثم بصوت هامس أعدت: «ماذا تريد يا (دال)؟".

- «لم أطلب منك قط أن تذهب إلى هناك أو أن تسلب حياتك، أنت من اختار، وفي تلك الليلة في داري تعاهد أربعتكم على ملامسة الحقيقة بأنفسكم، ذهبوا هم كما وعدوا، أما أنت فقد خنتَهم».

انفعلتُ فجأة: «كفوا عن الهستيريا والخطورة التي تغلّفون بها كل شيء، انزلوا من على خشبة مسرحكم، أنتم لا تقومون بشيء مقدس، أنتم لا تقومون بشيء مهم حتى، أنتم لستم سوى مجموعة من البشر مصابين بالحزن، يا للسماء! هذا أمر جديد إذن! كل الناس تعساء لو لاحظتَ هذا، ولكنهم يتحملون آلامهم في صمت حتى يحين وقتهم من دون أن يهربوا بجبن من الحياة فرارًا إلى المجهول، أنتم حمقى».

نظر لي (دال) بحسرة وحزن، وقال: «ألم تتهيأ بعد؟ هل تراءى لك؟ حسنًا سوف أكون بخير فجأة، أربع سنوات من الأسى لم تكن كافية، سوف أتعافى من ذلك بدور التروّح العامة! أخبرني، ماذا بقي لك هنا؟ من الذي ما زال معك؟!».

أشرتُ إلى رأسي وقلت: «(ألفن) ما زال معي! إنه هنا. لو كان الكِميت صادقًا، لو كان الفناء هو من ينتظرنا بعد النومة الأخيرة، لكنتُ انتهيتُ في لحظة قفزي من أعلى الفنارة، كان (ألفن) سينتهي معي! هل تعلم أنت أي شيء عن حياته؟ هل سمعتَ أيًّا من أسراره، هل عرفتَ ما ألعابه المفضلة؟ لا يعرف أحد غيري ذلك، لقد رحل قبل أن يترك شيئًا في هذا العالم إلا ما حفره في وجداني، لقد ائتمنني على تراثه الصغير. أنا الدليل أنه قد عاش هنا يومًا! أنا الأحفورة التي تحمل بصماته. أنا الوحيد الذي ستحيا بداخله ذكراه ما بقيت.

أخبرني إذن كم هو حجم الغبي الذي سأكونه لو أضعتُ كل ما تبقى منه؛ لأن هناك من أخبرني أن شيئًا ما سوف يحدث، أو أنني قد أراه ثانية. نعم يا (دال) أنا لم أقفز لأني جبان، أخاف أن أفقده مرة أخرى».

لا أعلم متى تسربت الدموع من عيني، ولكن (دال) كان قد صمت. ودون كلمة أخرى قام وفتح النافذة وخرج.

هارول

قال (سولي): «هل سألتم أنفسكم لماذا نحب كل الطيور، نحب كل الزواحف، نحب كل الأشجار، ولا نحب من البشر إلا من يستحق؟!».

قال (سولي): «لا نهتم بهلاك العالم، ولا ببناء العالم، لا نهتم سوى بفهمه».

قال (سولي): «اليوم الذي نتوقف فيه عن البحث، وتخرس فيه الألسنة، وتُجاب كل الأسئلة بيقين، هو يوم فناء تلك الذات العميقة بداخلنا».

قال (سولي): «سيقولون عنّا إننا مخرّبون، سيقولون عنّا إننا مجانين، ولكن أقول لكم نحن لسنا سوى مجموعة من العطشى، الحقيقة فخٌّ متى أمسكت بك لا يمكنك أبدًا منها فرارًا».

قال (سولي) الكثير من الأشياء، كان يريد لنا أن نفيق من غفلة (الكِميت)، لم يطلب منا أن نسلب حياة أنفسنا، كان (سولي) يقول: «الكِميت يكذب، نحن لسنا أجسادنا، كينونتنا لا تنام بعد النومة الكبرى، هناك ما هو قادم، أنا لا أعلم ما هو، ولكن أعلم بوجوده. ولكن من أخبركم أننا من المفترض أن نذهب إلى هناك بأنفسنا؟ الذين يقتلون أنفسهم يسيئون فهمها، والأسوأ أنهم لا يأبهون باحترامها».

لم يطلب منا (سولي) أن نخرّب أو نقتل أو نبعثر أنظمة العالم، (كروماز) مجرد مجرم آخر، لم يكن يومًا متحدثًا عن المتشيئين ولن يكون، المتشيئون الحقيقيون ليسوا أتباع (كروماز) ولا حتى (سولي). المتشيئون لا يتبعون أحدًا، المتشيئون ليسوا جنودًا، ولا منقادين. هم حتى لا يصدقون كل ما قاله (سولي)، لسبب بسيط أنه قد طلب منهم ألا يفعلوا!

الإنسان يقع في شباك قناعاته، يمكنك أن تختار أن تقع في شباك الكِميت، أو أن تفر منها لتقع في شباك (كروماز)، أو أن تسحقك الحياة وتجعلك تعترف أنها أقوى منك وتقفز من فوق البناية التالية، أو يمكنك أن تقف في وجه ذلك كله، أن تثبت للحياة أنك تستحق وجودك، أن تواصل ما فعله (سولي) وتجعل من نفسك مثالًا يشرح للعالم كله أن الكِميت يكذب.

فرغتُ من خطبتي فصفّق الحضور، لم يكن التصفيق حارًا، هناك فتور لا شك فيه، أراهن أن الكِميتيين لم يشعروا براحة في أن تكون كذبة الكِميت هي آخر كلمة في خطاب قد صفّقوا عليه.

(المؤتمر الرابع للحوار والتقريب)، أو الأصوب أن نقول (الخدعة الرابعة) من الحكومة لمحاولة احتواء المتشيئين بعد أن صار واضحًا للجميع أن الأمور تفلت من أيديهم.

اختار مجلس المدينة مسرح (هنا) لانعقاد المؤتمر، منصة واسعة وساحة أنيقة للجمهور، وكواليس الممثلين المختبئة عن أعين الحضور تسمح لرجال الضبط السري بمراقبة الجميع من خلالها، مع بعض الإرهاب اللازم كي لا تخرج عن النص.

نزلتُ من المنصة الرئيسة واتجهت للمنصة الملحقة في انتظار كلمة (قاجان) مبعوث وكيل الجمهورية ليتكلم بذات كلماته المعتادة. في الطريق إلى هناك وفي تلك الخطوات اليسيرة ميّزتُ عدة إخوة لي وسط الجمهور، عرفتهم جميعًا في أوقات مختلفة في السنوات الخمس عشرة السابقة، لم أعد أعرف إن كانوا إخوة أم أعداء. هل انضموا إلى (كروماز) ويخططون الآن لاغتيالي باعتباري خائنًا، أو ينوون تفجير المسرح بمن فيه، أم أقنعهم (دال) بثرثراته المعتادة، وينوون الآن أن يضرموا النار في أنفسهم، أم سئموا كل ذلك وعادوا كِميتيين كما كانوا لا يريدون إلا ما تريده آلات المصنع من أصحابه، الوقود والصيانة مع بعض التشحيم من آن لآخر؟

حين اتّخذتُ مقعدي على المنصة الجانبية بجانب كبار الزوار، نظرتُ إلى الفرجة البعيدة في السور الخشبي المحيط ببحيرة الملح، من هذه المسافة ومع أضواء المسرح الساطعة وظلام البحيرة الدامس كنتُ لا أرى شيئًا ولكني كنت أوقن أن (كروماز) الوغد هناك الآن، في ذات بقعته المفضلة، يراقب المؤتمر الذي عُقِدَ أساسًا بسبب الفوضى التي أذاقها للجمهورية في كل مكان.

في اللقاءات اليسيرة التي جمعتني بـ (كروماز) على أمل التفاوض والاتحاد لم أستطع فيها فهمه قط. جميع طوائف المتشيئين يعلمون أن (هارول) هو أفضل من فهم فلسفة (سولي) قبل أن يختفي عنا منذ عشر سنوات. ولكني أنا كنت أعلم أن (كروماز) قد فهم (سولي) أفضل مني، هو فقط لم يؤمن به.

وقف (قاجان) الكِميتي القميء على المنصة الرئيسة وبدأ بدوره في الكلام:

«الكِميت هو العقل الوحيد، لا يمكننا أن ننكر أننا نرى ذلك، هؤلاء المخرفون الذين يصدقون رجلًا مجنونًا يدعي أنه قد ذهب لحافة العالم وعاد ليخبرنا أننا نعيش في كذبة، هؤلاء إنما هم مجموعة من الحزانى لم يحسنوا استخدام فلسفة الكِميت للتغلب على مصاعب الحياة.

المتشيئون على اختلاف مذاهبهم يعاندون الحقيقة، ربما لأن الحقيقة أقسى من أحلامهم العاطفية الخاصة. ولكن بالطبع السيد (هارول) هنا يمثل اتجاه العاقلين منهم، إنه لا يدعو للعنف، لا يتبنى الفوضى، ولا يغرر بالشباب ليقتلوا أنفسهم أملًا في إثارة أفكارهم وسط الناس.

الجمهورية على أتم الاستعداد للتعامل مع السيد (هارول) وأمثاله، فقط عليهم أن يسلموا أنفسهم، يحاكمون بمحاكمات عادلة على أية جرائم محتملة من الممكن أن يكونوا قد ارتكبوها أثناء فورة الشباب، ثم نعدهم بعد ذلك بتقنين أوضاعهم، وإنشاء دور تروح خاصة بهم، ويمكنهم أن يتبنوا فيها من الأفكار ما شاؤوا شريطة ألا يدعوا أحدًا غيرهم لها.

قلنا ذلك في عدة مناسبات من قبل، وعقدنا بضعة مؤتمرات قبل ذلك، ولا توجد استجابة من أحد، السيد (هارول) هنا اليوم بنفسه ليؤكد لكم أن ما يفعله المخرّبون لا يمت حتى لأفكار الخارج عن القانون (سولي تراك) بصلة.

أخيرًا أذكركم بالحقيقة التي يحاول البعض تزويرها: الكِميت هو العقل الوحيد».

لما فرغ (قاجان) من خطبته كان التصفيق أشد بالطبع، ربما يحيونه على رده لإهانتي لما ختم حديثه بامتداح الكِميت.

انتهى المؤتمر بنهاياته المعتادة، لم أُدعَ إلى واحد من قبل ولكني رأيت الكثير منها، حوارات صحفية، وشعارات كاذبة، مع الترقب والتلصص من رجال الضبط في كل مكان. في النهاية حان موعد الانصراف وركبت عربة الخيول وحولي سبعة رجال من حرسي الخاص على خيولهم إلى منزلي في ضاحية الـ (ليجان) شمال مدينة (أورارا).

هل مرت خمسة عشر عامًا حقًّا منذ أن انضممتُ لـ (سولي)؟! لكم تمر السنون سريعًا!

حين انضممتُ إلى المتشيئين كنت فضوليًّا فحسب، كنا نسمع عن المتشيئين الممنوعين بأمر القانون، نسمع عن (سولي تراك) الفيلسوف المجنون، الذي ظل يسير في أرجاء الجمهورية على قدميه أربع سنين يكلم الناس في الشوارع وينشر أوراقه المنسوخة على البيوت، آلاف الأوراق المنسوخة بيده، لم يبقَ أحدٌ في الجمهورية لم يَرَ واحدة من هذه الأوراق بخطه الصغير الدقيق وأفكاره الغريبة، وفوق الورقة بخط كبير مكتوب: (كِميت توبو)، بلغة اليور القديمة والتي تعني (كذبة الكِميت).

الغريب أن القلة القليلة التي صدقت به أطلق هو عليهم اسم (متشيئين)، لم يكن أحد يعلم سبب هذا الاسم، غير أن بعض الناس قد ذكرت أنه اسم قديم، من عصور ما قبل الحضارة، (سولي) قد أعاد استخدامه فحسب.

الكِميت.. تلك المجموعة من الأفكار والقواعد التي تنظر للإنسان كجزء من هذا العالم الطبيعي. لا أحد يعلم بالضبط من نظم هذه الأفكار في صيغتها النهائية، ولكن في النهاية فالكِميت هو روح ولسان الأنظمة الحاكمة منذ مئات السنين، لا يوجد غيره ولن يسمحوا بأن يوجد.

كان على أهل قارة الشمال أن ينتظروا مجيء (سولي تراك) ليخبرهم أن الكِميت يكذب، أن الإنسان يتميز عن هذا العالم ويشرئب بعنقه إلى ما يوجد وراءه، ادّعى (سولي) أنه مجرد ناقل، هو لم يكتب (كِميت توبو) ولم يخترعه، لقد تعلمه من أحدهم، معلمه الأول الغامض، هو نفسه لا يعرف عنه الكثير!

حين وصل (سولي) إلى جمهورية (أورارا) وحين بدأت أخباره تصل إلى جمهورية (الكرْم) وحين بدأ الناس هناك يتحدثون عنه بإعجاب، صارت حكومتنا تخاف منه، ما الذي يريده (سولي) بالضبط؟ هل له أهداف سياسية خفية؟ من هو أصلًا ومن أين جاء؟ لا أحد يعلم عنه شيئًا، كل ما تعلمه الحكومة أنه من إحدى قبائل أسفل الوادي، أهداف دعوته غامضة، أتباعه مخلصون، أفكاره مجنونة، وأن (الكرْم) تهتم به، أبيدوا (سولي) إذن وكل من معه! هكذا كان يفكر وكيل جمهوريتنا.

لم يكن شباب المتشيئين يحتاجون إلى أكثر من اضطهاد حكومتنا لهم حتى يتحولوا من أصحاب فكرة غريبة إلى أصحاب

تلك الفكرة الهامة التي سوف يدافعون عنها بحماسة وفدائيّة، هم لا يعرفون بعد ما هي أبعاد دعوة سولي بالظبط، ولكنهم الآن سيموتون من أجلها. الدراما يمكن أن يصنعها اثنان دائمًا!

تلقفهم (كروماز) بعد ذلك، نظّمهم وحمّسهم وأهداهم أجمل الهدايا وأخطرها جميعًا: الأمل في واقع يختلف! صار المتشيئون أشياء كثيرة بعد أن كانوا شيئًا واحدًا.

حين انضممتُ إلى المتشيئين كنتُ فضوليًّا فحسب، ولكني أُسِرت! قد يكون (سولي تراك) مجنونًا فعلًا، ولكنه صادق بلا ريب، صرتُ مع الوقت تابعه الأخلص، وتلميذه الأوفى، فهمتُ فلسفته وشربتُها، وفتحتُ بيتي وأموالي لدعوته، ولما هددونا بالسجن هربتُ معه إلى الجبل الغربي. كنتُ معه في كل مكان.

مررتُ في الطريق على شارع (سافينور)، تذكرتُ الشباب الذين ناموا هنا نومتهم الأخيرة منذ بضعة أيام، كانت (نيرال) من بينهم، الفتاة الجميلة التي لم تعد كذلك، بالندبة الضخمة على وجهها، وشعرها الفضي الجميل المميز والذي ربما كان السبب في اجتذاب مسبب ندبتها إليها في تلك الليلة السوداء في أحد الأزقّة.

قابلتُ (نيرال) منذ بضعة شهور في دار تروّح تشيُّئيّة بدائية أنشأها بعض شبابنا المتحمس في ضاحية الحقل الشمالي البعيدة، كنت أزورهم بدافع التساؤل، ماذا يفعلون هناك؟ إن (سولي) نفسه لم ينشئ دارًا كهذه، كانوا يجلسون هناك في حلقات، يحكون عن أنفسهم، عن أحزانهم أو الأفكار المثيرة التي تعتريهم حين ينظرون إلى السماء في الليل، يتناقشون في سبب المصائب، ومغزى الآلام، وغاية تلك الحياة، كانوا يفعلون كل ما يحرّم عليهم الكِميت أن يفعلوا، ولم يكن ذلك ناجحًا! والدليل هي تلك الصخور التي اصطبغت بدماء (نيرال)!

شعرت بغصة في حلقي، إن (سولي) لم يكن يحب من يقتلون أنفسهم، ينهانا عن ذلك بحزم، ولكن بعض الشباب ممن استبدّ بهم اليأس والكمد والرغبة في الفرار من هذا العالم التعيس كانوا يرتجلون أفكارًا صادمة، ومع الوقت صار ما يعرفه رجل الشارع عن المتشيئين هي مجموعات الشباب ذات الملابس المميزة وهم يقذفون بأنفسهم من أعلى المباني الشهيرة، أو في مياه البحر، أو يحرقون أنفسهم في أحد الميادين العامة. ثمّة من قال إن الهستيريا هي سيدة الموقف حين يتعلق الأمر بشاب متحمس قد يئس.

كانت أفكار المتشيئين تتطور سريعًا وتتغير بشكل أسرع، هناك عدة نسخ من كِميت توبو، وهناك عدة مجموعات مستقلة عن (سولي) ولهم قادتهم الخاصّون، أشهرهم (كروماز) طبعًا الذي حوّل الأمر إلى اعتراض سياسي لا شك فيه، وهناك من حوّل أفكار المتشيئين إلى عروض هزلية في على نفس خشبة المسرح هذه، أو قصص عاطفية في مكتبات المدينة.

لما أفلتت الأمور من بين يدي (سولي)، لما صار الناس يتشككون في الكِميت لألف سبب مختلف، لما علم أنه لا سبيل للعودة، ولا سبيل للنجاح، اختفى (سولي) فجأة كما ظهر، ولمدة عشر سنوات لم يسمع عنه أحد. قلة نادرة من تظن أنه ما زال حيًّا. بينما أغلب المتشيئين يسعون للانتقام له، بالنسبة إليهم، فالحكومة قد اغتالته، ولن يمكن تبرئتها أبدًا.

«مرحبًا بعودتك سيدي». أفقتُ على صوت الخادم يرحب بي لما وصلتُ منزلي، ترجلتُ من العربة، وأشرت إلى الرجال والخدم، جميعهم يعلمون أن لا أحد يدخل البيت غيري، حتى طعامي وخدمتي، أقوم عليها بنفسي.

أغلقتُ المنزل، أشعلتُ المصابيح، وتوجهتُ إلى الغرفة الملحقة بالطابق العلوي، دققتُ الباب طالبًا الإذن بالدخول، أجابني العجوز بصوته المتحشرج: «تعال يا (هارول)». دخلتُ فوجدته جالسًا يواجه النافذة، وبيده كتابه ينقش فيه، وعلى المنضدة بجانبه غداؤه لم يُمسّ.

خلعتُ معطفي وحذائي واستلقيتُ على الأريكة بجانبه متعبًا.

التفت إليّ (سولي) وقال: «حسنًا كيف كان الأمر؟».

سولي

أنا لستُ طبيبًا ولا حتى من رجال التهيئة، لا أعلم الكثير عن الجسم البشري ولا عن مكوناته، وبالطبع لا أعلم وظيفة ذلك الجزء النابض باستمرار في صدري، يسمونه القلب، هناك قادمون جاؤوا من أعلى وادي الرمال قابلتهم يومًا وذكروا شيئًا عن الدم وضخ القلب له، لا أعلم حقيقة كل ذلك ولكني أعلم كحال جميع البشر، أن هذا القلب لا ينبض لدى الموتى، نحن الأحياء فقط من نملك نبضه.

لا أدري إن كان أطباء أعلى الوادي سيوافقونني في ذلك، ولكني أظن أن هذا القلب يضخ ما هو أكثر من الدم، لربما يوزّع الحياة نفسها، تلك الأشياء التي تميزنا عن الموتى. وقد كان قلبي يوزّع الحياة في جسدي بشكل أعنف من المعتاد حين قابلتُ (ناجيلي).

أنا لستُ طبيبًا ولا حتى من رجال التهيئة، ولكني ميّزتُ جيدًا تلك النبضات الزائدة التي قام بها قلبي حين كنتُ أنظر إلى (ناجيلي) في حانوت (الصحة) الذي تعمل به، كنتُ أسترق النظر على خوف من أن تلاحظ نظراتي الخجول. ثم ميّزتُ جيدًا حين أفلت قلبي نبضة أو نبضتين حين التفتت فجأة فرأت عينيّ المصوبتين على وجهها.

أنا لستُ طبيبًا ولكني أعلم كل شيء عن الانصهار الذاتي، حين التفتّ أنا إلى وجه (ناجيلي) فجأة فوجدت عينيها المصوبتين على وجهي قبل أن تشيح بهما عني في خجل، حينها انصهرت جميع أعضاء جسدي من الداخل، أنا لستُ طبيبًا ولكني أعلم جيدًا أن ذلك الانصهار قد حدث، وإلا فما معنى هاتين الدمعتين الساقطتين وقتها، لم أكن حزينًا لأبكي ولا سعيدًا لتقرّ عيني ولا متعبًا لأتثاءب، كانت دموع الانصهار، لا شك في ذلك.

حين أخذتُ أتردد بشكل أكثر من المعتاد على ذلك الحانوت لأشتري كل الأشياء التي لا أحتاجها كانت تلاحظ هي ارتباكاتي وتحركاتي الحمقاء، في الخارج أنا لستُ أحمق في العادة، ولكن في داخل حانوت الصحة فأنا لا أعلم أين أضع يدي ولا كيف أنقّل قدمي، وبالطبع لا أنجح في إخراج جملة سليمة، حين كنتُ أنظر إلى عيني (ناجيلي) كنتُ أنسى طريقة الكلام التي تعلمتها منذ بضع وعشرين سنة.

قالت لي ذات مرة بخبث واضح: «لماذا تشتري كل هذه الكمية من برادة (السبير)؟ هل الصداع سيئ إلى هذا الحد؟».

(ناجيلي)! أَتُراكِ تعرفين؟!

- «لا، آآآ، نعم هناك صداع».

ثم قلتُ في نفسي: نفس اللعبة يمكن أن يلعبها اثنان، فأردفتُ: «ولكنه صداع مراوغ لا يأتيني إلا حين أدخل هذا الحانوت».

ابتسمت في خجل ناظرةً إلى الأرض ولم تعلق. إن (ناجيلي) فتاة ذكية.

«أنا لستُ طبيبًا ولا من رجال التهيئة، ولكني أعلم أن وجهكِ شفاء من كل صداع، لذلك لم أتناول أيًّا من برادة السبير التي اشتريتها منكِ»، همستُ بهذه الكلمات في أذنها في حفل زفافنا ونحن نحاول أن نحرس عباءاتنا من أقدام المتراقصين من حولنا، قالت: «أعلم ذلك يا عزيزي سولي، أنا كنتُ أعطيك طحين المنّ، لو كنتَ تناولتَه كنتُ سأعلم من تورّم جفنيك».

- «كنتِ ستُضحّين بجفوني كي تتأكدي من حبي لكِ؟!».

ابتسمت في شر مصطنع وعدّلت من عمامة زفافها الذهبية وقالت: «وبعينيك إن لزم الأمر».

تبًّا لكِ يا (ناجيلي) لَكَم أحبكِ!

أنا لستُ طبيبًا ولا من رجال التهيئة ولكني كنتُ أعلم أن العضو المسؤول عن الحب في أجسادنا لم يضمر بداخلي كما ضمر بداخل آلاف المُعمّمين بعد زفافهم. وبعد مرور السنين وحين كنتُ أرى (ناجيلي) تستيقظ من نومها بعيونها المنتفخة وخصلات شعرها الملتفة كالأغصان ونظرتها التائهة، كنتُ أبتسم كما لو كنا بحانوت الصحة منذ خمس سنوات، الفارق الوحيد أن نبضات قلبي لا تتغير حينها، كان قلبي قد وزّع على جسدي كل الحياة التي يحتاجها، (ناجيلي) معي، لقد انتهى دور النبضات إذن.

وها أنا ذا لا أذكر غالب تلك المشاجرات والجدالات التافهة التي خضناها، في نظري صارت صورة ماضٍ حزين لا تزيد

الواقع إلا جمالًا، حين تتذكر بعد أن شبعت على مائدتك كم كنتَ جائعًا منذ قليل! الحياة مع (ناجيلي) جميلة ولا يزيدها الجوع إلا مزيدًا من الشبع الآجل.

(ناجيلي) كانت قصيدة حب غنّاء وأنا كنتُ تلميذًا جديدًا في القراءة، كانت همسات لغة بِكر وأنا كنتُ وافدًا غريبًا على البلدة، كانت قطرات من الندى الصابح وأنا كنتُ زهرة لا تبدو جميلة إلا حين تتناثر عليها قطراتها، كانت (ناجيلي) دِفئًا جاءني بعد أن يئستُ من شتاء طويل.

أنا لستُ طبيبًا ولا من رجال التهيئة، ولكني حين رأيتُها وقد امتصّها المرض تاركًا عظام وجنتيها البارزة، حين رأيتُ بشرتها الصفراء ونظرتها الخاوية، حين كنتُ أنظر إلى عينيها فلا أجد فيهما حبيبتي التي كنتُ أعرفها، حينها علمتُ أن نومًا طويلًا ينتظرها، لم أصدق أطباء وادينا ولا كلمات مواساة جيراني، علمتُ أن (ناجيلي) سوف ترحل، أنا متيقن من ذلك، بقدر ما أنا متيقن من أني لن أقدر على حب امرأة بعدها.

وبعد أن حملت أخشاب (النول) جثمانها في بحر الكَرْم، وحين كنا نقف على الشاطئ نودعها، كان قلبي ينبض بعنف وقتها، كان يحاول أن يعيد أي شيء من الحياة إلى أعضاء جسدي النائمة، هتفتُ فيه: لا تحاول أيها القلب النابض، لم يعد هناك ما يستحق الحياة لأجله.

ولما انصرفتُ راحلًا أمام أعين الناس المندهشة قبل حتى أن يغيب جثمان ناجيلي في الأفق، لما لم أعبأ بهتافاتهم تواسيني أو تدعوني إلى انتظار أخذ العزاء، لما توجهتُ إلى أعلى وادي الرمال تاركًا بيتي وأمتعتي ولا أملك إلا نعلي وأسمالي، كان عقلي يفكر في شيء واحد: الأمر ليس كذلك، لا يمكن أن يكون كذلك!

أنا لستُ طبيبًا ولا حتى من رجال التهيئة، ولكني كنت أعلم أنه في تلك الليلة كان قد مات اثنان.

يولاند

- «هل هذا هو البيت»؟

قالها زميلي مستنكرًا وهو ينظر إلى البيت الذي لا يكاد يظهر من أغصان النباتات الثقيلة حوله، ثم أضاف: «كيف عرف المأمور بهذا البيت على كل حال؟».

قلت وأنا أتأمله بحسرة: «أحد فاعلي الخير أرشد عن ملاكه».

بنظرة سريعة على البيت الخشبي الصغير المنعزل خمّنتُ بعض ما يحدث، نظرت إلى زميلي وقلت له: «انتظر هنا، سوف أدخل منفردًا».

- «يولاند، هل تمزح؟ قد يكون مسلحًا».

همهمت بصوت خفيض وأنا أترجل من طمجني: «هذا رجل مسكين آخر»، ثم كررت له: «انتظرني هنا».

رفعتُ بارودتي أمامي وطرقتُ الباب متوجسًا، لم يجب أحد، أخذتُ أدور حول البيت في حذر، ونظرت من النافذة الخفيضة، لم يبدُ أن بالبيت أحدًا. عدتُ إلى البيت وبكعب البارودة كسرتُ المزلاج فانفتح الباب بصريره العالي وبقيتُ متأهبًا قليلًا ثم دخلت.

كانت غرفة المعيشة الفقيرة خالية، وعلى أثاثها بعض الأتربة، قد يكون سكان هذا البيت تركوه منذ زمن طويل، بحثت في أرجاء البيت فكان خاليًا كله، عدت إلى غرفة المعيشة، وأشرت إلى زميلي المتأهب في الخارج أن كل شيء على ما يرام، وأمام عينيه المندهشتين أغلقتُ الباب وجلست على الأريكة الخشبية المُنجّدة بحشيات متناثرة تنم عن فقر مال وفقر عام في الحس الجمالي المطلوب.

أنزلتُ بارودتي عن كتفي ووضعتها بجانبي وقلت بصوت خفيض وكأنما أكلم نفسي: «يمكنك الصعود من السرداب، أنا لن أؤذيك»!

لم يتحرك أحد فقلت ضاغطًا على كلماتي بهدوء بينما أمسح عرق جبهتي: «من فضلك لا تدعني أفتح ذلك الباب الثقيل بنفسي».

مضت لحظات ثم انفتح ببطء الباب الذي من المفترض أن يكون سريًّا في أرضيّة غرفة المعيشة وخرج منه على الترتيب رجل وامرأة وطفل وقد اتسخت ملابسهم بأتربة المخزن بالأسفل.

كانوا ينظرون لي في ريبة، وجلس الرجل قبالتي في تحدٍّ وأنفة، بينما اصطحبت المرأة طفلها إلى الداخل وهي تتراجع بظهرها ببطء وكأنها تطلب مني الإذن الذي لم أبالِ بمنحه.

نظرتُ إلى الأب وقلت موبخًا: «في المرة التالية التي تفكر فيها في الاختباء من رجال الضبط فضحٍّ ببعض الروكيات واختر نجارًا يجيد عمله. إن ذلك الباب السري لم يكن سريًّا تمامًا».

قال الرجل بصوت متقطع من كثرة الصمت: «أنا لم أفعل شيئًا».

- «أما هذا فلا أعلمه. ما أعلمه أنك هربتَ من المدينة إلى هذه الضاحية دون أن تقدم ما يثبت جهة سكنك الجديدة للمصلحة المختصة».

- «لقد رغبتُ في بعض الهدوء لعائلتي، هذا كل ما في الأمر، أردتُ أن أعيش كما علمني أبي بالقرب من الغابة وسط الأشجار وحيوانات البرية».

قلتُ عاقدًا كفيّ أسفل ذقني وناظرًا إلى الأرض في سأم: «أردتَ أن تعيش كذلك؟ أم لابنك أن يعيش كذلك؟».

صمت الرجل ممتعضًا وقد علم ما كنتُ أقصد، بينما أضفتُ أنا: «ابنك هذا، هل لي أن أفترض أنه قد وصل السادسة من عمره؟».

لم يجب.

رفعتُ صوتي منبهًا: «أنت!».

بدا وقد أفاق من سبات، وقال بصوت متحشرج: «نعم، سيدي، هو في السادسة والنصف».

- «وهل لي أن أسأل عن السبب الذي لم يُقيَّد من أجله ابنك بعد في (إصلاحية السادسة)؟».

لم يجب، فأضفتُ أنا: «أنت تعلم أن عقوبة ذلك هو حبسك لخمسة أعوام، أليس كذلك؟».

قال وهو ينظر إلى الأرض بينما يتعالى صوت امرأته بالبكاء من الداخل: «أعلم ذلك».

- «وهل رأيتَ أن الأمر يستحق؟ خمس سنين من عمرك في السجن لأجل ألا يدخل ابنك الصغير إلى تعليمه الإجباري لمدة عام واحد فقط؟!»

- «تعليمه؟!».

قالها بما يشبه الصرخة معترضًا.

- «هل تسمي ذلك تعليمًا؟!».

قلتُ بصبر: «أنت تعلم ما فعله المتشيئون في البلاد».

قال باندفاع وقد نسي خوفه السابق: «لو كان المتشيئون قد قتلوا رجلًا أو اثنين، فأنتم تقتلون كل أطفال البلاد! تأخذونه حين يبدأ التفكير في ما هو حوله وتحولونه إلى قطعة من الحجر الأصم. حين يسأل (لماذا) في (تعليمكم) ذاك فإنه يعاقب، في المرة الأولى بالتجاهل، والثانية بالعصا، والثالثة بالحبس في الظلام! كل ذلك لأنه نظر إلى القمر فأحب أن يفهم لماذا هو مضيء».

ثم رفع كمّه إلى أعلى وأشار إلى موضع حرق قديم أعلى عضده وقال: «هذه كانت إحدى هدايا تعليمكم الإجباري في إصلاحية السادسة، هل تعلم لمَ حصلتُ على هذا الحرق؟».

نظرتُ إلى الحرق الذي لم تخف السنين قبح رؤياه وهززتُ رأسي بالنفي. فقال: «لأني سألتُ معلمي من أي رحم ولدت أول امرأة فنهرني، ثم سألته عن مولد الشمس فضربني، ثم سألته إلى أين سنذهب بعد الموت فأخرج عودًا من النول المشتعل من مدفأته وقال لي إنه سيعطيني تذكارًا ليذكرني دومًا بمصير ذلك الذي يقضي وقته في السفسطة وما لا يفيد».

ثم صمت قليلًا ونظر إلى الأرض متألمًا وقال: «لقد كان درسه ناجحًا مع ذلك. لم أفكر من يومها في ما لا يفيد. لم أشعر يومًا أن ذلك ساعد ذكائي أو أوقد مخيلتي، لقد صرتُ عاملًا ماهرًا ولكني لم أصنع يومًا شيئًا جميلًا. أنت تعلم سيدي، في الحقيقة لقد كنتُ أنا من صنع هذا الباب السري الذي اكتشفته لتوك. لقد كان متقنًا من الداخل، لم أسأل نفسي يومًا كيف يظهر من خارجه!»

ثم سكت قليلًا وأشار إلى الداخل وقال باستعطاف: «ابني ذاك هو كل ما خرجتُ به من الحياة، لا يوجد سواه ما يمكنني أن أفخر به. أتمنى لو يكبر أمامي ليصير طبيبًا ذكيًا، أو معلمًا حكيمًا، أو نحّاتًا يعمل في هيئة الفنون. لا أريده أن يكبر ليصبح نجارًا متواضعًا مثلي. نسمع يا سيدي عن قصص نجاح ملهمة لمن سرّبهم ذووهم من إصلاحية السادسة، تمنيتُ لو امتلك أبي من الشجاعة ما يجعله يقوم بذلك معي».

بعدما ظهر أنه قد أنهى كلامه، أرحتُ ظهري ووضعتُ قدمي على المنضدة أمامه في راحة وقلت له: «هل تعلم كم مسجونًا لدينا هناك في أبراج القلعة من المتشيئين؟».

نظر لي منتظرًا الجواب، فقلت له: «قرابة الألف رجل وامرأة! كلهم يفكرون مثلك، يقولون (سولي تراك) ذكرنا بما كنا نسأله ونحن صغار، يدعون أن إصلاحية السادسة هي سبب قبول الناس لما يخالف بداهتهم، يقولون إن الكِميت يخالف كل تلك الأشياء التي... نشعر بها في جلسات السمر في المساء.. شيء ما هناك، شيء ما ليس هناك، شيء ما لا نعرفه، شيء ما نظن أنا نعرفه. أليس كذلك؟ هل هذا هو ما تريد لابنك أن يكون عليه؟ حائرًا في متاهات الطرق ودوامات الغابة».

تمددتُ أكثر على الأريكة محاولًا الحصول على أي قدر من الراحة خلال حشيتها الخشنة، وأكملت: «كان هناك ذلك الرجل، أحضروه لنا كي يعلمنا أهمية ما نفعله، كان رجلًا قصيرًا يلبس عوينات سميكة ولا يسير إلا بكتاب تحت مرفقه،

رجل دقيق هو، من الذين تحب أن يخبروك بما يعلمونه وتعلم أنهم لا يمزحون..

أخبرنا أنهم قاموا بتتبع الحالات المتسربة من إصلاحية السادسة، لم يصبحوا جميعًا من المتشيئين، ولكن الكثيرين منهم أبلغوا أنهم من التعساء! سألتُ الرجل وقتها: لماذا؟ هل تعلم بم أجابني؟».

هز الرجل رأسه نافيًا، فقلت مشيرًا إلى رأسي: «أشار إلى هنا، وقال لي: يولد الطفل على استعداد للخرافة! يبحث عنها، ويأنس بها. وحين لا يجدها، يبقى بقية حياته في انتظارها لتفسر له لماذا جاء! قال الرجل شيئًا عن المصير الحتمي للعقل البشري غير المعلم، أشياء من هذا وذاك».

ثم أشرتُ إليه بتحفز وقلت له: «لا تخلط بين البداهة والخيال. الخيال لا يفيد أحدًا، وبداهتك على ما يرام، لقد كان من علمك النجارة حمارًا! لم يكن هذا ذنب معلم الكِميت في شيء. لقد كان عليكَ أن تدرس الباب من كل الزوايا وألا تغفل النظر إليه من الخارج، لا دخلَ لذلك بكل تلك السفسطات التي كنا نفكر فيها ونحن صغار، إنها سفسطات من يظن أن أفكاره هي المحور الذي تدور عليه الخلائق. إنها مرض يجب أن تخرجه من طفلك قبل أن يكبر في عالم لن يبالي بأسئلته التي ستودي به إلى حافة الجنون».

ثم قمتُ من مقعدي وعدّلتُ من ملابسي وحملت بارودتي وقلتُ وأنا أتأهب للانصراف دون النظر إليه: «سجّل ابنك في أقرب إصلاحية قبل أن يبلغ السابعة، لو انتهى به الحال في مخفري متشيئًا أعدك أني سوف أعود بحثًا عنك أنت أيضًا!».

ثم خرجتُ من البيت وقلت لزميلي الذي كان يتسلى ببعض أوراق القِطيم من على صهوة جواده: «هيا بنا، لا يوجد أحد في البيت». ضحك باستهزاء وظن أني أمزح، فلما رأى وجهي الجامد قال: «أنت تعلم أني كنت أراكما من النافذة تتحدثان، أليس كذلك؟».

ركبتُ جوادي ونظرتُ له بحدة وقلتُ بحزم: «قلتُ إنه لا يوجد أحد هنا».

ثم لويتُ اللجام عائدًا إلى المدينة وسمعتُ صوت ضربات جواده من خلفي يتبعني.

سيرا

قلتُ للسيد (تومان): «اشرح لي، ماذا سنجني من معاداة الوكيل ومجلس النواب على الملأ وفي صفحات الجرائد؟ ولم تجد خيرًا من (قومار) ليتحدث عن بعثتنا؟ هل قرأتَ صحيفة (الأمة) أو (النماء)؟ لقد صرنا من أعداء الشعب، وهناك دعوات لإقالتك».

قال مع ضحكة قصيرة: «سيرا، ما كل هذا؟ ارحمي نفسك من التفكير قليلًا».

ثم جلس على مكتبه وقال: «أعدك أن كل شيء سيكون على ما يرام، لديّ خطة».

فتح دفتر أوراقه ثم مد يده لي بإشارة للبدء، ابتلعتُ رأيي في (خطته) تلك، وشرعت في القيام بما جئت مكتبه لأجله.

كان مكتب (تومان) فقيرًا كحال كل شيء هنا في مجمع الأبحاث، ولأن معمل أبحاث (الرياضيات) التابع لقسم (الرصد) يتمتع باهتمام (تومان) الأكبر كانت تتوفر لدينا معظم الموارد القليلة أصلًا للعمل على أبحاثنا. لم ينبغ في هذا القسم إلا اثنان، أنا وهوسيرل، لم أر نفسي نابغة يومًا ولكن (تومان) يؤمن بي لسبب لا أعلمه، وطوال السنة الماضية لم أساهم في هذا المشروع إلا بالشيء الوحيد الذي أجيده فعلًا، الرياضيات. والآن بعد أن تم البحث يمكنني أن أفخر بنفسي قليلًا كوني ساهمتُ في الإثبات الرياضي لنظرية السيد (تومان نيقه) العظيم».

كان الوقت صباحًا وأشعة الشمس تدفئ الغرفة الضيقة المكونة من مكتب وأريكة وكرسيين خشبيين، ودورة مياه ملحقة، كانت هذه الأريكة السرير الذي ينام عليه (تومان) في كثير من الأيام التي يستغرق فيها في العمل إلى وقت متأخر، برغم رفاهة بيته الكبير في ضاحية (الليجان). أعباء الإدارة كان من المفترض أن تنسيه شغفه بالرياضيات والرصد، ولكن هذا لم يحدث، ولم يكن (تومان) أنجح مدير في الدنيا.

ناولته حافظة أوراق مطوية بعناية: «هذه هي النسخة الأخيرة، قمت بمراجعتها جيدًا، مع بعض الإضافات في الخاتمة».

تناولها مني وقال: «أية إضافات؟».

- «الجزء الخاص بنظرية (رابيل)».

قال لي (تومان) وقد بدا متحمسًا: «اجلسي واشرحي لي أكثر».

جلست على طرف الأريكة بينما تتسلى أطراف أصابعي بخنق وتعذيب بعضهم البعض، وفي محاولة لإخفاء توتري وضعت حقيبتي على حجري، هل يمكن أن تخفي حقيبتي نظراتي أيضًا؟

- «لو كانت الحافة هي حافة الأرض فعلًا، فإن نظريات (رابيل) و(سالين) متناقضة، فبينما يتحدث (رابيل) عن قرص الأرض وثقالتها نحو المركز، يتحدث (سالين) عن كتلة ثابتة عند حافتها يمكننا أن نتجول فيها وإليها بحرية. ولكن لو كانت الثقّالة عند المركز بالفعل، وينبغي أن تكون كذلك، فإن المسافر نحو الحافة سيواجه صعوبة أكثر وأكثر كلما وصل إليها، عند الحافة البعيدة عن المركز ستنحني الثقّالة أو تتشوه وكأن الأرض -ومعها البحر- ستنحني إلى الأعلى والخلف، سيكون وكأنه يصعد جبلًا شاهقًا يزداد تقوسه في كل مرة..

وعند الحافة نفسها وبافتراض وصول ذلك المسافر الهمام الذي سيصل إلى هناك متحديًا كل هذه القوة غير العادية، فإنه وبسقوطه منها، لن يسقط! بل سيجلس على باطن الحافة الخارجي مرتاحًا، لأن مركز قرص الأرض بأسفله، الثقّالة سوف تثبته في مكانه، لن يسقط بعيدًا عنها..

في هذا الملف كل الإثباتات الرياضية الخاصة بذلك التي قمنا بها معًا، ولكني وضعت إضافة يسيرة في آخره».

بدا (تومان) مهتمًّا، وقال: «وما هي؟».

- «ستتسق معادلات كل الأطراف بخصوص ثبات الأرض في حالة استمرت الأرض إلى ما بعد الحافة في الاتجاه المعاكس».

- «تقصدين.. مثل الأسطوانة؟!».

تناولت قطعة من البسكويت من على مكتبه ورفعتها في وجهه قائلة: «بل مثل القرص» ثم قضمتُ منها قطعة.

وقلت بفم ممتلئ بالبسكويت: «سوف تحافظ الثقالة في مركزنا على ثبات الأرض لو كانت الأرض لها وجهان نعيش نحن على أحدهما فقط. وبينما تتمتع الحافة بمواصفات طبيعية خاصة وملتوية للغاية، فلا يمكننا توقع أي شيء فيما يخص الوجه الآخر لو وُجِد».

تحمس (تومان) ولمعت عيناه ووضع يده على رأسه مرتاحًا في مقعده، فقط (تومان نيقه) هو من يستمع إلى أي جنون علميّ ثم يعامله باحترام لائق! ولو ذكرتُ ذلك لأحد علماء جامعة التجريبيين التي تخرجتُ منها لسقطتُ من عينيه للأبد.

قال (تومان) بعد تفكير طويل: «لا مانع من أي افتراض، سوف نذهب بأنفسنا لاختبار كل هذا لاحقًا. ولكنك قمتِ بالرياضيات الخاصة بهذا الجزء؟».

- «نعم».

أخذ ينظر لي ويفكر قليلًا وكأنما يلوك الفكرة، ثم قام (تومان) من مقعده، وواجه النافذة المطلة على البحر مفكرًا كعادته حين تستحوذ عليه فكرة، حاولتُ أن أتحاشى النظر إليه، ولكني قدرتُ ألا ضرر من ذلك، لا يمكن أن تفضحني نظراتي إذا كان ظهره هو ما يواجهني. ظهره العريض القوي وقامته الطويلة وشعره المتناثر على كتفيه، سيرا! كفي عن الهراء. أرجوكِ.

التفت لي وابتسم ابتسامته الدافئة، تبًّا!

ثم قال: «سيرا، أنتِ عبقرية، لا أعلم كيف لم تخطر هذه الفكرة على بالي، ولكني فخور بكِ إلى أقصى حد، أنتِ فتاتي الصغيرة!».

لم أكن صغيرة، ولكني لا أمانع في أن أكون فتاته الصغيرة، ربما أنا صغيرة بالنسبة إليه، بفارق عمر يزيد على العشرة أعوام، لم لا؟

ولكن بينما يبدو هو في وسامة وعنفوان الشباب، كنت أبدو أنا كامرأة عجوز وأنا في أول العشرينيات من عمري بعد. لم أكن أعلم ذلك عن نفسي، ولكن بعد عدة مواقف من شباب يماثلونني في العمر يتعاملون معي باحترام باعتباري في سن أمهم، فهمتُ كم عجوز بائسة يبدو عليها وجهي، ربما لأن الجمال تترجمه أذهاننا على أنه صحة الشباب، بينما قبحي أنا شبيه بالهِرم ذاته!

قلت في خجل بينما أصابعي تكاد تتحطم في قبضتي: «أشكرك يا سيد تومان على كلامك اللطيف، كل هذه معادلات على الورق فحسب».

رفع عينه عن حافظة الأوراق التي كان يقلبها ويتأمل ما فيها جيدًا، وقال: «لا أثق يا عزيزتي في ما تراه عيني معشار ما أثق في معادلات الورق».

قاطعه صوت طرقات حازمة على الباب، أشار لي أن أفتح الباب.

فتحت الباب وجدتُ امرأة في منتصف العمر، بثياب أنيقة عملية فاخرة، وتلتف عباءتها بإحكام حول خصرها لتكشف عن سروال جلدي تحتها يشي بعملية رجولية دخيلة على مظهرها الأنيق. لم تكن تضع الكثير من مساحيق التجميل ولكنها كانت جميلة، ليست باهرة الجمال، ولكنها أميرة أحلام بالنسبة إليّ بالطبع.

دخلَت إلى المكتب بدون أن يدعوها أحد، ونظرت يمينًا ويسارًا بنظرة فاحصة لكل شيء فيه، ثم نظرت لي في ود مصطنع، وهزت رأسها بابتسامة تحييني، ثم التفتت إلى (تومان) وقد بدا قد تعرف عليها. قال: «مرحبًا بكِ في مكتبي المتواضع، سيدة (كالينا)».

جيرالد

- «خذ الحذر».

صرخها في وجهي ذو الثمانية أصابع وأنا أرفع غطاء الصندوق الخشبي بعنف عند بوابة الثكنات، كان الصندوق قد وصل صباح اليوم، ورفض (سوقار) أن يدخله أو أن يدع ذا الثمانية أصابع يرحل قبل أن أتأكد من سلامة الطرد.

قلت له بابتسامة ساخرة: «اهدأ يا رجل، ألا تعرف أن كل الخواتيم تتشابه».

نظر للثلاثة رجال الذين معه، وقال: «هذا الهراء لكم أنتم فقط، بالنسبة لي فأنا أريد العيش أطول فترة ممكنة».

تجاهلتُ الرجل ونظرتُ في الصندوق الخشبي، واحد اثنان، ست قوارير، أكثر من كافٍ. لدينا الكثير من النيتروجلسرين في الثكنات، ولكن هذه بعض الإضافات لاحتياجاتي أنا! أشرتُ إلى (سوقار) فأنقد الرجل كيسًا من الروكيات.

ألقاه الرجل في وجهه، وبصق على الأرض وقال: «آخذ أجري ذهبًا».

نظر لي (سوقار) فأومأت له موافقًا، فأعطاه ثلاثة كورونات، قلبها في يده ثم انصرف.

يقولون إن هذا الرجل وُلِدَ هكذا. بثمانية أصابع في كل يد، أربعة على كل جانب وفي المنتصف لا يوجد إبهام. لذلك لا يجيد استعمال الأسلحة أو الذخيرة ولكنه يعرف جيدًا كيف يحصل على أي نوع منها، شكل يديه الغريب جعله مميزًا في جميع أنحاء البلاد. مع الشهرة قد تبني سريعًا أية سمعة أو تحطمها.

أشرتُ إلى اثنين من الرجال ممن أثق في شدتهم بأن يحملا الصندوق بحذر إلى الجناح الجنوبي، وبينما يغادرون إلى هناك، كنتُ أراقبهم في قلق بالفعل، لو تعثر أحدهم وسقط لاحترقنا جميعًا!

ثم تذكرتُ المرأة الأسيرة، تلك التي عثرت علينا في ليلة مراقبة (ليبنتس). لم أزرها هناك قط أو أسأل عنها، أفضل ألا أعرف عنها شيئًا بعد أن أصدر (كروماز) حكمه. ولكني لمحتُ من بعيد (إيزكل) يسير في ذات الطريق فتبعته حتى وصل إلى حجرة الزنازين. ماذا يفعل الأبله؟

دخل إلى الحجرة، انتظرتُ في الخارج قليلًا مترددًا إن كنتُ أدخل أم لا، ولكن استبدّ بي الفضول في النهاية، فدخلتُ خلفه، تسمرتُ حين وجدت (كروماز) في وجهي!

كان (كروماز) جالسًا بجانب حارس الزنازين السبع الممتلئة على آخرها، ممسكًا بكتاب صغير كان على ما يبدو يتسلى بالقراءة فيه في أغرب موقع ممكن! هل كان ينتظرنا؟

رآني (كروماز) فتبسّم، وقال: «جيرالد، لقد كنت أظن أن (إيزكل) قد جاء وحده».

التفت (إيزكل) بعصبية فرآني، ارتبك ولم يفهم، لا بد أنه حسب أننا نراقبه أو شيء من هذا.

قلت لكروماز ضاغطًا على كلماتي: «لقد جاء بالفعل وحده، كنت أتبعه للتأكد أنه لا يقوم بأي فعل غبي فقط».

قال (إيزكل) مدافعًا عن نفسه، بشكل يوحي أنه كان ينوي أن يقوم بعمل غبي بالفعل: «المرأة لا ذنب لها».

قال (كروماز): «أعلم».

نظر له يتأكد إن كان يمزح فرأى وجهه الجاد.

قال (إيزكل) وقد تلعثم: «لماذا حكمتَ عليها بالموت إذن».

ضحك (كروماز) بهدوء ثم وضع الكتاب مقلوبًا على وجهه على المنضدة التي أمامه التي يضعون عليها أطباق أطعام الأسرى. لمحتُ عنوان الكتاب بسرعة: (مدينة هيلدا). ثم نزع عويناته وفرك عينيه، ثم قال: «طوال حياتي، لم أحكم على أحد بالموت، صدق أو لا تصدق، ولكن الحياة هي من كان يحكم»!

قال (إيزكل): «ولكنها لم تفعل أي شيء خاطئ، هي لا تستحق الموت».

قام (كروماز) من مقعده متجهًا إلى (إيزكل) بخطوات بطيئة وهو يقول: «ما هو الشيء الخاطئ الذي تنفيه عنها، أو ما هو ذلك الشيء الخاطئ الذي كانت لتستحق الموت من أجله؟ ما الخطأ بالنسبة إليك يا (إيزكل)؟ هل تظن أنه نفس

الخطأ بالنسبة إليّ؟ أم بالنسبة إلى الوكيل، أو (سولي تراك)؟ هل تظن أنك أيضًا لم تفعل شيئًا خاطئًا؟ أو تظن أني لو قتلت هذه المرأة الآن سأكون أنا فعلت شيئًا خاطئًا؟».

أخذ (إيزكل) يراقب اقترابه منه في خوف بينما تابع (كروماز): «هل هذا هو ما تظنه فيّ يا (إيزكل)؟ أنني مجرم؟ قاتل؟ هل ذلك يجعلني سيئًا؟».

وقف أمامه وأمسك بيديه وانحنى قليلًا لتواجه عيناه عينيه، وقال: «هل تحب حقًّا الحكم على الآخرين إلى هذا الحد؟ يا لك من مغرور! من أنت كي تحكم على هذه المرأة المسكينة بأنها طيبة أم شريرة؟».

ثم أشار للحارس بأن يفتح له الزنزانة الأخيرة، تلك التي وضع (كاي) المرأة فيها. وأثناء ما كان الحارس يفتح الزنزانة، قال له: «يمكنك أن تسير في الشارع بدون مظنة الخطر ثم، بووم. تموت من حصان هائج كان يتسكع هناك. يمكنك أن تكون بيدقًا آخر في لعبة الحرب بين جمهوريتين سوف تتصالحان غدًا ويتحدثان عن الأرقام، هل تفهم يا (إيزكل)؟ من الممكن أن تكون مجرد رقم. الأمر كله مجرد سياق!

هل تجد أي معنى من كل هذا؟ ألا يبدو لك الأمر مجرد... خدعة؟ أو لعبة ربما. ما رأيك يا (جيرالد)؟ هل هي خدعة أم لعبة؟ أظن أنها أقرب للعبة فعلًا، ألا توافقني؟ ألا توافقونني؟».

صمت قليلًا ونظر إلى الأرض برهة، وكأنه يتذكر شيئًا، ثم قال: «الحياة تلعب معنا، ولعبتها عادلة؛ لأنها عمياء».

ثم أشار إلى (إيزكل)، وقال: «هي لا تنظر إلى الأشياء التي لا معنى لها مثل الصواب والخطأ، كما تفعل أنت».

دخل (كروماز) إلى الزنزانة وألقى التحية على المرأة التي كانت مستيقظة ومرعوبة. ساعدها على الجلوس، ثم أشار إلى (إيزكل) ليدخل، دخل بينما بقيتُ أنا في الخارج، وهممتُ بالرحيل.

- «لا، (جيرالد)، أنت معنا في هذا، تذكر».

كانت هذه من (كروماز) حين لاحظ أني أحاول الرحيل، قبل أن يقول لـ (إيزكل): «أخرج سلاحك».

تردد (إيزكل) ثم قرر ألا يفعل شيئًا، هنا نظر له (كروماز) نظرة نارية، تراجع (إيزكل) على أثرها خطوة إلى الوراء وقد بدا مرعوبًا، ثم أخرج خنجره ومد يده به إليه. قال (كروماز): «لا، يبقى معك». ثم تقدم إلى المرأة وقد صار يقف خلفها، وأشار إلى (إيزكل) كي يتقدم إليها معه، ثم أمسك بيد المرأة برفق، ووجه كلامه لـ (إيزكل): «هل قتلتَ من قبل؟».

- «لا».

- «كيف تأكل إذن؟».

- «عفوًا سيدي، لا أفهم، أنا لا آكل البشر!».

بدا (كروماز) مشمئزًّا من الفكرة وبدا كأنه يقاوم التقيؤ، وقال: «ومن الذي يأكل البشر يا (إيزكل)؟ ما هذا القرف؟».

قال (إيزكل): «لو تقصد الخراف والأرانب، فأنا اصطدت من قبل بالتأكيد».

- «اصطدت! لماذا تقول ذلك؟».

- «أقول ماذا؟».

- «اصطدت ولم تقل قتلت».

- «لا أعلم، الاعتياد على ما أظن».

- «هل ترى أن هناك فرقًا بين الصيد والقتل؟».

- «ربما لا يوجد فرق فعلًا».

- «إذن أنت قتلتَ من قبل».

- «فقط خراف أو أرانب كما قلت».

- «ماذا عن البعوض؟».

- «ماذا؟».

- «البعوض، إيزكل، ماذا عنه؟ هل قتلت بعوضة من قبل».

- «أجل، بالطبع يا سيدي».

- «أنت قاتل إذن يا إيزكل، ربما تكون قتلتَ أكثر مني، أنا لا أذكر أني قتلتُ خروفًا من قبل».

ثم واجه المرأة، وقال لها: «سيدتي، ما اسمكِ؟».

بدت المرأة مرعوبة، وقالت وهي تبكي: «أرجوك».

قال لها بهدوء: «أجيبيني من فضلك، ما اسمك؟».

- «إيليت».

قال باحترام وتواضع: «تشرفتُ بمعرفتك سيدة (إيليت)».

- «أرجوك يا سيدي، اتركني أرحل، أنا لن أخبر أحدًا».

- «هششش، لا تخافي، كل شيء سيكون على ما يرام».

ثم أضاف: «كل الخواتيم تتشابه».

بكت المرأة بحرقة، بينما أكمل هو: «هل لديكِ زوج؟».

ترددت، على ما يبدو لم تعرف ما الجواب الذي قد ينقذها في هذه الحالة؟ ثم قالت: «نعم».

- «هل لديكِ أولاد؟».

- «ولد واحد».

- «هل تحبينه؟».

- «نعم».

- «هل يحبك؟».

قالت وهي تبكي: «بالتأكيد».

صمت قليلًا ثم قال: «هل تظنين أن الخروف المسكين الذي قتله (إيزكل) لم يكن لديه أولاد؟».

بكت (إيليت) مجددًا وقالت: «سيدي أرجوك، لا أريد أن أموت».

تجاهلها (كروماز) وأشار إلى (إيزكل) أن يتقدم، وقال: «هيا، لن نظل هنا إلى الأبد».

قال (إيزكل): «سيدي، إنها ليست خروفًا، هي إنسانة».

قال (كروماز) بصوت خفيض وهو يقترب من أذن (إيزكل) وكأنه لا يريد لأحد أن يسمعه: «هششش، أعلم ذلك يا صديقي، ولكنها لا تؤمن بذلك، هي كِميتية، (يجب محاربة ورفض أية رؤية فوقية للإنسان تميزه عن الطبيعة)، هل تذكر؟ إنه أول سطر في الكِميت، لقد حَفِظتَه منذ أن كانت في إصلاحية السادسة، حان الوقت لكي تفهم معناه».

- «سيدي، أنا لا أريد أن أفعل».

- «يمكنك أن تقتلها برحمة، أو أن تدعني أنا أفعل!».

من هذه المسافة كنت أرى وجه (إيزكل) وأعينه الدامعة، ولكنه كان يبدو ضعيفًا وسينكسر، تدخلتُ أنا في الحوار لأول مرة بسرعة، وقلت لـ (كروماز) بصوت عالٍ بدون تفكير: «ربما علينا أن نجعل الحياة تعيد اختيارها الأعمى مرة أخرى».

التفت لي (كروماز) منتظرًا لي أن أنهي كلماتي، فقلت دونما تفكير بمدى غباء كلماتي: «الكتاب الذي تقرؤه، رواية (مدينة هيلدا)، هل تذكر قصة الفتاة (إنسينا)؟ لقد مرضت وكنا سنظن أنها ستموت، ولكنها في النهاية ستُشفَى. ربما علينا أن نعامل (إيليت) كما عاملت الحياة (إنسينا). في النهاية، وبأي قرار نتخذه بشأنها، فالحياة هي من رسمته، هل تذكر يا (كروماز) ما قلته لي؟ (لن تبقى إلا لوحاتها في النهاية)».

ابتسم (كروماز) وأخذ يفكر قليلًا في كلماتي، ثم قال: (حسنًا). وخرج من الزنزانة والتقط كتابه وعويناته من المنضدة، ثم اتجه لباب الخروج وقبل أن يرحل ناولني كتابه وقال: «يمكنك أن تأخذه، لقد قرأته مرتين من قبل بالفعل». امتقع وجهي، فقال: «نعم، نعم، أعلم أنك كذبت، (إنسينا) ماتت في النهاية بالفعل، لكن لا بأس، أنا فخور بك، ارتجالك الطفولي هذا كان... جميلًا. للحظة نسيت أنك (جيرالد) الحكيم الذي يخطط لكل شيء جيدًا. لقد جعلتَ من نفسك أحمق من أجل منع لحظة أردتَ لها بشدة ألا تتم. لقد أعجبني أنك بدأت تستمع لنصائحي».

وأشار إلى المرأة التي كانت ترتجف، وقال: «اعتبر هذه مكافأتي لك». ثم تركنا ورحل.

هارول

أعددتُ هذه الغرفة منذ سنوات، اغرورقت عينا (سولي) بالدموع لما قدمتها له في تلك الليلة التي أخبرني فيها أنه ينوي الرحيل، كنتُ أخاف عليه وأريد إبقاءه أطول فترة ممكنة، لم أكن أعلم أن الحل الذي قدمته أنجح من اللازم، وها هو الآن بعد ما يقرب من عشر سنوات من العزلة لم يخرج من هذا البيت ولم يفارق غرفته يومًا إلا من ساعتي الصباح الأولى في الحديقة يرعى نباتاته الخاصة.

كانت الغرفة تحوي سريره، وبجانب النافذة كرسيّان خشبيان مبطنان بالحشيّة. وفي الطرف الآخر مكتبة عملاقة ملأتها بكل الكتب التي طلبها مني سولي من كافة أطراف قارة الشمال، كانت الكتب تأتيني بشكل خاص بناء على طلبي، كتب عن كل شيء، ولكن معظمها في فلسفات الكِميت وما قبل الكِميت. بعض هذه الكتب كفيل بإيداعنا السجون بمفرده لمجرد امتلاكه بغض النظر عن أي نشاط آخر.

عكف (سولي) طوال سنوات عزلته يقرأ وينقش في مفكراته، ليلًا، وفي الصباح يجلس في الحديقة الخلفية يتأمل، ثم يطالع الأخبار بقراءة الصحف التي أحضرها له كل صباح. كان يهرم أمام عيني، وكنت أكبر معه، بدون زوجة أو ولد أو صديق، كان (سولي) هو رفيقي الوحيد، مع الوقت صرنا واحدًا.

- «اجلس يا (هارول)، فيم أنت شارد؟».

نظرت له، العجوز الأشيب الذي قارب السبعين، ما زال يحتفظ بالكثير من قوته، ولكن اجتمعت السنون على وجهه بالتجاعيد، تلك الثنيات التي تخفي وراءها الكثير من بؤس هذه الدنيا، وحكمة الدهر ذاته، وبينما ينسدل شعره الأبيض على كتفيه، كانت لحيته الكثة تغطي رقبته بالكامل، وقد تدلى حاجباه على عينيه.

لم يكن يلبس إلا ملابسه التي اعتادها في قبيلته التي جاء منها أسفل وادي الرمال، الكثير من العباءات المتداخلة ذات اللون الواحد، كأنها مغارات غير مكتملة، بينما يسير بعرجة خفيفة بسبب قدمه العليلة.

- «لا شيء، فقط شردتُ في السبب الذي جعلك تدعوني للقدوم إلى هنا، منذ زمن لم أدخل مكتبك».

قال (سولي) وهو يجلس على مكتبه: «سوف أخبرك، عزيزي (هارول)، من فضلك اجلس، هذا بيتك في النهاية». ثم ضحك في هدوء.

ناولني دفترًا كبيرًا مما كان ينقش فيه. قلت: «أنت تعلم أني لا أجيد لغة اليور»، وسولي لم يكن يكتب إلا بلغة اليور، كان من قبل لا يعرف القراءة أو الكتابة إلا بلغة اليور القديمة التي يتحدثها أهله في أسفل وادي الرمال، ولكنه تعلم أن يقرأ بغيرها لما عرف أن الكثير من المعارف الحديثة لم تعد تُكتَب بها، فقط الكتب العلمية الرصينة كانت تحافظ على وقارها بها، ومع الوقت لم يعد أحد يتحدث بهذه اللغة إلا علماء الجامعات وأساتذة مدارس الفلسفة.

قال (سولي): «ليس ما كتبته، ولكن ما قصصته! هاك، انظر». ثم فتح لي الدفتر على صفحات كان قد لصق بها قصاصات منزوعة على ما يبدو من الصحف. كانت القصاصات كلها عن رجل واحد، (تومان نيقه).

شعرتُ بالرعب من التاريخ المدون أعلى ركن كل صفحة، فقد كانت أقدم هذه القصاصات منذ تسع سنوات وأكثر! كان (سولي) يتتبع أخبار هذا الرجل، منذ بداية عزلته تقريبًا! كانت الأخبار الأولى عنه تتحدث عن أفكاره ونظرياته، ولم أفهم منها شيئًا. كان هناك بعض الكلام عن نظريات (رابيل) و(سالين)، وأن الحافة ليست حافة العالم. ثم في النهاية آخر قصاصة وضعها سولي كانت بتاريخ هذا الأسبوع الذي نحن فيه، كان حوارًا مع (قومار سيرابيس). أشار لي (سولي) أن أقرأها ففعلت.

بعدما انتهيت، رفعتُ رأسي لـ (سولي)، ونظرتُ في عينيه الثابتتين، وقلت له: «أنت.. أنت تريد العودة للحافة!».

سولي

قلتُ لـ (ناجيلي): «أتعلمين مرآتي المفضلة؟».

نظرت لي غير فاهمة وقالت: «ماذا؟».

قلت: «انعكاس وجهي على عينيكِ».

ابتسمت بخجل قائلة: «لماذا؟».

أجبتها: «لأني أرى نفسي حينها في مكاني الطبيعي كما أراها داخل قلبي، صورة صغيرة بعيدة على هامش صورتك أنتِ ناصعة الوضوح»!

انتزعتني (أفيري) من شرودي وقالت: «هل تفكر في القفز؟».

نظرت لها رافعًا وجهي من صفحة الماء التي كنت أحدق في صورتي المنعكسة فيها، وقلت: «فقط... ذكريات عالقة، أنا أعمل يا سيدتي».

وأخذت أحرك الممسحة يمينًا ويسارًا على سطح السفينة غاسلًا إياه من الملح المتكلس، لم أكن أعلم مكانة (أفيري) على السفينة بالظبط ولكنها كانت من كبار العاملين هنا، يمكنها أن تتسبب في طردي بسهولة. في ذلك البحر الواسع فالطرد يعني أن أنزل عند أقرب ميناء دون أن أملك طريقة للعودة.

جَلَست على صندوق خشبي قديم مثبت على سطح السفينة أُعِدَّ للجلوس، وأخرجت من جيبها بعض حبات الهريبا تلوكها، وقالت: «أنت ذلك الرجل الذي انضم لنا على قوت يومه، اسمك (سولين)، أليس كذلك؟».

- «بل (سولي)».

في ذلك الوقت لم يكن أحد قد سمع عني، كنت مجرد شابٍّ قد اقترب من الكهولة وقد فقد امرأته لتوه فهام على وجهه لا يدري أين يذهب هاربًا من كل ما قد يذكره بها، هل كنت أتمنى الموت؟ لا أظن، غير أني لم أكن أخافه أيضًا، لا الموت، لا الفقر، لا المرض، ولا الوحدة. كنت فقط... شاردًا! طوال الوقت كنت أنظر للعالم حولي وكأنه مجموعة من الصور المتتابعة تخص غيري.

كنت قد دُهشت حين وجدت امرأة تعمل وسط طاقم البحارة الذي انضممت إليه أجيرًا على قوت يومي، ولكن مع الوقت أدركت أن (أفيري) كانت امرأة تشبه الرجال في كل شيء، شعرها، وملابسها، ومهنتها، وصوتها، ونفس اللطخات على وجهها. فقط حين كانت تثرثر مع أحدهم كنت تلمح لمحة أو اثنتين من لمحات الأنوثة على مخايلها كانت تحاول أن تخفيها جيدًا.

قالت (أفيري): «حسنًا، ما قصتك؟».

- «ماذا تقصدين؟».

- «أنت لا تفقه شيئًا عن الإبحار، ولست قويًّا كفاية لنقل البضائع، ومن جودة ملابسك القديمة التي تشبه القمامة الآن أرجّح أنك كنت ميسور الحال».

ثم ابتسمت بخبث وأشارت إلى ثلاثة من العمال كانوا يرصّون البضائع على أحد أركان سطح السفينة، وقالت: «هل ترى هؤلاء الثلاثة؟ لقد عقدنا رهانًا بشأنك على روكيّة، (كونور) هناك الذي على اليمين، راهننا أنك هارب من حكم ما، ربما السجن أو الإعدام، (سكيلار) الذي يعطينا ظهره ذلك قد راهن أنك من الناجين من حرب الجنوب في العام الماضي، أما (ماسون) فرأيه أنك....» وأشارت إلى رأسها بأصبعها تحركه مع صفير من فمها بمعنى: (مخبول).

قلت لها وأنا أدّعي الانهماك في المسح: «وعلامَ تراهنين أنتِ؟».

- «ومن قال إني راهنت على أي شيء؟».

- «أليس هذا سبب هذه المحادثة بأكملها؟».

ضحكت ضحكة خشنة وقالت: «أنا لا أراهن يا عزيزي أنا أعلم. أعلم أن امرأةً قد هجرتك».

توقفت عن المسح ونظرت لها في اهتمام ولم أعلق، فتابعت: «أعلم كيف لامرأة واحدة أن تجعل واحدًا منكم يبدو كذلك».

قلت ببساطة: «هناك الكثير من الأسباب قد تجعل الرجل كذلك، لماذا افترضتِ أني عاشق كسير الفؤاد».

قالت في دلال مازح وقد فردت ساقيها بسروالها الجلدي السميك أمامها ونثرت شعرها المتسخ حول رقبتها: «لأنك لم تنظر إليّ قط».

نظرتُ إلى الأرض ولم أعلق، قلت في نفسي الثقة في النفس هي قوة، وهذه امرأة قوية بلا شك، أقوى من اللازم.

قالت بسرعة بصوتها الخشن: «نعم، نعم، أعلم أني لست بالمرأة الفاتنة، ربما على الأرض هناك لا ينظر إليّ أحد. ولكن يا عزيزي أنت لا تفهم، الرجال يقضون هنا عدة شهور، الماء هنا هو مملكتي، أنا هنا حوريّة، لا يوجد من رجل على هذه السفينة لا يحلم بي بالليل».

إذن هذا هو كل ما في الأمر يا (أفيري). أنا الصخرة التي تحطمت عندها أول موجة من موجات غرورك، أنا الصعلوك الذي أعاد لك تشككك في ذاتك بعد أن كنتِ نسيتِه.

ثم قامت من مقعدها واقتربت مني ببطء، حتى كادت تلاصق وجهي، وقالت: «حدّثني عنها».

قلت بتوجس مبعدًا نظري عنها: «من هي؟».

تحركت لتسد مجال بصري وتجبرني على النظر إليها وقالت وهي تملّس بيدها على شعري الذهبي ببطء: «تلك التي لا ترغب في النظر إلى غيرها».

شعرت بقشعريرة وابتعدت عنها بلطف وقلت: «سيدة (أفيري) أنا فقط لست من هذا النوع....». قاطعتني: «هيا أخبرني الآن، كف عن المراوغة». ثم سألت بسرعة: «كم ترافقتما؟».

قلت بعد فترة صمت قصيرة وقد استسلمت أخيرًا: «لم تكن رفيقة. لقد كانت زوجتي».

لم أخبر (أفيري) كيف صرت ضائعًا من دونها. أعلم أني كنت حيًّا فترة من الزمن قبل أن أعرفها، كان لدي سبب للعيش وقتها. أحاول أن أتذكر ذلك الوقت بشدة ولكني لا أقدر، أحاول أن أعرف كيف يمكنني العيش بعدها كما كنت أحيا قبل دخولي إلى حانوت الصحة!

ثم ابتلعت ريقي وأغلقت عينيّ في ألم وقلت: «كانت حبي الأول والأخير».

ارتسمت على شفتيها بسمة رضا وبدت معجبة بما قلت، وسألت: «ولماذا تركتك؟».

اغرورقت عيناي بطبقة دمع خفيفة غادرة وقلت وقد اهتز صوتي قليلًا: «ليتني أعلم».

ليتني يا (ناجيلي) أعلم لماذا لقيتكِ ولماذا ذهبتِ!

تومان

أشرتُ لـ (كالينا) بالجلوس، ومن بعدها لـ (سيرا)، ارتبكت (كالينا) وقالت: «في الواقع كنت أتمنى لو نتكلم بمفردنا». قلتُ لها: «(سيرا) هنا لتتأكد أن...».

قاطعتني: «نعم، نعم، تتأكد أن وقتك لا يضيع بالهراء، توقعت على كل حال بعض التشفّيات هنا أو هناك. لا بأس، يمكنها الجلوس».

جلست (سيرا) على مضض، وعلى ما يبدو من نظراتها لظهر (كالينا) أنها كانت قد أضافتها إلى قائمتها السوداء للتو. (سيرا) العزيزة، هل تغارين؟

قلتُ: «في البداية، ماذا تودين أن تشربي؟ لدينا مارين وناجيلين. أنا مضياف كما ترين، لستُ مثل مديري مكتب السيد (نوبير)».

- «كلانا يعلم أنك لم تأتِ في ذلك اليوم لكي تحصل على ضيافتك. كلانا يعلم كذلك أنك لم تأتِ لتقنعنا بالحملة».

رددتُ ببرود: «ولماذا أتيتُ إذن؟».

قالت بسرعة: «للفت الانتباه إليك ليس أكثر. لقد كنتَ قد قدمت مشروعك بالفعل إلى مجلس النواب قبل أن تأتي إلينا، كنتَ تعلم بالطبع أنه سيتم رفضه، كنتَ تراهن على ذلك في الواقع، وبعد فرقعات إعلامية هنا أو هناك، كنتَ تسعى إلى تذكيرنا بذلك المشروع الذي لو تم بنجاح سيكون إحراجًا كبيرًا للحكومة التي تدعي اهتمامها بالعلم قبل شهور يسيرة من الانتخابات التالية».

ثم تابعت: «أحييك، لقد قمتَ بواجبك المنزلي جيدًا، نشاطات السيد (نوبير) الحزبية ليست على هذا القدر من الانتشار، أنت رجل ذكي في النهاية، ولكن السؤال هو: لماذا لم تشرح كل ذلك من البداية حين أتيتَ إلينا؟».

- «لأنني أُطلَب ولا أَطلُب، الأمر يجب أن يظل كذلك دائمًا».

ابتسمت في سخرية وقالت: «نعم، نسيت، لأنك (تومان نيقه)».

نظرتُ لها في تحدٍّ بينما كانت (سيرا) تتحفز من ورائها، وعلى ما يبدو لم تتحمل سخريتها مني، إن (سيرا) هي آخر شخص يُنصَح بانتقاص قدري أمامه.

قالت (سيرا): «سيدة (كالينا) إن جدول أعمال السيد (تومان) مزحوم، أرجوكِ أن تقولي ما جئتِ لأجله سريعًا».

نظرت لها (كالينا) وكأنها قد تفاجأت ثم ابتسمت في سخرية وعادت لتنظر لي وتقول: «سيدفع السيد (نوبير) مائتي ألف روكيّة، ستكون تحت تصرفك لتنفقها كيف تشاء، ولو تعدت مصاريف الحملة ذلك المبلغ ستقوم بدفعه من جيبك الخاص، ولكن هناك ثلاثة شروط».

- «وما هي؟».

- «أولًا سنختار نحن أفراد البعثة من معملك».

- «هذا الشرط مرفوض. التالي؟».

صمتت وبدت كما لو كان أسقط في يدها، في النهاية تجاهلت ما حدث وتابعت: «الثاني، سأكون معكم في البعثة وبعض من رجال السيد (نوبير) لمتابعة مصير أمواله».

- «يمكننا أن نتحمل ذلك، على ما أظن! والثالث؟».

تنهدَت وقالت: «الثالث، أن البعثة ستعود بنتيجة يمكن استخدامها ضد حكومة الوكيل، لا نهتم بالتفاصيل العلمية، فقط يجب أن تكون هناك... نتيجة».

ثم تابعت بسرعة: «والشرط الأخير غير قابل للتفاوض بالمناسبة».

قلتُ لها ضاغطًا على كلماتي: «هل تعنين أن نزوّر النتائج؟».

- «أنا لم أقل ذلك» ثم ابتسمت بخبث.

فكرتُ قليلًا، ونظرتُ لـ (سيرا)، كانت متوترة وأشارت لي بالرفض من خلف (كالينا)، ثم قمتُ من مقعدي وصافحتها في إشارة إلى انتهاء الاجتماع، وقلت: «كل شيء سيكون على ما يرام، أموال السيد (نوبير) لن تذهب هباءً، لكِ كلمتي».

قامت، وصافحتني وقالت: «سوف تسمع منا لاحقًا».

ثم حيّت (سيرا) ورحلت.

حاولت (سيرا) الحديث للاعتراض بعد رحيلها، ولكني أوقفتها بإشارة من يدي، اتجهت إلى النافذة، ونظرت إلى البحر مفكرًا. ولأول مرة منذ تسع سنوات أشعر بالخوف من فكرتي!

قالت (سيرا) أخيرًا: «سيد (تومان)، (كالينا) ستكون معنا على ظهر السفينة، ماذا لو عرفت أنه ليست لدينا فكرة عن كيفية الوصول فعلًا للحافة؟!».

هارول

- «إذن هذا هو دار تروّحكم الخاص».

صُدِمَ (دال) والثمانية شباب معه من مرآي أنا وحرسي الخاص يدخلون إلى عرينهم المقدس، وبينما فر اثنان من الشباب وفتاة ظنًّا منهم أنني من رجال الضبط، وقف الباقون في تحفز وقد خمنوا من نظرات (دال) أنه يعرفني.

قال وقد أغلق الكتاب الذي كان يقرأ فيه: «(هارول)، لقد سعدتُ برؤيتك».

- «لا، لم تفعل».

ثم تقدمت أتجول قليلًا في الغرفة المُستأجرة في وسط المدينة. معظم طوائف المتشيئين يفضلون ضواحي المدينة أو حدودها، ولكن (دال) هنا كان يلعب بقواعد مختلفة، يعمل في آخر مكان سيبحث عنه فيه رجال الضبط، غرفة مستأجرة في بناية فاخرة في وسط المدينة!

قلت له وأنا أواجهه: «أنت على الأرجح تتساءل الآن كيف عرفتُ مكانك، والسؤال الأهم الذي يدور بخلدك، إن كان يعرف مكانك أحد غيري. أحب أن أطمئنك، أنا لست بواشٍ، ولو كنت سأشي بأحد كنت وشيت بمكان (كروماز) وعصابته. أما أنتم... أنتم مجموعة من المساكين في رأيي».

ثم استدركتُ وأنا أشير إلى الشباب حوله: «أو في الحقيقة هم المساكين، أما أنت يا (دال) فأقرب إلى... جرثومة! مجرد طُفَيل. تلتصق بضحيتك ولا تتركها إلا جثة هامدة، محروقة أو غريقة أو مدغدغة على أحجار السافينور».

تحفز (دال) ضدي وأغلق كتابه وهم بالوقوف فأشار له أحد الحرس أن يبقى بعيدًا ولا يقترب.

قال (دال) وقد ابتسم ابتسامة مريرة موجهًا خطابه إلى الشباب: «منذ متى تعرفونني؟».

لم يجب أحد، وقد كانوا واجمين من توتر الموقف، ولكن أحدهم أشار بيده بثلاثة أصابع. قال (دال): «منذ ثلاث سنوات تعرفني يا (جافن). لماذا لم تمت إذن لو كنت طفيلًا أتغذى على حياتك الشابة؟».

لم يجب (جافن)، بينما ضحكتُ أنا في سخرية، مَن لن تنطلي عليه هذه الخطب الزائفة، تجاهلني (دال) وأكمل وهو يلتفّ حول الشباب بقامته القصيرة وملابس المتشيئين المميزة على منكبيه: «من منكم أتاني طلبًا للمساعدة فدللته على أن يقتل نفسه؟ من؟ لا أحد؟».

ثم التفت إليّ وأشار إلى الشباب خلفه وقال: «أنا لست جرثومة يا (هارول)، أنا مجرد صديق، صديق لهؤلاء الشباب الذين ضاعوا منكم بعدما أيقظتموهم من غفلة (الكِميت)، ليس منهم أحد إلا وصارحني أنه يتمنى لو لم يكن قد سمع عنكم قط. لو كان مثل أبيه أو أمه ممن اعتادوا أن يتغنوا في المدرسة أنهم مجرد آلات، الآلة لا تشتكي حين ينضب وجدانها من الغرض. الآلة لا يصدأ داخلها حين تفتش في كل ركن من أركان العالم عن غذاء لذلك الجوع الذي يعتريها فلا تجد. الآلة لا تسأم ولا تشعر بالخواء.

يأتيني هؤلاء الشباب لأنه ليس لديهم مكان آخر، (سولي) قد اختفى، (كروماز) مجنون، وبقية المتشيئين استسلموا لقبضة حكومتنا النافذة. صدقني لو كان بإمكانهم أن يستسلموا مثلهم لفعلوا، لكنتُ نصحتهم أن يفعلوا. ولكنك تعلم، أليس كذلك؟ أنت تعلم يا (هارول) أن من أدرك اللاجدوى لا يمكنه أن ينفك منها! إنه الآن أسير فيها إلى الأبد!».

- «لم يقل (سولي) إن الحياة بلا جدوى....»

قاطعني غاضبًا: «إذا جعلتنا نرى العدم ثم لم تشر لنا إلى الحقيقة، فلا تلمنا حين نشعر بالخواء».

مرت برهة من الصمت ثم قلت له: «وقتلهم لأنفسهم هو المساعدة التي تقدمها لهم؟».

- «ها أنت ذا واحد آخر من هؤلاء المتغطرسين الذين لا يفهمون الحزن. مثلك مثل الكِميتيين في ذلك، أتعلم؟».

نظر إلى تلامذته من خلفه وأكمل كما لو كان يكمل أحد دروسه: «أنا لا أدعو أحدًا كي يقتل نفسه، أنا أساعده لأن يرى حقيقة هذه الحياة. أن يقيس بيده قيمتها. يضعها على المِكيال ويقرأ الرقم المقابل. أن يشاهد بنفسه كيف يلتف كل جميل فيها برداء الفناء، كيف أن نهاية كل شيء هي مصيره، وانتهاؤه هي غرضه، أعلمه أن حزنه مبرر، أن ألمه مفهوم. أنه

ليس مجنونًا كما يحاولون توصيفه، ليس مزعجًا لسعادتهم بكآبته، هو فقط يرى ما لم يروه بعد، يسبقهم، يتشوف لهم المستقبل».

ثم التفت لي وقال ضاغطًا على كلماته: «إن كان يريد أن يتعجل نهايته في مثل هذه الحياة اللئيمة بعد أن يراها، إن كان يريد أن يسلك طريقًا مختصرًا بأن يموت حين يريد هو لا متى شاء الموت، أو شعر بالحاجة إلى أن يجبره على اختطافه في وقته المختار.. فمن الذي يستطيع لومه؟ كل الخواتيم تتشابه كما ترى!».

امتعضت وشعرت بغضب عارم: «وتعلمهم شعارات (كروماز) أيضًا؟».

- «أليست كل الخواتيم تتشابه بالفعل؟ أليس هدف الحياة لا يكتمل إلا بقتلنا؟ أليست لذة الشباب في أنه سريع الزوال؟ ما معنى الخلود مع الشيخوخة؟ ما معنى الشباب مع الفناء؟!».

ثم أردف: «لم أكن أنا من صمم هذه الحياة كي تكون كذلك، أنا ألعب وفق قواعدها فقط، يمكن لـ (سولي) أن يتغنى بمحاولات تفسير الحياة، أما أنا فأقوم بما جَبُن أن يقوم به، أنا أفسر الموت!».

نظرتُ إلى الشباب خلفه فوجدت ملامحهم تشي بالموافقة، جميعهم يؤيدون ما يُقال، وشعرت بتلك الرجفة التي تعتري الغريب. أنا غريب هنا، لا شك في ذلك. ربما من الأفضل أن أرحل سريعًا.

قلت لـ (دال): «لا أجد كبير فائدة من النقاش معك، أو معكم جميعًا في الواقع».

ثم اقتربتُ منه وبصوت خفيض قلت له: «ساعدني فيما جئتُ من أجله، وأعدك أني سأترككم وشأنكم لمصيركم الحزين».

- «وما هو؟».

همستُ في أذنه: «(ميرون)»!

يولاند

«سيدي، لا أنصحك بذلك، إنها مليئة بالأمراض!».

قالها لي عامل النقل وهو يجاهد لتحريك الزورق وسط المياه الضحلة التي تفصل أبراج القلعة ناقلًا إياي من البرج الأول إلى البرج الثالث، الذي يحوي أكثر الزنازين.

قلت وأنا أستمر في غمر طرف حذائي في المياه خارج الزورق لغسله: «المكان كله مليء بالأمراض يا فتى، لقد كفّ الأطباء عن القبول بالدخول إلى القلعة منذ زمن بعيد».

اقتربنا من البرج الثالث فرفعتُ عيني إليه، بناء مهيب كئيب لا توجد به نافذة واحدة، وبأعلاه سقف معدني كبير ليحجب ضوء الشمس حتى في الصباح عن المكان كله. لقد صُنِع هذا المكان ليمتص الأمل من داخل ساكنيه!

قام أمناء الحرس بمعاونة الفتى على إرساء القارب حتى نزلت وعبرت من البوابة المعدنية المفتوحة على الدوام بجوار الحرس المدججين بالسلاح، وعلى المدخل مدفعان عملاقان يكفيان لدكّ من يريد تجربة الاقتراب غير المصرّح به.

شعر النقباء بالداخل بالذعر من دخولي المفاجئ إليهم في هذا الوقت المتأخر، بينما قام أحدهم يحييني نافضًا عن حجره أوراقًا نباتية مجففة ميّزتها على الفور، بينما حاول زميله أن يخفي زجاجات الشراب من فوق المكتب، وقد كانوا على وشك بدء الليلة.

تكلم أحدهم بارتباك: «الموقر (يولاند)، أي ريح طيبة؟ هل ترغب بنقل بعض المتشيئين إلى هنا؟».

قلت متجاهلًا له وأنا أجذب أحد المقاعد الخشبية للجلوس: «لا، رئيس القلعة لا يبخل علينا بأوامر الإعدامات، لدينا متسع هناك دائمًا».

جلسوا وقد شعروا بالقلق، بينما قلت أنا: «سمعتُ عن لعبتكم الصغيرة».

نظر اثنان منهم لبعضهما بينما تكلم أحدهم قائلًا: «أية لعبة سيدي؟».

جذبتُ أحد زجاجات الشراب وقلت له ساخرًا وأنا أتأملها: «هذا نبيذ فاخر جدًّا. هل ندفع لكم ما يكفي من الروكيّات لتحمل شرائه؟».

- «آآ...».

- «هذه أرباح لعبة الليلة السابقة إذن».

وضعتُ الزجاجة على المكتب وقلت وأنا أدور بعيني في الساحة الكئيبة العملاقة أسفل أدوار البرج الحلزونية: «هل هذا هو المكان؟».

لم يجبني، فأخذتُ نفسًا عميقًا وقلت بصوت أعلى: «هل هذا هو المكان؟».

- «نعم، سيدي».

تنهدتُ وأنا أشعر بخدر بداخلي وأنا أرى الآثار الحمراء على الأرض القذرة تنتهي إلى بوابة معدنية صغيرة تغطي كوة بالأسفل، كانت مخصصة لفضلات المكان، فصارت مخصصة لنوع آخر من أعباء المكان!

قلت له: «هناك سجين وصلكم مساء أمس، خذني إليه».

تبادلوا نظرات مندهشة، ثم قال لي كبيرهم وهو يشير إلى الساحة أمامه: «سيدي، ألن... تخبر القائد بهذا؟».

قلت بسرعة: «لا، هؤلاء الرجال موتى على كل حال». ثم تمتمت بصوت خفيض وأنا أنظر إلى أدوار الزنازين بالأعلى: «لربما من الأفضل لهم أن يموتوا سريعًا».

بدأ أحدهم في أخذي إلى السجين الذي جئتُ لأجله، صعدنا الكثير من الدرجات حول البرج بالأعلى، وكلما ارتقيتُ نظرتُ إلى الساحة بالأسفل متخيلًا ما يحدث فيها في مساء ليلة العطلة.

يبدأ الأمر بمجاعة الأيام الثلاثة! مساجين البرج الثالث الأتعس حظًّا في الجمهورية بأكملها يُحرمون من الطعام لثلاثة

أيام متتالية. ثم في اليوم الرابع يخبرهم النقباء أن من يرغب في الطعام الشهيّ الليلة عليه الترشح للقتال!

يُجرّ المساجين الجوعى الذين اختاروا أن يتقاتلوا حتى الموت من أجل وجبة العشاء إلى الساحة بالأسفل، حيث يجلس النقباء من كل أبراج القلعة يقامرون، من الذي سينجو منهم. وحين يموت البطل الذي يشجعه النقيب منهم بقبضات منافسه العارية أو بتحطيم رأسه على أرضية البرج الصخرية، يشعر بالحسرة على ما فقده من زجاجات الشراب أو أوراق القِطيم أو بعض الروكيات الفضية.

في النهاية يُجر القتلى إلى فتحة الصرف بالأسفل، ويتولى اللحادون بقية المهمة.

قلت للرجل وأنا أصعد الدرجات خلفه: «لماذا يوافق الرجال على الترشح للقتال؟ الجميع يحصل على طعامه بعد عدة أيام على كل حال. أليس كذلك؟».

- «بلى، سيدي».

- «لماذا يخاطر بحياته إذن من أجل الطعام في يوم أبكر؟».

ضحك الرجل وبدا مستمتعًا للغاية وهو يقول: «بعضهم يريد الموت فحسب أيها الموقر!».

ثم التفت لي وهو يضحك لأعالجه بلكمة في أنفه أفقدته توازنه. سقط الرجل وقد نزف على الأرض بعض الدماء من أنفه، رفع لي عينه الناقمة ثم تمالك نفسه ليقوم وأكمل طريقه في صمت.

وصلنا إلى الزنزانة المطلوبة، كانت في الطابق السادس، نظرت إلى الساحة بالأسفل فبدت بعيدة للغاية، بينما تزدان الجدران بمصابيح زيتية يتراقص لهبها بالهواء الخفيف القادم من البهو بالأسفل، والمكان كله تفوح منه رائحة القذارة والعرق، تكاد تشعر بالمرض يتخلل إلى داخلك من مرأى هذه الزنازين العطنة.

في مقابل زنزانة الرجل الذي أريده كان هناك صف من الزنازين ذات أبواب مغلقة بإحكام وليست مجرد قضبان، الرجال بالداخل في حبس منفرد بظلام دامس ولا صوت إلا صمت أفكارهم. شردتُ قليلًا ناظرًا إلى الباب المغلق لإحداها، فقال النقيب بنبرة متحدية وحاجب مرفوع: «ألا تظن مثلًا أن هذا الرجل الذي وضعتموه أنتم هناك يريد الموت يا.. سيدي؟! لسوء حظه أنا لا نسمح لأصحاب الزنازين المغلقة بالمشاركة».

نظرت له بغضب فصمت.

تأملتُ بقية الزنازين في الدور، كانت إما خالية أو ينام أصحابها في ضعف من مرض أو جوع أو آثار شجار في الصباح.

التفتُّ إلى زنزانة سجين الأمس وضربتُ على قضبانها فرأيته ينتفض من نومه فَزِعًا من خلف القضبان، فأمرت النقيب أن يفتحها، هم بالاعتراض ولكنه لاحظ بارودتي أسفل معطفي فاطمأن، فتح الزنزانة فقام الرجل المكوّم بداخلها في خوف ورجع بظهره إلى ركن الزنزانة الضيق، بينما أشرتُ أنا للنقيب بالابتعاد. فلم يؤخّر قدمًا.

أشرتُ للسجين بالجلوس، وفضلت أنا الوقوف لما رأيت قذارة المكان.

قلت همسًا: «جئتُ للكلام فقط، لن أؤذيك».

جلس الرجل في توجس، كان قصير القامة رفيع الجسد، يتناثر شعره حول جسده كالمجنون، وحول عيونه سواد كثيف، وبدا يشعر بالبرد باستمرار برغم الصوف الخشن على كتفيه.

ثم كان أول ما تكلم به: «لماذا أحضروني إلى هنا؟ هذا أقذر برج في القلعة».

لم أرد عليه، ثم أعطيته ظهري وأتبعتُ النقيب بصري وهو يغيب في الممر الدائري المظلم نازلًا درجات البرج.

- «لم أقم إلا بتناول بعض الأعشاب المُخدّرة الممنوعة».

أشرتُ له أن يخفض صوته، فأجفل.

قلت له بود مصطنع: «أكمِل».

بدا متوجسًا وهو يراقبني أعطيه ظهري وأنشغل بالنظر إلى أرجاء الطابق المظلم إلا من ضوء المصابيح المتراقص.

قال الرجل: «الجرائم الصغرى يُسجَن مرتكبوها في البرج الثاني، لماذا أتيت للثالث سيدي؟».

- «أنا لست سيدك!».

- «ألستَ نقيبًا؟»

- «لا»

- «من أنت إذن؟».

تجاهلت سؤاله، وقلت له: «من أين أتيتَ بهذه الأعشاب على كل حال؟».

بدا مترددًا ثم قال: «صديق لي اشتراها من مدينة بعيدة، اسمها (سيرانتي)».

أجفلت حين سمعت اسم المدينة، نظرتُ في عيني الرجل، لا، لا يبدو كذلك، عدت إلى شرودي في أبواب الزنزانة الموصدة مقابلي.

- «كم كلفتك؟».

- «كورونًا».

نظرتُ له بدهشة: «هل الأمر يستحق كل هذا المال؟».

نظر في عيني بثبات وقال: «في اللحظة التي أخرج فيها من هنا سوف أشتري المزيد».

- «هل أنت حقًّا بهذا الغنى؟».

- «بل أنا بتلك التعاسة!».

قلت وقد بدأت أهتم بما يقول: «بماذا يجعلك هذا العشب تشعر؟».

جلس وقال مطرقًا إلى الأرض: «لا تجعلني أشعر بأي شيء. تجعلني لا أشعر بأي شيء!».

بدا يريد بدء كلامه، ولكن صوت المدفع أسفلنا لم يمهله!

ارتجّت الحوائط من حولنا بقذائف مدفعية أخرى، مع أصوات جلبة وطلقات بارود وصراخ بالأسفل، فَزِع وهم بالوقوف، أشرتُ له أن يلزم مكانه، كان المساجين في الزنازين حولنا يفيقون من نومهم في فزع وبدأ بعضهم في الصراخ، قمت ثم أغلقت باب الزنزانة وخلعت معطفي ونزعت بارودتي وأخفيتهما أسفل سريره.

أشار إلى أسمال الصوف فوق كتفي التي تبدّت بعد خلعي معطفي والتي تشبه ملابسه تمامًا، وقال بدهشة: «ما هذا؟ ماذا يحدث؟».

جلستُ بجانبه وأشرت إلى شفتيه أن يلزم الصمت، وقلت له وأنا أصيخ السمع: «إنهم هنا»!

كالينا

فتح (بيدرا) باب منزله واصطدم بوجهي فتجهّم.

- «ماذا تفعلين هنا؟».

ثم نظر خلفي فوجد عربة خيل واقفة تنتظرني بجانب الشارع الخالي تقريبًا من البيوت، ثم نظرة أخرى إلى يدي التي كانت خالية إلا من هدية صغيرة حملتها لـ (ماندا).

- «أعلم أن هذا ليس موعدي، ولكن حدث أمر طارئ، أحتاج إلى أن أراها».

قلّب عينيه لأعلى وزفر بعصبية ثم قال: «كل صيف تفعلين ذات الأمر، وتقولين ذات الكلمات، أظن أنك ذاهبة إلى رحلة خطيرة أخرى ولا تعرفين إن كنتِ ستعودين منها سالمة أم لا فأردتِ أن تلقي على ابنتك نظرة الوداع، أليس كذلك؟».

- «هذا حقيقي فعلًا، وفي الواقع لا أملك الكثير من الوقت أقضيه خارج الباب».

نظر لي باحتقار لا شك فيه، وتلاعب ركن فمه بابتسامة: «(كالينا) المهمة تقوم بأشياء مهمة، ستغزو العالم مع أصحاب الأموال والترف، لا وقتَ لديها للترهات التي يتكلم بها طليقها فقير المال والطموح، (بيدرا) غير المهم الذي يقوم بأشياء غير مهمة. ماذا كانت هذه الأشياء غير المهمة يا ترى؟ نعم. رعاية ابنتنا!».

قلتُ وأنا أتحسس رأسي من أثر الصداع: «(بيدرا) أرجوك، لقد سافرت سبع ساعات لتوي من العاصمة وسأعود مثلها الليلة، فقط أرجوك، أريد أن أرى (ماندا)».

استسلم بصعوبة، ثم تنحى ببطء على مضض مفسحًا لي طريق الدخول للمنزل، ها قد جاءت أصعب لحظة في يومي، الدخول إلى كل هذه الذكريات مختارة مخاطرة بما تبقى من طاقتي النفسية لهذا الشهر!

تخطيتُ عتبة الباب التي دخلتها وأنا جَذِلة منذ ثماني سنوات، حين كنتُ (كالينا) أخرى، لا تريد من دنياها غير (بيدرا) بجانبها في بيت ريفي بسيط. لقد ماتت هذه النسخة مني إلى الأبد، وها أنا ذا وبعد أن سكنت القصور لا أعلم، أي النسختين كانت أفضل؟ أي النسختين كانت أسعد؟!

جلستُ على طرف أريكة الاستقبال في خجل منتظرة أن يذهب (بيدرا) إلى غرفة (ماندا) ليأتي بها، وبينما أجوّل عيني في أركان الصالة شعرت بغصّة، وأنا أتذكر شجارنا الأخير، ورحيلي في صباح ذلك اليوم، صوت بكاء الطفلة ذات العامين، وصراخ (بيدرا) الغاضب: «أين وعودكِ لي أيتها الكاذبة؟». وحقيبة سفري الرخيصة المُعدّة على عجل، ولسعة البرد في ذلك الوقت من الصباح حين فتحت ذلك الباب وخرجت ولم أنظر للوراء، وقلبي يصرخ فيّ أن أعود، وعيني جافة من بكاء كانت تستحقه، هل حقًّا مرت خمس سنوات على هذه اللحظة؟!

شعرتُ بقلق، لقد تأخر (بيدرا)، هل كانت (ماندا) نائمة؟ ربما صارت تأخذ قيلولتها مساء بعد المدرسة. مدرسة (ماندا) التي تقع على بعد شارعين من هنا، كانت مدرستي وأنا في سنها، كنت أقول لنفسي وأنا ما زلت طالبة: سوف أصطحب ابني أو ابنتي إلى هنا يومًا. وضحكتُ على نفسي داخل نفسي، غريب كيف يصبح الوطن موحشًا إلى هذه الدرجة! عجيب كيف تطاردنا الرغبات حول أركان السراب. حين كنت هنا لم أكن أرغب إلا بالرحيل، وحين رحلت...

- «لا تريد مقابلتك».

التفتُّ إلى (بيدرا) بحدة، كان واقفًا خلفي منكسًا رأسه وهو ينقل لي الخبر المؤسف.

- «عفوًا، ماذا؟».

- «(ماندا) لا تريد مقابلتك».

- «ولكن.. أنا لا أفهم.. كيف.. لماذا لا تريد مقابلتي؟».

صمت (بيدرا) ولم يرد. شعرت بالرعب، هل يمكن أن يكون (بيدرا) قد تكلم؟ صرختُ فيه: «(بيدرا) أجبني، لماذا لا تريد (ماندا) مقابلتي؟».

- «(كالينا)، هناك أمر لم أخبرك به. لقد كانت أمي هنا من أسبوع، و.. أنا لم أرد فتح الأمر أمام البنت ولكن.. أنتِ تعلمين أن أمي امرأة عجوز لا يمكنني التحكم فيها دائمًا. آآآ.. أنا أعلم أننا اتفقنا على عدم مصارحة الطفلة بحقيقة ما حدث منذ خمس سنوات، ولكن ما حدث حدث، لا يمكن الرجوع في الأمر، هي تعلم الآن كل شيء، وقد فهمت أخيرًا لماذا لا تعيشين معنا؟ ولماذا تراكِ مرة كل عدة أشهر؟».

ثم قال ناظرًا للأرض: «هي لم تتقبل الأمر جيدًا».

ثم ناولني صندوقًا صغيرًا مألوفًا، صندوقًا كان في يدي منذ عدة أيام، وبداخله وجدت الروكيّات التي أرسلتها لم تُمس، ورسالتي لـ (ماندا) وقد مزقتها إلى نصفين! بعد صمت طال وأنا أحدق في الصندوق في يدي، بينما عيناي لا تريان شيئًا، أيقظني من سباتي صوت (بيدرا) وهو يقول: «(كالينا)، أنا آسف، ولكن ربما يجب أن ترحلي الآن»!

سولي

من بعيد بدت قمة جبل الكاليب وقد فقد جليده، إنه الصيف مجددًا، هل حقًّا مر شتاء كامل عليّ وأنا على هذه السفينة؟!

في البدء كنت أشعر بالوحدة والملل من صفحة المياه الزرقاء التي تصحبني في كل مكان، مع الوقت بدأت أعتاد عليها، مع الاعتياد تأتي الألفة، فالارتباط، فالأنس. الآن لم أعد أشعر براحتي إلا في المياه المفتوحة، حين نرسو عند هذا الميناء أو ذاك، يتسابق كل طاقم السفينة في النزول إلى الأرض، رأيت أحدهم مرة يقبل صخور الشارع! كانوا يتصايحون بحماس وينطلقون إلى منازلهم أو حاناتهم المفضلة. أما أنا فكنت ألازم غرفتي أو أستلقي على ظهري على سطح السفينة محدقًا في النجوم كعادتي، وأفكر. تلك الفكرة التي غرست أنيابها في عنقي منذ أن ودعت (ناجيلي)، تلك الفكرة الخانقة!

الآن ها هو الصيف مجددًا، وقد صرت واحدًا من طاقم العمل المعتاد هنا، مع الوقت تعلمت كل شيء عن فنون البحارة، كانوا يريدون ترقيتي من عامل التنظيفات إلى أحد مساعدي القبطان ولكني رفضت، لا حاجة لي في المال، كنت أحتاج إلى عمل رتيب، يصلح كمرآة عاكسة لحركات الأمواج بداخلي. كنت أحتاج إلى سماع صوت روحي وهي تتردد، الهدوء والصفاء والفراغ وفقدان الشغف بهذه الحياة، صنعوا بداخلي مزيجًا تتغذى عليه هذه الفكرة الملحة التي تأبى تركي وشأني.

كان شغف (أفيري) بي يقل مع الوقت، وبعد عدة محاولات أَدرَكت أني آخر رجل قد ينجح معه إغراؤها، هي تظنني وفيًّا مخلصًا ويزداد إعجابها بي، لم تكن تعلم أنها فقط قد جاءت متأخرة، ربما لو قابلتها قبل (ناجيلي) لوقعت في غرامها سريعًا، ولكنها الآن تفتش عن بقايا قلب بداخلي، لم تكن تعلم أن لم يبق من هذه البقايا الكثير!

مع الوقت كان يأتي الكثير من العمال ويرحل الكثير، وبداية هذا الأسبوع فقط جاء (رانزي)، رجل مثلي تمامًا كما بدأت، لا يعرفه أحد، لا تبدو عليه معالم العمل الشاق، ولا يطلب إلا العمل على قوت يومه، علمتني (أفيري) أن هناك ثلاثة احتمالات لذلك، أو أربعة في الحقيقة، غير أن كثرة تلفت (رانزي) حوله وذعره من أي صوت مفاجئ والندبة قبيحة الشكل على عينه اليسرى قد فضحت أمره بالنسبة إلي.

كان يعمل معي في تنظيف المخزن وإعادة تهيئته لبضاعة نظيفة بعد نقل أقفاص الحيوانات من جزيرة التفاح إلى الكرم في الأسبوع السابق. كان (رانزي) رجلًا أصلع قصير القامة له نظرات آثمة غير مريحة، كثير المزاح وسريع الصمت بعده، يتملق كل من هو أعلى منه شأنًا من رجال السفينة، ولا يأبه بعامل صموت فقير مثلي. وبينما كنا منهمكين في العمل كان يدندن هو لحنًا ما، لحنًا مألوفًا!

قلت له: «معزوفة شتاء وطن؟».

توقف عن الدندنة ونظر لي قائلًا بصوت عال متحمس وبسمة واسعة: «مرحى يا رجل، أنت تعرفها؟».

- «نعم بالتأكيد، لقد نشأتُ أسفل وادي الرمال».

ثم أردفت: «إذن أنت محارب قديم، كما توقعت»!

كانت هذه المعزوفة شائعة وسط رجال الجيش، لقد بدأت من إحدى عشائر قرى مدينتي قبل أن تنتشر في البلاد كلها. لم يبدُ سعيدًا باكتشافي عنه ذلك، فقط عبس ونظر بعيدًا وحاول أن يكمل عمله في صمت، بينما تابعت أنا: «لماذا تتخفى؟ الجنود السابقون يعاملون معاملة شريفة في كل مكان. من لكنتك أنت رجل شمالي، لم تكن في جيش الجنوب، ما الأمر إذن؟».

قال بسرعة: «هذا ليس من شأنك يا رجل».

- «هل أنت هارب من الجيش؟».

صرخ مشيرًا تجاهي بممسحته وكأنها عصا: «قلت إن هذا ليس من شأنك».

ثم أطلق سبة لا أعرفها وعاد إلى العمل.

شككت في أمر ما، اقتربت منه متظاهرًا بالعمل وأخذت أسترق النظر إلى كفتي يده، واتسعت عيني في دهشة، تركت

الممسحة وأمسكت بيده بشدة ورفعتها إلى عيني محدقًا في تلك العلامة السوداء على شكل مربع مائل أعلى كف يده. نزع يده مني بعنف ودفعني بعيدًا، بينما كنت أحدق أنا فيه بكراهية، وقلت: «أنت لم تكن محاربًا، أنت مرسال!».

هم بالرحيل عن المخزن وأعطاني ظهره موليًا بينما أخذت أصرخ فيه أنا: «عد إلى هنا أيها الوغد».

كان قد خرج من الغرفة بينما صراخي قد اجتذب عدة عمال والتفتوا إلينا، أعدت الصراخ فيه: «كف عن الهرب يا جبان». هنا التفت إليّ ولكمني في وجهي في محاولة منه لإسكاتي، اشتبكت معه برغمي، تدخل العمال وحاولوا فضنا بينما وصل القبطان من مكان ما وبرفقته (أفيري)، صرخ فينا القبطان أن نكف عن التشاجر ونعود إلى العمل. ابتعد (رانزي) بسرعة بينما كنت أرمقه أنا في غيظ وأنا بعد مستلقٍ على الأرض وهناك جرح صغير أعلى جبهتي ينزف. انحنت (أفيري) عليّ وساعدتني على النهوض، ثم اعتدلت في حزم وقالت: «عد إلى عملك».

مر اليوم بسلام، ثم استيقظت ليلًا بصوت طرقات خفيفة على باب غرفتي الضيقة، هي ليست غرفة، هي مجرد ألواح من الخشب تغلف تلك المساحة الضيقة أسفل السلم الذي يقود للمخزن. كان هناك أكثر من عنبر في السفينة التي أعمل عليها ولكنها كانت مخصصة للعمال الأهم، بينما عمال النظافة المستجدون ينامون على ظهر السفينة في العراء. أنا كنت في منزلة بين منزلتين.

لم أكن نائمًا بعمق، حركة الأمواج العنيفة من تحتنا كانت أشد من أية ليلة منعتني من النوم جيدًا، كنت أعرف أننا نبحر قريبين من الحافة وقد تجاوزنا جزيرة (إلي) منذ أيام، ومن بعيد بدأت تظهر في السماء ألوان شفق خضراء وقرمزية شاحبة، نحن في مكان خطير والقبطان يعلم ذلك وقد كان متوترًا صباح اليوم.

قمت من حشيتي وفتحت الباب لأجد (أفيري) في ضوء القمر. كانت تتلفت حولها في حذر، لم أفهم لماذا. معروف عن أفيري أنها تزور من تشاء في الليل من عنابر البحارة أو العمال، لم تكن خجولة. غير أني قدّرت أنها تخاف أن يراها أحد عندي أنا بالذات. أن يتحدث الناس عن (أفيري) التي تزور الرجال في الليل شيء لا يضايقها، أما أن يتحدثوا عن (أفيري) الواقعة في غرام رجل لا يبالي بها، فهذا على الأرجح أسوأ كوابيسها.

قالت بصوت متقطع من قلة الاستخدام في الليل: «هل أيقظتك؟».

أجبت بسرعة: «نوعًا ما، نعم».

دفعتني برفق ودخلت وأغلقت الباب خلفها، لم أجد بدًّا من إشعال المصباح الزيتي الصغير، وجلست على الطرف الآخر من الحَشِيّة في أبعد نقطة عنها، لاحظت جلستي المتحفظة البعيدة ذات المعنى فابتسمت بحرج وقالت: «لا تقلق، أنا أعلم أنك لست من هذا النوع من الرجال، جئت لشيء آخر».

ثم أضافت وقد حاولت أن تخفي اهتمامها: «لم أرك تتشاجر من قبل، بل لم أرك تهتم بالحديث مع أحد. ماذا فعل لك (رانزي)؟».

قلت وأنا أتحسس جبهتي من الجرح الملتئم حديثًا وقد تذكرت الألم: «لم يفعل لي شيئًا، ولكنه إنسان سافل برغم ذلك»!

- «تكلم معي، أريد أن أعرف».

نظرت لها في عجب، هذه المرأة لا تدّعي، هي بالفعل تحبني لسبب ما، ما الذي يجذبها في كتلة الكآبة والشرود التي تمسح ظهر السفينة منذ عام؟

قلت وأنا أستند على حشيتي في راحة وأخاطر بالاقتراب منها بعدما اطمأننت أنها لم تأتِ لذلك: «في كل حرب كان يأتي مبعوثو الجمهورية لأخذ الشباب القادرين على القتال عنوة. أتوا مرة وأنا بعد صغير السن لم أبلغ، لم يختاروني لهزال جسمي ولكن أخذوا جارًا لي كان قد تزوج لتوه من الفتاة التي أحبها منذ أن كان طفلًا. كان اسمه (ديكسون) وكان رجلًا شجاعًا لم يجزع لاختياره، لكنه كان مشفقًا على زوجته، لقد كان الأمر كابوسًا لزوجته التي كانت تهيم به حبًّا. لم تكن تتخيل بعد أقل من عام على زواجهما أن تجده وقد رحل إلى مصير غير معلوم. حين تودعين من يذهب إلى الحرب فأنتِ تعلمين أنه قد ذهب إلى الأبد! حتى لو بقي على قيد الحياة فمن سيعود إليكِ منها رجل آخر غير الذي قد ذهب.

سافر (ديكسون) واختفت أخباره لثلاثة أعوام حتى تم عقد السلام وانتهت الحرب، وعاد من بقي من الجنود إلى

منازلهم. ولكن (ديكسون) لم يعد. لم تأتِ برقية عزاء تخبرنا بوفاته أيضًا. كان (ديكسون) قد اختفى، ولم نعلم عنه شيئًا لشهور طويلة بعد انتهاء الحرب.

حتى ذهب أبي يومًا إلى قرية مجاورة في عمل، دخل إلى حانة هناك ليقضي ليلته فوجد شبح رجل يعرفه، كان (ديكسون) بنفسه! رجل سكّير يعاقر الخمر وينام في الشوارع ولا يكاد يجد قوت يومه. تعرّف عليه أبي ولكن (ديكسون) أبى العودة معه، لم يكن يعلم لماذا يرفض (ديكسون) أن يعود إلى بيته، إلى زوجته. ولما يئس منه، انتظر حتى أُغشِيَ عليه وحمله على عربته وقفل إلينا عائدًا.

ما إن رأته زوجته حتى ارتمت عليه، تقبل كل قطرة عرق وتلثم كل جرح ملتئم على جسده، لم تكن تعلم ما منعه من العودة إليها ولكنها لم تهتم، كان حبها صادقًا، وكل شيء صادق يكون جميلًا.

ولكن (ديكسون) استيقظ فوجدها أمامه، استغرق الأمر منه بعض الوقت كي يدرك أن أحدهم حمله إلى بيته وأنه ينظر الآن إلى زوجته، ثم ما إن كان منه إلا أن لطمها! وسبها بأسوأ السباب وأقذره، وركل من الرجال من حاول منهم تهدئته.

استغرق الأمر منا الكثير من الوقت لإيقافه والسماع منه والفهم. كان (ديكسون) يتلقى رسائل منتظمة من زوجته، كانت رسائل حب عزيزة، تمده بكل السكينة التي يحتاج إليها، كانت زوجته تتساءل عن سبب عدم كتابته إليها، ولكنه كان يكتب بانتظام، ولم يدرِ لم لم تصلها رسائله.

ولكن في السنة الأخيرة من الحرب كانت الرسائل قد تغيرت، كانت قد بدأت تشكو له وحدتها، وفقرها، وخوفها، وغضبها منه إذ غادر. بدأت تتحدث عن الفراش البارد، والليل الطويل، والحاجة إلى رفيق حياة بعد أن طال غيابه. بدأت تأتيه رسائل أخرى كانت مرسلة إليها هي وأخبره البريد أنه لم يستطع الوصول إليها ويقضي قانون المراسلة بإرسالها إلى وصيّها. كانت رسائل عشق، من رجل آخر! يتغزل في جمالها الذي قد ذاق عُسيلته، يتحدث عن ليالي اللقاء الحميمة التي جمعتهما أكثر من مرة، عن زوجها الذي لن يعود من الحرب أبدًا، عن دعوته لها كي تسافر إليه ليعيشا معًا إلى الأبد!»

كانت (أفيري) تستمع باهتمام، ثم سألت: «وهل فعلت زوجته كل ذلك».

تنهدتُ وقلت لها: «لم يصدق أحد أنها قد تفعل، زوجته كانت طيبة وفية، أقسَمَت له بأغلظ الأيمان أن هذا لم يحدث، وأن رسائلها في السنة الأخيرة لم تتغير عن السنين الأولى، أنها لم تعرف رجلًا غيره. ذكرت شيئًا عن فخ ربما يكون أعده أحد كارهيه له، أو مزحة ثقيلة من أحد زملائه.

ولكنه لم يصدق. أخبرنا أنه يعلم خطها جيدًا، الأسلوب الذي تتحدث به، التفاصيل التي تحكي عنها والتي كانت دقيقة إلى حد مخيف. دافعنا عنها، شهدنا أنها لم تخرج من بيتها إلا قليلًا، ولم يرها أحد على شيء يشين. ولكن أخبريني يا (أفيري) ماذا يمكن أن تفعله الكلمات في وجدان رجل قد زُرِعت بداخله بذرة شك ثم ارتوت بالماء مع كل دقيقة في كل يوم لعام أو اثنين؟!

في النهاية رحل (ديكسون) بعد أن انفصل عنها. وعاشت زوجته كسيرة الفؤاد عدة سنين ثم تزوجت بآخر، ومات هو من معاقرة الخمر وسوء التغذية. ونسي الجميع قصتهما الحزينة، ولكني لم أنسَ قط. وقد كانت قصته هي أول ما تذكرت بعد أن سافرت إلى العاصمة لأول مرة بعد زواجي من (ناجيلي)، هناك سمعت الكثير من قصص الحروب التي لم تكن تصلنا هناك في قريتنا البعيدة. سمعت عن تلك الحيلة التي أتى بها بعض رجال الجيش كي يضمنوا شجاعة منقطعة النظير من جنود الجبهة الأولى! المرسال!»

قالت (أفيري) وقد اتسعت عيناها في جزع: «أوه، لا، هل تقصد؟».

- «نعم، هو كذلك».

- «ولكن هذا فظيع».

تجدد غضبي من ذلك الوغد المدعو (رانزي) وتحسست لا شعوريًّا جبهتي، وكأني كنت أتمنى لو كان شجارنا قد استمر أكثر، ثم قلت لها: «كيف تقنعين جنديًّا بأن يضحي بحياته من أجل وطنه؟! بأي منطق لا متعالٍ يمكنكِ أن تقنعي به كائنًا مفرطًا في العقلانية يرعى نفسه في كل يوم ويحدد لذاته عالمه الخاص الذي يرغب به، بأن يضحي من أجل أي شيء؟!

لذا، علم قادة الجيش أن هناك أمرين فقط يمكنهما أن يدفعا الجندي للقتال باستماتة، أن يعطوه سببًا للحياة، أو يعطوه سببًا للموت!».

ثم نظرتُ لها ببسمة ساخرة مريرة وقلت: «ليس من السهل صناعة سبب للحياة في ظل الكِميت، أليس كذلك؟ من الأسهل أن يُذيقوه اليأس! البعض قد خانته امرأته، البعض قد مات أولاده في بيته بعد أن احترق، البعض قد سُرِقت جميع أمواله بعد أن قتل اللصوص أمه، البعض قضى الوباء على كل أهل قريته!

بعد أن يعلم الجندي ألا شيء قد بقي له هناك ليعود إليه، يحمل سلاحه ويجري في ميدان المعركة بشجاعة الأساطير، هو ليس شجاعًا، ليس كل من يريد الموت رجلًا شجاعًا! ولكنه سيفي بالغرض وسيلقي بالرعب في نفوس أعدائه، وسينطلق الجنود من وراءه في حماسة، وستنجح الحرب، وتبقى الدولة وتكبر هيبتها. إن لم يكن هذا هو النجاح في عين قادة الجيش، فماذا سيكون؟».

قالت (أفيري) في تقزز: «و(رانزي) هذا كان مرسالًا؟».

- «نعم، عرفته من ختم مميز في باطن كفه، كانت هذه هي العلامة التي تسمح لهم بالوصول إلى مخازن البريد وكل هيئات المراسلة والشؤون الخاصة بالمواطنين، هناك يبتكرون، يرتجلون، يتفننون، يقلدون الخطوط والأختام، يؤلفون القصص ويختلقون الأكاذيب، في النهاية فالنتيجة واحدة، اليأس في صورته النهائية متشابه، والطريقة التي تصل بها إليه لا تهم».

كانت (أفيري) قد لاحظت احتقان صوتي، ونبرة غضبي المتعالية فقالت تهدئ من روعي: «أعدك أن أطرده».

صرخت في غضب: «بل من المفترض أن يموت! أن يُقذَف إلى أمواج البحر العالية. أنتِ لا تفهمين. لا أحد يستحق أن يتم التفرقة بينه وبين حبيبه!».

وأخذت أتمالك بكائي وأنا أقول: «يكفي ما تقتطعه الحياة منا بالفعل!». ودفنت وجهي بين أصابعي وأخذت أتمنى لو ترحل الآن وتتركني قبل أن ترى دموعي، ولكنها لم تفعل.

لم أكن قد أخبرت (أفيري) بأن (ناجيلي) قد ماتت، كانت تحسب أن زوجتي تركتني كسير الفؤاد. لم أشأ أن أخبرها بذلك كي لا يزيد أملها في الحصول على حبي، ربما لو ظنت أن حبيبتي ما زالت على قيد الحياة تفهم لماذا لا أقدر على حب غيرها، هي لم تكن تعلم، لم تكن لتفهم، أحيانًا يكون الأموات أكثر حضورًا من جميع البشر. وأحيانًا نموت معهم ونصبح أقرب لعالمهم من عالمنا البغيض!

سرعان ما وجدت رأسها يقترب مني، وبعين دامعة كانت تنظر إليّ وقد جعل منها الحزن في أجمل هيئة لها ممكنة.

كانت تقترب مني أكثر ببطء، ويداها قد أطبقتا على كفّيّ برفق، فأغمضت عينيّ في ألم وقلت بصوت هامس: «(أفيري)، أرجوكِ... لا أقدر».

تركت يديّ ففتحت عيني ووجدتها وقد قامت واتجهت تجاه الباب الموصد وقبل أن تفتحه لترحل نظرت إليّ بعينها الدامعة وبسمة حزينة ارتسمت على شفتيها وقالت: «إن (ناجيلي) فتاة محظوظة، أكثر حظًّا بكثير مما قد أناله يومًا، ولا أملك إلا أن أحسدها». ثم رحلت.

جيرالد

اقتربتُ من الحارس بهدوء، على وجهي علامات الوداعة، أو ما استطعتُ رسمه منها عليه، وألبس ملابسي القديمة، تلك التي هجرتها منذ أن انضممت لـ (كروماز) منذ أعوام، أجفل الحارس وتحسس بارودته بشكل تلقائي، بينما تقدمتُ أنا بثقة في اتجاه البوابة، ولما لم تُفتح نظرتُ له متسائلًا أتعجله.

قال لي بغلظة: «من أنت؟».

- «أنا زميلك الجديد، تعرفنا صباح اليوم، ما شأنك؟».

- «آآآ.. ماذا؟».

- «لما أخبرتك أني سأعود مساءً بعد زيارة مكتب إدارة الضبط، لما قلت لي.... آآآه لم يكن أنت، كان (يات)، أين ذهب؟».

بدا الارتياح على وجهه، وقال: «لقد انتهت نوبته، أنا المسؤول في الليل». ثم فتح البوابة.

دخلتُ إلى بهو ساحة المصنع، مساحة كبيرة تفصل البوابة عن البناية الداخلية، مليئة بعربات خيول ضخمة، ومجموعات مكدسة من الصناديق لا أدري ما فيها، ومصابيح زيتية في كل مكان، وفي الداخل كان يتسكع عدة حراس آخرين يحتسون شرابًا ما، على الأرجح هو شراب مسكر؛ لأنهم قلقوا لما رأوني، ونظروا إلى زميلهم نظرة لائم، لو كنتُ غريبًا فليس من المفترض أن أدخل، ولو كنت من العاملين هنا فمن الخطر أن أراهم يشربون أثناء العمل.

كانت البناية الداخلية العملاقة مغلقة ببوابة أشد صرامة مع حراس أقل غباءً ومن الداخل تراءت أضواء وبعض أصوات لم أتبين ما هي، من الواضح أن العمل مستمر بالداخل.

- «هل يمكنني الاطلاع على أوراقك؟».

- «ماذا؟ ولكني تركتها مع (يات)».

- «ولماذا أخذها (يات)؟».

- «لا أدري، طلبها مني فأعطيتها له».

بدا محرجًا، وقال: «اسمع يا رجل، لا أستطيع إدخالك بدون أوراق».

رسمتُ على وجهي علامات الضيق وأطلقتُ سبة، مع بعض الزفرات.

- «وماذا ينبغي عليّ أن أفعل الآن؟».

- «هذا ليس من شأني».

هززت رأسي في استسلام، وأنزلتُ الحقيبة من على كتفي، ثم جلستُ على الحَشِيّة بجانب البوابة، وقلت وأنا أخرج من حقيبتي زجاجة من شراب المارين البارد: «يبدو أننا سوف نقضي الليلة معًا حتى يأتي (يات) في الصباح بأوراقي، طالما لن يدخلوني إلى هناك» وأشرت إلى البناية العملاقة بجانبي.

بدا مترددًا، ثم قال: «ليس من المفترض أن تكون هنا أيضًا».

ابتسمتُ في ود، وقلت له: «ماذا؟ هل ستطردني إلى الشارع في هذا البرد؟ إن بيتي في آخر السافينور، هل تتوقع أن أجد سائسًا في هذا الوقت؟». ثم فتحت زجاجة المارين وصببته في كوبين وجدتهما هناك بجانب حشيته وبهما بقايا شراب ما.

نظر خلفه إلى بقية الحراس المتسامرين، وقد قرر على ما يبدو ألا ضرر من مخالفة القوانين قليلًا طالما لن يعرف أحد، ثم جلس بجانبي، مددتُ يدي مصافحًا له وقلت: «جيرالد».

- «كواين».

- «سوف نصبح صديقين هنا يا (كواين)، هل تشعر بذلك؟».

لا بد أن نكون صديقين يا (كواين) إذا أردتُ أن أشغلك عن مراقبة الشارع لبعض الوقت، هز رأسه موافقًا في خجل وتوجس وهو يشرب. من بعيد كانت ساعة المدينة تشير إلى دقائق يسيرة قبل موعد وصول الشحنة اليومية، على ما يبدو قد لاحظ الحراس الآخرون ذلك فاستعدوا لاستقبال الشحنة، أخفوا زجاجات الشراب وهندموا ملابسهم، بينما كان يغط أحدهم في النوم برغمه.

قلتُ لـ (كواين)، وأنا أشير إليهم: «اعذرني، أنا جديد هنا كما ترى، لماذا تحفزوا؟».

قال بريبة وكأنه يختبر حجم ما أعرفه بالفعل: «ينتظرون عربة قادمة».

- «آها، التوريدات اليومية. يا لهم من مساكين!».

بدا الارتياح عليه كوني أعلم ماذا ننتظر، ثم قال: «هذا أفضل لهم، اختصار للعذاب».

نظرتُ له نظرة طويلة، توجّس قليلًا، فقلت له: «هل تؤمن بالكِميت يا (كواين)؟».

وقبل أن تتسع عيناه عاجلته سريعًا وأنا أرفع كلتا يديّ: «يا أخي، أنا لست من المتشيئين، أنا رجل صالح، لا تقلق».

ثم تابعت: «بالطبع الكِميت صادق، أنا أقصد درجة أعمق من الإيمان، هل فكرتَ من قبل أن الإنسان... مختلف؟!».

بدا متلعثمًا وقال: «هو بالفعل مختلف، لأنه أذكى من....»

- «من سائر الدواب والطير. نعم، نعم، أعلم. أنا أحفظ الكِميت عن ظهر قلب. لكن أتعرف ما أفكر فيه أنا؟ أفكر أن الإنسان لا يختلف بذكائه فقط. يختلف أكثر برغباته. سأعطيك مثالًا، في رأيك يا (كواين) ما الذي يسعى إليه البشر؟».

قال ضاحكًا: «المال».

- «رائع، كلامك صحيح، لكن المال مجرد قطع فضية صماء لا تجلب لنا أية راحة إلا باستخدامها للإنفاق على أشياء أخرى، ربما هذه الأشياء الأخرى هي ما نسعى إليه بالفعل».

- «تقصد الطعام مثلًا؟».

- «والخمر الذي يشربه أصحابك هناك، واختيار أجمل العاهرات في بيوت المجون، والخيول السريعة ذات الشعر الطويل، والبيوت الواسعة التي تعود إليها ليلًا لتشعر فيها بالدفء والراحة».

بدا متململًا وقال: «إذن هو الطعام والجماع والأمان والراحة، هذه هي إجابة سؤالك، هذا ما يسعى إليه الإنسان».

- «ماذا عن الحب؟ الحنان؟ دفء الأسرة؟ وفاء الصديق؟ والجار الذي تطيب جيرته؟ هل تقدر هذه الأشياء بالمال أصلًا؟».

- «معك حق».

- « وماذا عن إثبات ذاته؟ ألا تجد أنه قد يضحي براحته وبماله من أجل أن يتسلق الجبل الغربي في رحلة مع أصدقائه الأثرياء ليحفر اسمه على تل الطمي الموجود على قمته هناك؟».

- «حسنًا، وإثبات ذاته أيضًا».

- «وهل يتوقف؟».

- «ماذا تقصد؟».

- «بعد أن يحصل على كل ذلك هل تنظر في عينيه فتجد ذلك الوهيج قد خمد؟ أم أنك ستجد نفس العين الدوّارة الغارقة في بحث محموم حولها عن الشيء الجديد، عن الهدف الثاني، عن اللذة الدفينة التالية. ربما يبحث عن شيء كان معه ثم فقده، ربما عن الشيء الوحيد الذي لم يحصّله بعد، وربما عن شيء لا يعلم وجوده حتى».

قال (كواين) بابتسامة هازئة: «كيف يبحث عن شيء لا يعلم بوجوده؟».

قلت له: «ماذا تفعل حين تشعر بالظمأ؟».

- «أشرب الماء».

- «ماذا لو لا يوجد ماء؟ ماذا لو لم يكن هناك ماء؟ ماذا لو كنت كبرت لتجد أباك وأمك يشعران بذات العطش مثلما كان يحدث لأجدادك وأجدادهم منذ عصر البشر الأوائل، وكل هؤلاء لم يجدوا الماء. لا يعلمون بوجود شيء اسمه ماء. ماذا لو كان حدث ذلك يا (كواين)؟».

ثم نظرتُ في عينيه، وقلت: «هل كنت ستتوقف عن الشعور بالعطش؟!».

سكت قليلًا، ونظر إلى رجليه ثم قال: «لا يمكن أن نشعر بالظمأ لشيء لا يوجد، لربما الماء كان موجودًا ولكننا لم نجده بعد».

لمعت عيني وهللت وضربته على كتفيه: «مرحى، رائع! أنت رائع، لربما هو موجود بالفعل ولم نجده بعد». ثم اتكأت على الحائط خلفي وأضفت: «لربما كان ما يبحث عنه الإنسان فعلًا لم يجده بعد. لربما كل سعيه المحموم كان مجرد ظمأ رجل عطشان يائس!».

صمتنا فترة ثم قطع صمتنا أصوات الخيول خارج البوابة، قام (كواين) وتأكد من هوية السائق ثم أدخله. مرت العربة بجانبي متجهة إلى الساحة الخلفية وتبعها بقية الحراس السكارى إذ سيتابعون إنزال هؤلاء التعساء الذين اشترتهم الحكومة.

عاد (كواين) على الحشيّة بعدما أدخل العربة، كان مرتاحًا، فبوصول الشحنة اليومية، ينتهي عمله إلا من بعض المراقبة المملة حتى الصباح. فبدا أكثر ودًّا وحبًّا للسمر. صب لنفسه المزيد من المارين وقال: «ألا تشعر بالخوف من الثرثرة هنا وهناك حول الكِميت وحقيقة الإنسان؟ أنت تعرف كيف تعامل حكومتنا المتشيئين ومن تأثر بهم، من السهل أن يظنك أحدهم أنك منهم من طريقة كلامك». هززتُ رأسي بلا مبالاة، ثم قال: «ولكن من أين لك بكل هذه الأفكار العجيبة؟».

قلت وأنا أريح رأسي للوراء وأغمض عينيّ في تعب: «تعلمتها من أحدهم».

- «لا بد أنه كان رجلًا حكيمًا».

- «بل كان أغبى رجل عرفته في حياتي!».

دُهِشَ ولكنه صمت وقد قدر أني لم أنتهِ من الكلام.

تابعت: «كان شابًّا... مدمنًا. مدمنًا على الحياة. يحب كل شيء في هذه الحياة. من المعتاد أن تجده وقد أحاط بعنق فتاة وفي يده الأخرى زجاجة نبيذ، كان سعيدًا، أو على الأقل لم يكن يفكر كثيرًا عما إذا كان سعيدًا أم لا. ربما بسبب ذلك لم يشعر بالتعاسة، لا أدري، ربما.

بالنسبة إليه كان هدفه من الحياة واضحًا، يريد أن يموت بعد أن جاوز الثمانين وقد عرف كل بنات الأرض وشرب كل حبات الكرم المُعتّق وركب أجمل الخيول وسافر كل أنحاء قارة الشمال. كان أبوه قد فعل كل ذلك، أو هكذا كان يظن. وها هو الآن قد هَرِم أبوه، وقارب على مفارقة الحياة، بدا له عادلًا أن يحدث ذلك، أن يفارق أبوه الحياة ويتركها له، يفعل فيها مثلما فعل، يشرب كأس الدنيا حتى آخرها قبل أن يفنى جسده إلى الأبد. كان يفكر دائمًا: سنعيش مرة واحدة.

ولكن ما حدث لم يكن عادلًا، كان أبوه قد مرض، بمرض طويل، صار مقعدًا على سريره، ومن حوله الخدم يخدمونه، ما الجدوى من كل ذلك؟ لقد انتهى! فكر: لو كان الشباب يُشتَرى لاشتراه له بكل ما معه من مال، هو لم يكن شريرًا، لقد كان يحب أباه بالفعل، ولكنه كان... يتعذب فحسب! مع كل هذا العجز، كل هذا الهِرَم. لم يكن شيئًا ذا معنى بالنسبة إليه. كان يتمنى أن يصيح فيه: أبي، لقد انتهى وقتك. هل من الممكن أن تقوم من فضلك لتفسح لي مكانًا للجلوس؟ وأنا حزين عليك بالمناسبة، ولكن لا يوجد ما يمكنني فعله.

هكذا كان يفكر، بدا له من الظلم أن يظل الشهور تلو الشهور متعذبًا مع أبيه، لا يكاد يجد من المال ما يكفي لعلاجه وخدمته، وأخذ يصحو كل يوم يتمنى لو يذهب إلى غرفة أبيه يجده قد مات. ولكنه لا يموت. بدا أبوه كما لو كان قد... عَلِق! علق ما بين الحياة والموت، لم يكن هنا ولا هناك. كان يفضل له الفناء السريع عن لحظات الاحتضار البطيئة التي

تمتص منه كل لحظة لذة عاشها من قبل في هذه الحياة. بدا له وكأن الحياة تسترد منه ما كان قد أخذه منها. كانت مأساة. هكذا فكر. الأمر كله محض مأساة.

لم يكن قرارًا سهلًا عليه ولكنه بدا القرار الوحيد، وحين قابل ممثل الحكومة في مكتب توريدات ليبنتس، وحين أدهشه بأنه لا يريد مقابل أبيه شيئًا من المال، هو يريد راحته فقط، لم يكن أثناء كل ذلك سعيدًا، كان خائفًا ولكنه لم يكن يفهم ممّ يخاف. عقله يخبره أن هذا هو الصواب، كل مبادئ الكِميت التي علمها أبوه له تخبره أن هذا هو الصواب. ولكن شيئًا ما في داخله كان يرتجف.

وحين أتى رجال التوريدات لأخذ أبيه، وبرغم أنهم أخبروه أنه سوف يتم نقله إلى مشفىً جديد، إلا أن أباه كان قد فهم، وبينما كان يختبئ خلف الستائر حانت نظرة من أبيه إليه. كانت نظرة... مريعة! تلك النظرة، لا يمكنني أن أصفها لك. نظرة من خاب ظنه وخسر رهانه الأخير، نظرة غزال طاردته الأسود حتى ألجأته إلى ركنه المفضل من الغابة ليكون شاهدًا على نهايته! كانت نظرة يأس موحشة، ترى هل كان يعلم منذ البداية أن هذا هو القرار الذي سيتخذه ابنه بشأنه؟ أم أنه تفاجأ بذلك في ذعر؟ كلا الاحتمالين شنيع!

تلك النظرة قد غيرت حياته للأبد! جعلته يتمنى الموت منذ ذلك الحين. النظرة التي طاردته بعد ذلك في كل يوم، في كل ليلة، بين عيني كل فتاة، وعلى مائدة كل وجبة طعام، وفي فضاء كل غرفة في حانة الشراب، وفي سواد الظلام أمامه وهو يحاول التأمل في كل دار تروُّح يزورها. لم يكن يقدر على الخلاص منها، صارت كالسجن حوله أو كحبل التف حول رقبته فعصر منه الحياة. كانت نظرة أبيه قد عالجته من إدمان الحياة!»

ثم نظرتُ في عينيه وقلت له: «أتعلم يا (كواين) ماذا يحدث حين تُشفى من إدمان الحياة؟».

- «ماذا يحدث؟».

- «تبدأ في الإدراك، في الرؤية. تبدأ في ملاحظة أنك في الحقيقة كنت ظمآن طوال حياتك، ولا تملك أدنى فكرة عن ذلك الذي سيسد حاجتك! يدفعك هذا إلى الغضب، إلى الانفلات، ربما إلى الجنون حتى. اللعنة على كل شيء، فليسقط كل شيء».

ثم أردفت: «كانت هذه هي اللحظة التي عرف فيها أنه يريد أن يموت في نفس المكان الذي مات فيه أبوه، تحت أنقاض ليبنتس بعد أن يحترق».

ارتبك (كواين)، وبدت نظرات الريبة والخوف في عينيه، هم بالابتعاد عني ولكنه سمع ضجة أتته من خلفه، فجرى في اتجاه الصوت، حيث كان (كاي) ومعه ثلاثة آخرون يمشون تجاهه قادمين من الفناء الخلفي وعلى ملابسهم آثار دماء وفي أياديهم خناجر ملوثة. أخذ ينظر يمينًا ويسارًا بحثًا عن رفاقه، وكلما كان يتقدم (كاي) نحوه كان يتراجع خائفًا حتى اصطدم ظهره بي، التفت لي في ذعر فقلتُ له وأنا أمسح دموعي: «أنت عبقري يا (كواين)، لا يمكن أن نشعر بالظمأ لشيء لا يوجد. لربما كان موجودًا طوال الوقت ولكننا لم نجده بعد!».

يولاند

بدأ أول الجنود في الظهور ممسكًا بمصباح ضخم يقود طريق الجموع من خلفه، الذين صعدوا واحدًا وراء الآخر وظهروا من وراء أفق السلم الحلزوني إلى طابقنا من الأسفل.

كان على وجه أغلب الجنود آثار دماء، بعض هذه الدماء لهم، والكثير منها هي من دماء النقباء بالأسفل، ومن صوت خفوت المعركة علمت أنه على الأرجح لم يبق منهم أحد.

ارتجف الرجل النحيل بجانبي والذي أمرت بنقله هنا منذ عدة أيام كي أستطيع مشاركته الزنزانة في هذه اللحظة. إن كان جواسيسي قد علموا أن جنود (كروماز) سوف يأتون لتحرير (سلار) اليوم، فلعلها تكون فرصتنا التي لن تتكرر للإيقاع بهؤلاء الأوغاد إلى الأبد.

بدأ المساجين في الاستيقاظ والتهليل للقادمين، لقد ظنوا أنهم هنا كي يحرروهم، كنت أعلم أن آخر من يهتم (كروماز) بهم هم هؤلاء اللصوص والمغتصبون. وعلى الفور بدأ الجنود في إطلاق البارود في الهواء لإخراس هذا الهرج. نظر أحدهم لي متحديًا من خلف القضبان، كان الرجل يبدو لي غبيًّا من الطراز الذي أبحث عنه، تكشر أنيابه حين يغضب بطريقة طفولية، ويضحك من آن لآخر وهو يلوح ببارودته في الهواء وكأنه سعيد بلعبته الخطيرة التي تقتل الناس إن أراد. نظرتُ له بتحدٍّ فصرف بصره عني وانشغل بإسكات بقية المساجين.

من بعيد أتى رجل يحمل سلسلة ضخمة من المفاتيح الثقيلة، أفسح له بقية الجند حتى وصل إلى الزنزانة التي تقابلني، تلك الزنزانة المغلقة بالباب الحديدي المعدني الثقيل، أحد الذين نقلناهم هنا من المتشيئين كي يظفروا بحبس انفرادي ثقيل الوطأة لا نملك مثله في البرج الأول المخصص لهم.

كان ساكن هذه الزنزانة هو (سلار) ذاته، من غيره سوف يخاطر (كروماز) بكل شيء كي يحرره؟ ساعده الأيمن وتابعه المخلص الذي قبضنا عليه منذ شهور في أحد محاولاتهم الفاشلة لاغتيال الوكيل.

هم الرجل بأن يفتح باب زنزانة (سلار)، ولكن أحدهم أمسك بيده بحزم وقال: «أمرنا أن ننتظر حتى يصل».

يصل؟ عمّن يتحدث؟!

أومأ له الرجل موافقًا وانزاح جانبًا واصطف مع بقية الجنود الذين شكلوا طوقًا دائريًّا حول الزنزانة وكأنهم في تشكيل حربي في معركة، وطال الصمت بين الجميع. حاول السجين بجانبي أن يقوم من مكانه ليشاهد ولكني لم أكن لأخاطر بأن يلفت الأنظار إليّ، أشرتُ إليه بحزم أن يلزم مقعده، فامتثل خوفًا وهو لا يدري ما يحدث.

بعد دقائق من الصمت الطويل، أتت أصوات خطوات واثقة من آخر الممر عند السلم الحلزونيّ، تأهّب الجنود ليحيوا الرجل القادم، كان يسير وحده ممسكًا ببارودته موجهها لأسفل وكأنه يتوكأ على عصا، قصير القامة، أشقر الشعر، يلبس ملابس العامة، ويرتدي عوينات يندر أن توجد وسط سكان مدينة (أورارا)، هذا وصف مألوف، مألوف بشكل يثير الريبة!

اقترب منه الرجل حامل المفاتيح، وسأله برهبة ممزوجة بود المخالطة: «هل أفتح الباب؟». أومأ له برأسه.

فتح الباب وانطلق صوت الصرير المعدني للباب الثقيل يُجرُّ جانبًا، وبدا الرجل داخله في حالة مريعة، وهو يحاول أن يخفي كل هذا الضوء الدخيل عن عينيه اللتين لم تعتادا إلا الظلام، وشعره الأشعث ولحيته الكثيفة ملوّثان بكل أنواع الأتربة والقذارات، في وكر ضيق محبوس فيه منذ شهور لا يدخل إليه فيه إلا صحن طعام وقدح ماء من فتحة صغيرة بأسفل الباب السميك.

قال بصوت مبحوح وهو يجاهد لفتح عينيه أثناء محاولة الوقوف على قدميه بصعوبة: «(كروماز)، أهذا أنت؟».

(كروماز)؟! هو بنفسه هنا؟ هو هذا الرجل القصير؟!

بدون أن يجيبه اندفع يحتضنه في حنان ويربت على ظهره وقال بصوت متهدج: «لا تخش شيئًا يا صديقي، أنت معي الآن».

خرج (سلار) يتوكأ على (كروماز) من زنزانته الضيقة لأول مرة منذ أودِعَ فيها وأخذ يطيل النظر هنا وهناك، أتبع (كروماز) المكان بنظراته هو أيضًا، والتقت عينانا فأطال النظر فيهما، شعرتُ بالقلق ونظرتُ إلى الأرض متحاشيًا النظر في

عينيه مباشرة. همّ هو بالاقتراب مني، وقد أثار شيء ما ريبته، ربما منظري المهندم!

- «كيف دخلتم هنا؟».

قالها (سلار) لينقذني من اكتشاف (كروماز) لأمري، فتوقف في الطريق لقضبان زنزانتي والتفت إليه قائلًا: «في اليوم الأول الذي سجنوك، أرسلت في طلب نوع جديد من المدافع، يكفي لتدمير مدافعهم العتيقة، سامحني يا صديقي، لم تصل إلا متأخرًا».

قال (سلار) بوهن: «كم مات من إخوتي لأجلي؟».

نظر (كروماز) إلى أحد جنده، يسأله بعينه، فقال: «ثلاثة عشر يا سيدي».

عاد (كروماز) يلتفت إلى (سلار) وقال وهو يطوّق عنقه بذراعه ويقوده إلى ممر الخروج: «حان الوقت لعودتك إلى بيتك».

سار معه (سلار) قليلًا ثم توقف. فتوقف معه الجميع، والتفتوا إليه متسائلين.

قال (سلار) ناظرًا إلى الأرض: «لا».. ثم نظر إلى صديقه وقال: «أنا مستعد الآن للرحيل».

بدا الألم على وجه (كروماز) وقال وهو يهز رأسه: «لا، لا».

كرر (سلار): «لم أشتهِ شيئًا طوال الفترة السابقة أكثر من الموت النظيف».

ثم استل خنجر (كروماز) من غمده واحتضنه وهو ينظر إلى عينيه ويقول مترجيًا: «كل الخواتيم تتشابه». ثم نظر إلى زنزانته وقال: «أما الحَيَوات فـ لا».

خلع (كروماز) عويناته وبدا يفرك عينيه وهو يجاهد بصعوبة أن يسيطر على مشاعره، ثم استعاد خنجره من (سلار)، وعانقه بحرارة، وبعد أن أفلته، ناوله بارودته، وقال: «البارود أسرع».

ونظر إليه طويلًا، ثم قال: «الوداع يا أخي».

هز له (سلار) رأسه ممتنًّا، ثم التفت (كروماز) ليرحل.

ناداه (سلار) قبل أن يغيب عنه قائلًا: «هل تؤمن حقًّا بحياة أخرى بعد الموت؟».

توقف (كروماز) وقد بدا لا يريد الجواب عن هذا، ثم التفت له ببطء وقال: «نعم».

- «هل ستكون خيرًا من هذه الحياة؟».

سكت برهة ثم أجاب بحزم وهو يبتلع ريقه في صعوبة: «لا»!

ثم التفت ومضى مع بعض جنوده، بينما انتظر بقية الجنود حتى رفع (سلار) فوهة البارودة ووضعها في فمه، رفعت يدي أغطي عينيّ قبل أن أسمع الصوت المريع، ومعه صرخات كل من كان يشاهد من المساجين.

هوت جثة (سلار) على الأرض وبدأ المساجين في الصياح، بينما كان بقية الجنود يرحلون واحدًا وراء الآخر، اقتربتُ بسرعة من قضبان الزنزانة لأرى الرجل الميت على أرض الممر أمامي، ولكن تعثرت وسقطت من جيبي العلبة العاجيّة الثمينة لتعبر من خلال القضبان وتستقر عند قدمي الجندي الغبي الذي كان أول من أراه منهم، ضحك في استمتاع وتناول الصندوق الصغير الثمين.

صحت فيه بسرعة: «ناولني إياها، إنها ملكي»!

نظر لي الرجل مبتسمًا في استمتاع ثم وضع العلبة في جيبه، ولوّح لي مودّعًا والتفت عني راحلًا.

أخذتُ أصيح فيه: «أنت أيها اللص، إنها لي»!

ولكنه كان قد اختفي في الممر المظلم، وبعد أن هدأ الجميع من حولي، نظرتُ إلى جثة (سلار) المكوّمة، ثم إلى الاتجاه الذي سار فيه الجنود، وتلاعبت بسمة انتصار صغيرة على ركن فمي.

هارول

أشار لي (سولي) إلى مقال في جريدة اليوم ونحن نشرب المارين الساخن في حديقة منزلي الخلفية، تناولت الجريدة منه، كان مقالًا في إحدى جرائد المعارضة بعنوان: (الثري الذي يهتم)، يتحدث عن (نوبير) الذي موّل بعثة (تومان) التي رفضتها الحكومة. نوبير رجل كِميتي متعصب قميء، وقد كان له الفضل والتأثير المباشر في الكثير من الإجراءات التي اتُخِذَت ضد المتشيئين.

قلت لـ (سولي): «لقد جعلوا منه بطلًا لمجرد دعمه لبعثة (تومان)».

- «جعلوا؟ من هم؟ إنهم رجال (نوبير) هم من يمدحونه، هو الذي يجعل من نفسه كذلك».

- «هل تظن أنه ينوي المنافسة في الانتخابات القادمة أخيرًا؟».

- «لا».

ثم تابع يعلمني: «أمثال (نوبير) يعلمون أن السلطة الحقيقية ليس لها علاقة بمن يحكم فعلًا. هو يعلم جيدًا أن موضع قوته في الظلال».

هززت رأسي موافقًا، ثم حانت مني التفاتة نحو كومة الجرائد بجانبه، هالني ما رأيت! على أغلفة كل الجرائد خبر واحد، وبكلمات كبيرة مكتوب: (المتشيئون يدمرون ليبنتس).

نظرت إلى (سولي) متسائلًا فأشاح بوجهه في خجل كعادته مع كل أعمال (كروماز). كان يعتبر نفسه مسؤولًا عن كل عنفه بشكل ما، ولم يبدُ على استعداد للحديث، لذلك تجاهل الخبر تمامًا بينما كان يشير لي إلى خبر تافه عن (نوبير).

تناولت جريدة (الأمة) وقرأت الخبر بسرعة، كان ليبنتس قد تم اقتحامه ليلة أمس من قبل جنود (كروماز)، كانت الجثث العارية لسائق عربة الترحيلات والحارِسَيْن معه ملقاة على ناصية الطريق بجوار المصنع، استخدموا العربة للدخول وقتلوا جميع الحراس والأطباء والموظفين البؤساء الذين كانوا في وردية الليل، هرّبوا المرضى الذين كانوا موضع التجارب، ونقلوا العاجزين منهم، ثم فجروا المكان كله!

في ذات الجريدة كان هناك خبر آخر أكثر غموضًا. شيء ما حدث في برج القلعة الثالث، لا توجد الكثير من التفاصيل، ولكن هناك الكثير من الجثث هناك، و... (سلار) مقتولًا أمام زنزانته!

تناولت جريدة أخرى وقرأت الأخبار منها، ثم ثالثة. قال لي (سولي) مازحًا: «هل تنوي أن تقرأ جميع الجرائد؟».

نظرت له غير مصدق، ثم قلت وأنا أتذكر مصنع (ليبنتس) الضخم: «ولكن كيف فعلوا ذلك؟ الخبر يتحدث عن أنقاض المصنع الذي صار كومة من الحجارة والرماد. لم أرَ كل هذا الدمار من قبل!».

قال (سولي) وقد بدا غير مرتاح للحديث في هذا الموضوع: «نيتروجلسرين». ثم بابتسامة حزينة قال: «لطالما عشق (كروماز) النيتروجلسرين، إنها تلك اللحظة التي ينفجر فيها كل شيء، وتتدمر الأبنية المهيبة في لحظات، يمكن أن يموت الجميع في انفجار كذلك بينما كل واحد منهم في عالمه الخاص، لا يوجد ما يعبر أكثر عن شعاره المحبب:
(كل الخواتيم تتشابه)»!

نظرت إلى (سولي) في شفقة، كلما تحدث عن (كروماز) غمره الحزن حقًّا، ومن يلومه؟ لقد هدم الوغد كل تراث الرجل الطيب. لقد كان (سولي) دومًا على ثقة بأن (كروماز) لا يباالي بالأسماء والملابس الموحدة، ولكنه أصر على أن يتسمى جنوده بالمتشيئين، وأن يلبسوا ملابس بيضاء بخطوط خضراء مميزة شبيهة بملابس (سولي) نفسه، وأن يزرع في وجدان الجميع أنه امتداد طبيعي لأفكار (سولي تراك). ربما فعل كل ذلك كسخرية أخيرة من العجوز، وربما هو يؤمن به فعلًا! يؤمن به على طريقته الخاصة.

ثم قال في محاولة واضحة لتغيير الحديث: «ما الموعد الذي أخبرك به (ميرون)؟».

قلت وقد احترمت رغبته في الحديث عن شيء آخر: «بعد أسبوع». هز رأسه بتؤدة وقال ممازحًا: «لعلي حين أعود أجدك وقد تزوجتَ أخيرًا».

ابتسمت في ألم، وقلت له: «لقد فات الأوان على ذلك».

صمت قليلًا وأضاف: « لن تجد علاجًا للقلب الكسير أفضل من الزمن».

نظرتُ له وقلبي يتألم، لم أشأ أن أخبره أني لا أحسب أنه سيعود. وبداخلي كان يقين يتعاظم، لن أرى (سولي) مرة أخرى!

قلت له محاولًا أن أستجمع كل طاقتي في الإقناع: «ابقَ معي يا (سولي). ابقَ معي ونقّب كما تشاء عن غايتك وسط بطون الكتب كما كنت تفعل. سوف أوفر لك كل ما تطلبه، إذا شئت سوف أعود بك إلى مكتبة المافرسك مجددًا، لا أدري كيف سأدخلك إلى هناك ولكن رجالي سوف يجدون طريقة. فقط... لا تذهب!».

ضحك بهدوء ثم أشار إلى قدمه السوداء وأصبعه المبتور حديثًا، وقال: «أنت تعلم أنه لم يعد في العمر وقت لفعل أي شيء».

نظر إلى الفراغ أمامه وقال وكأنما يخاطب نفسه: «لقد نلت كفايتي من هذا العالم، اختنقت بالشكوك، ومللت من صدى الأسئلة العائد من حيث لم يستمع أحد، وفي كل مرة أظن أني قد وصلت إلى جوابي فيها أصطدم بالكثير من عدم التأكد.

الناس يتحدثون عن (سولي)، ويتساءلون من الذي قد فهم (سولي) الفيلسوف الرائد، أو الرجل المجنون؟ لا فرق بالنسبة لي. هم لا يعلمون أنني لا أفهم أي شيء! لا أعرف أي شيء! وطوال أربعين عامًا كنت أسأل نفسي إن كانت معاناة الأسئلة هي غرض الوجود أم أن المعاناة هي أن تسأل عن غرض الوجود! ولكن هل يستطيع أحد أن يفر حقًّا من ذلك السؤال؟! إن فر بعقله فماذا عن روحه القلقة التي تسأله كل يوم بطريقتها الخاصة؟

إن كان ثمة شيء أوقن به في كل ما علمتك إياه فهو أننا لسنا مجرد أجسادنا، هناك شيء آخر فينا هو ما يجعلنا نحن، شيء أكبر بكثير من هذا اللحم وتلك الشحوم، شيء بديع يحمل أثرًا من ذلك الذي صنعه. ذلك الذي أفنيت عمري أشتم أي طريق يدلني عليه».

ثم نظر إليّ وكأنما أدرك وجودي فجأة: «شيء ما يخبرني منذ سنين، أن بحثي سوف ينتهي هناك عند الحافة، في ذات المكان الذي قد بدأ فيه.

عليّ أن أعلم من الذي كتب كميت توبو!».

سيرا

رددتُ على (هوسيرل) وأنا أناول أمتعتي لأحد أعضاء فريق البحّارة على ظهر السفينة الضخمة التي استأجرناها: «لا أدري، ربما لأنها متعجرفة».

- «(تومان) متعجرف أيضًا، هل هذا سبب كافٍ كي تكرهيه؟».

- «لا، أنا لا أكره السيد (تومان) بالطبع».

رد بابتسامة سمجة: «بالطبع».

نظرتُ له بحدة، ماذا يقصد الوغد؟

كان (هوسيرل) هو زميلي وعدوي اللدود، لم تكن بيننا كراهية، ولكن منافسة شرسة، بالنسبة له كنت تلك الفتاة المدللة التي لا تستحق أن تكون في فريق البحث، ولكن (تومان) الذي كان صديقًا لأبيها يفضلها لأسباب شخصية. وبالنسبة لي كان هو ضعيف الموهبة، ربما كان ذكيًا ويفهم قوانين الرياضيات والرصد دائمًا، ولكن حين يتعلق الأمر بالإبداع والرؤى الجديدة فكان أقرب ما يكون لخشبة صماء.

تابعت: «(كالينا) تختلف عن (تومان)، كالينا متعجرفة لأنها تظن أنها هي ورؤساءها في العمل أفضل منا، وتظن أن المال الذي أعطتنا إياه يعني أن تتدخل في كل شيء. هل تعلم أنها أصرت على اختيار فريق البحارة؟ كان السيد (تومان) يريد استئجار (مانك) بسفينته هو وفريقه، سفينة صيد متينة متخصصة في استخراج لآلئ الشين بالقرب من الحافة ذاتها منذ سنين. ولكن (كالينا) أصرت على استئجار (ليفاي) أحد البحارة الذين يعملون لحساب أعمال (نوبير)».

- «ولماذا (ليفاي)؟».

- «لا أدري، ربما سعره أرخص، أو ربما أرادت ألا تشعر أنها وحيدة».

نظر لها (هوسيرل) وهي تلقي الأوامر هنا وهناك، فنظرت إليها معه، كانت تنظم غرف الإقامة على ظهر السفينة وتحدد مواعيد الوجبات وتتأكد من توفر الأمتعة وصلاحية قوارب النجاة، كانت تفعل كل شيء بإتقان، بسهولة، بشعرها المتطاير من هواء البحر، وعباءتها الأنيقة المشدودة تسمح لها بالتحرك بخفة، أعترف أنها كانت تبدو فاتنة! المرأة التي جمعت الجمال والقوة. وبداخل نفسي رددت على (هوسيرل) سرًّا: أعرفتَ الآن لماذا لا أحب (كالينا)؟

حولتُ نظري تجاه (تومان)، كان يتحدث مع (ليفاي) وأحد رجاله وهم منكبون على خريطة كبيرة تظهر المحيط الأكبر، على ما يبدو كانوا يتناقشون في الطريق الذي سيسلكونه. كانت أعصابي تتوتر كلما تذكرت الحافة، كلما تذكرت أننا ذاهبون إلى هناك دون خطة! كلما ذكرت السيد (تومان) بذلك يقول: سيبرز لنا الحل هناك! ثم يتابع: «حين تستبعدين الخرافة فستدهشين من جمال سعة الاحتمالات». كل ذلك جميل يا سيد (تومان) ولكن هذا لن ينقذنا من (نوبير) حين ننفق ماله ونعود بوفاض خالٍ.

اقتربت مني (كالينا) وقالت بلهجة عملية سريعة: «هل اكتمل عددكم؟ حملتم أمتعتكم بالكامل؟ نتحرك الآن؟».

قلت بتوتر: «لا، ما زال ينقصنا واحد».

قطبت جبينها في ارتباك ثم بدأت في العد: «هذه أنتِ و(تومان)، وواحد آخر من المجمع العلمي لا أعرف اسمه».

- «(هوسيرل)».

أشارت بيدها بلا مبالاة، ثم قالت: «نعم، من الذي ينقصكم؟ أنتم تحدثتم عن ثلاثة».

قلت بخجل وأنا أنظر بعيدًا: «هناك طبيب اسمه (ميرون) لم يأتِ بعد».

- «ولماذا نحتاج إلى طبيب؟».

- «في حالة مرض أحدنا مثلًا في أثناء الرحلة».

تلاعب ركن فمها الهازئ ونظرت لي نظرة معناها: (كفي عن الكذب وأخبريني الحقيقة).

تجاهلت نظرتها وأخذت أدعي انشغالي بمراجعة آلات الفحص، بينما قاطعنا (تومان) في هذه اللحظة وقد اقترب منا بشعره الذي يتطاير برياح البحر ووجهه الوسيم وقد أنارته الشمس، وشعرت باضطراب مؤلم في صدري كنت قد اعتدت عليه.

قالت (كالينا): «لماذا نحتاج إلى طبيب معنا يا سيد (تومان)».

- «لا نحتاج إلى واحد».

- «إذن من (ميرون) هذا؟ ولماذا يأتي معنا؟».

- «هو صديق شخصي لي طلب مني مرافقتي ودعمي في رحلتي الهامة».

- «...!!»

- «هل توجد مشكلة؟».

- «في الحقيقة نعم، توجد الكثير من المشاكل».

قال لها بهدوء: «احتفظي بها لنفسك إذن»، ثم تركنا ورحل.

ميرون

توقفتُ مترددًا قليلًا، لاحظ (سولي) ذلك، فقال لي: «ما بك؟».

- «لا أريد أن أمضي قدمًا».

عدّل (سولي) من غطاء رأسه ليخفيه أكثر، كانت عربة (هارول) الخاصة قد حملتنا إلى الميناء، وبينما يسير معي (سولي) بتؤدة لأول مرة منذ عشر سنوات على الممر الخشبي بين السفن الراسية كان يتلفت حوله محاذرًا أن يتعرف عليه أحد.

قال لي بصوته الرخيم المتحشرج قليلًا الذي ما إن تسمعه حتى تشعر بالألفة والراحة: «هل تخاف السجن؟».

رددت سريعًا: «لا». ثم أردفت: «أخاف أن أخذل صديقي». ثم بصوت خفيض قلت وكأنما أخاطب نفسي: «يكفيني ما ارتكبت من ذلك بالفعل».

أمسك (سولي) بيدي وفي يده الأخرى عصاه يتوكأ عليها، ونظر في عينيّ وقال: «إذا أردتَ أن ترجع في كلمتك، فقط قل الكلمة وسأرحل، وأعدك أنك لن تسمع مني أو من (هارول) ثانية». ثم تابع: «ولكني أعلم أنك خير من يفهمني في هذا. كلانا متشابهان».

قلت وأنا أنقّل بصري بين السفينة التي تنتظرنا وبين رصيف الميناء: «ماذا تقصد أننا متشابهان؟».

- «كلانا يبحث عن هدية اليقين».

نظرت إلى الأرض ولم أعلق.

رفع (سولي) رأسي بأصبعه ونظر في عينيّ بثبات وقال: «أليس هذا هو الترياق الذي تتوق إلى تذوقه أيها الطبيب المريض؟ ألا تتمنى أكثر من أي شيء أن تتمكن من الإيمان مجددًا... بأي شيء؟!».

صمتُّ قليلًا، ثم كثيرًا، ثم فقدت شغفي بالكلام، وبدون كلمة أخرى أخذت بيد (سولي) وتابعت.

على ظهر السفينة العملاقة كان (تومان) يرمقني قادمًا نحوه وبجانبي ضيفه الذي لم يدعه، وقد بدت على وجهه علامات الحيرة. ساعدني فريق البحارة أنا و(سولي) للصعود على متن السفينة. كانت سفينة صيد كبيرة، غير أن معدات الصيد كانت مُكوّمة على الجانب، وفي المنتصف كانت كابينة القيادة وغرف الإقامة، وفي المؤخرة مساحة واسعة مغطاة كان رجال (تومان) قد استخدموها لرص أجهزة القياس الخاصة بهم.

ما إن استقررنا على ظهر السفينة حتى عانقني (تومان)، وبينما كان يحتضنني همس في أذني: «من هذا الذي معك؟».

قلت له بصوت عالٍ وكأني أعرّف الجميع وأنا أشير إلى (سولي): «السيد (إيزرا)، بحّار سابق».

صافحه (تومان) بدماثة، ثم استدار لي وقال لي همسًا ومن بين أسنانه: «ولماذا نحتاج إلى بحار آخر؟ وعجوز أيضًا!».

أجبته همسًا: «ثق بي، هذا الرجل يعرف الكثير عن الحافة، سيكون خير عون لك في رحلتك». ثم قلت له بصدق: «صدقني هو يعرف عنها ما لا يعرفه أحد، سوف تتأكد بنفسك لاحقًا».

كان (سولي) صامتًا تمامًا يصوب عينيه على (تومان) بشكل أثار ريبة الجميع، وقد اتسعت عيناه وبدا في حال غير طبيعية، ثم سأل (تومان) فجأة: «هل تقابلنا من قبل؟».

هز (تومان) رأسه بهدوء ولم يعلق.

بدا (سولي) مصرًا بشكل أثار تعجبي، لم يكن من المفترض أن يجذب الأنظار إليه بهذا الشكل! وقال: «هل أنت متأكد؟ تبدو.. آآ. إن صوتك يبدو مألوفًا أيضًا!».

قال (تومان) بابتسامة ساخرة: «لا بد أن الرجل الذي أخطأتني به كان شديد الجمال».

كان الارتباك الذي ساد السفينة بقدوم (سولي) يصيبني بالتوتر، شعرتُ بالخجل من (تومان) وتحاشيت نظراته بينما كان هو يتناقش مع (سيرا) بصوت خفيض.

اقتربت امرأة في منتصف العمر لم أرها من قبل، وهي تعقص شعرها بخفة باستخدام عود من أعواد النول، كانت

تبتسم وتنقل نظرها بيني وبين (سولي)، وحيتنا بكياسة وكأننا في بيتها، ثم نظرت إلى (تومان) في انتصار وتشفٍّ وقالت: «نحن نرحب بكل أصدقاء السيد (تومان) الشخصيين معنا على ظهر السفينة». ثم أشارت إلى قائد السفينة الذي كان صامتًا يراقب طوال الوقت، وقالت: «هيا بنا؟».

سولي

لم نكن في موضع يسمح بعاصفة! كنا في آخر الحدود الآمنة للمحيط الأكبر، وقد بدأ البحارة يتساءلون إن كان نقل لآلئ الشين يستحق المخاطرة بحياتهم، وبدأت ملامح حركة تمرد تلوح في عيونهم، غير أني أظن أن القبطان قد تورط، وعند هذا الحد كان خطر المواصلة إلى الميناء الجليدي لا يزيد عن خطر محاولة الرجوع إلى جزيرة إلي.

في السماء فوقنا كانت ألوان بديعة، ربما لو لم تكن هناك عاصفة لاصطف الجميع على ظهورهم على سطح السفينة محدقين فيها، أضواء شفق مميزة لطالما سمعنا عنها تظهر عند حافة العالم، وكأنها طريقة ملائمة لتوديعه على عتبات الجمال.

من بعيد بدت الحافة الخضراء المشعة بلونها المميز وكأنها تنذرنا بخطر الموت ذاته. فلما بدأت العاصفة في الاقتراب أعلن القبطان حالة التأهب القصوى، لم يكن هدفنا الآن ألا تغرق السفينة فحسب، يجب أيضًا ألا نسمح للعاصفة بجرنا إلى الشمال أكثر، الحافة كانت على بعد عشرات الفراسخ فحسب! ولم تكن سفينتنا مزودة بأي جدافات للتثبيت.

كانت الأمطار تتساقط بغزارة والرياح تكاد تطير بأجسادنا، صقيع البرد ينخر في العظام برغم الصيف وشعرنا جميعًا بصقيع الموت يقترب.

في البدء أعطى القبطان أمرًا بخفض جميع الأشرعة، بدأ البحارة بتدوير بكرة الصواري بالتناوب، ومن آن لآخر تأتي موجة عالية لتغرقنا جميعًا، ثم أتت (أفيري) بفكرة أخرى، أمرت بترك الأشرعة الأربعة المربعة لأحد الصواري الثلاثة مفرودة ولكن موجهة للجهة المضادة. كانت فكرتها أن نستفيد من الرياح المتواجهة المتضادة للعاصفة للرجوع بالسفينة قليلًا إلى الجنوب، كان الخطر يقضي بمراقبة الدفة. وسط كل هذه الرياح والأمطار والسماء المغيمة من الصعب معرفة الاتجاه الذي نتحرك إليه. بعد عدة مجادلات بين (أفيري) وقبطانها بدا واضحًا أننا نخاطر إما بالحركة العشوائية في عرض المحيط أو في تحديد اتجاه حركتنا والأمل بعد ذلك ألا تغير الرياح من هذا الاتجاه!

كنت أحاول بذل الجهد للمساعدة بأي شيء، وسط صراخ البحارة الأكبر شأنًا، كنا نحن نتسلق الصواري لخفض الأشرعة بأنفسنا بشكل يدوي أسرع من خفضها ببدالات البكرة. بعض العمال والبحارة كانوا يستخدمون الدلاء لإفراغ المياه المتكومة على سطح السفينة.

كانت الأمواج تزداد قوة مع الوقت، وصارت السفينة تتأرجح بعنف إلى الأمام والخلف، وفي حين كنا ننخفض بأحد الأمواج كنا نرى الموجة التالية وقد ارتفعت أمامنا كجبل شاهق يوشك أن ينقض علينا، أفرغ عدة رجال بطونهم من الحركة العنيفة للأمواج، وكل بضعة دقائق نسمع أصوات توحي بسقوط أحدهم في المياه! كم منّا ما زال على ظهر السفنية وكم منا في قاع المحيط الآن؟ لا وقت لمحاولة اكتشاف ذلك.

حاولت الاقتراب من (أفيري) وصرخت فيها: «يجب أن نخفض الأشرعة، الاتجاه لا يهم الآن، نحن سنغرق».

سمعتني بالكاد وهي تحاول أن تثبت نفسها وتتشبث بأحد الصواري وصاحت وهي لا تراني من شعرها الذي جعلته الرياح يلتف حول عينيها: «أنت لا تفهم، لم يعد هناك من مجال لذلك، لقد أفلتت كل حبال الصواري»! نظرت في دهشة إلى البكرة التي يحاول البحارة السيطرة عليها بلا جدوى، ومن فوقي كانت بعض الأشرعة قد طارت والبعض الآخر قد تم إرساله ليساعد الرياح على العصف بنا أكثر.

لم يعد هناك من شك. نحن سوف نغرق.

أشرت لها إلى بكرة الحبل الرئيسة أعلى أحد الصاري وقلت لها: «يمكننا السيطرة عليه من هناك». هزت رأسها بعنف وقالت: «لا، هذا خطر جدًّا، لا يمكن الوصول إليه».

أمسكت الصاري وبدأت في التسلق إليه، أمسكت (أفيري) بملابسي بقوة وقالت: «لا، أرجوك لا تفعل». نظرت إليها صامتًا، ثم بدأت في التسلق إلى هناك.

جاءت موجة عنيفة أخرى ففقدت توازني ولكني التففت حول الصاري بقوة في اللحظة الأخيرة مما جرح يدي، لما هدأت الموجة أكملت تسلقي حتى وصلت إلى البكرة، أمسكت بالحبل الرباعي المجدول الغليظ، لم أستطع ربطه بدون تفكيكه إلى حباله الأربعة، ومن الأسفل كان يصيح بي القبطان بتعليماته: «ربطة وتدية مغلقة يا (سولي)». لم أكن أعلم

كيف أقوم بالربطة التي يحكي عنها، أخذت ألفه حول الصاري وأعقده عدة مرات.

وبينما أنا منهمك في العمل لمحت سوطًا من الضوء بجانبي، رفعت بصري فوجدت الصاري الثالث البعيد وهو ينهار وقد أصابته صاعقة للتوّ قصمته من منتصفه! وبينما نسمع فرقعة صوت الرعد كان الصاري يهوي تجاهي!

سمعت صرخات تنبهني بالأسفل ولكنها كانت متأخرة، كانت إحدى لفائف الأشرعة الثقيلة تتجه مباشرة إلى وجهي لتقذفني في الهواء، وبينما أطير في الهواء في اتجاه الماء كان آخر ما أراه وجه (أفيري) الصارخ في جزع وهي تجري تجاهي في محاولة يائسة لإنقاذي.

أغلقت عيني ورأيت وجه (ناجيلي) أمامي في سواد مجال بصري السرمدي، ثم اصطدمت بالماء بعنف.

(ناجيلي)، هل حان موعد اللقاء أخيرًا؟!

تومان

لم أتنفس الصعداء في ذلك اليوم إلا بعد أن صارت السفينة في عرض البحر، اختفت (كالينا) حينها أخيرًا إلى غرفتها وصرنا ننعم ببعض السلام والراحة من نبرات صوتها وهي تلقي التعليمات هنا وهناك، كان (ميرون) يحدق في البحر كئيبًا كعادته متكئًا على السور. بينما كانت (سيرا) مُقحَمة في محادثة أحادية الجانب مع (ليفاي) الثرثار العجوز عند مؤخرة السفينة، تأملتُها قليلًا، كانت تبتسم له بخجل، ولكني كنت أنا أعلم أية عذابات تخفيها في داخلها وراء هذا القناع الرقيق على شفتيها.

تجاوزت كل هؤلاء واتجهت مباشرة إلى (إيزرا) الذي كان يشرب (المارين) متربعًا عند مقدمة السفينة يتحدث مع (هوسيرل)، وأيًّا ما كان يخبره به (إيزرا) فلا بد أنه مُسلٍّ حتى يسترعي اهتمام (هوسيرل) الذي لا يهوى إلا الأرقام والبيانات الصماء.

كان (إيزرا) هذا عجوزًا ولكنه ليس طاعنًا في السن، وقدرتُ أن عمره ما بين الستين والسبعين، ملامحه تشي بوجه كان وسيمًا قبل أن تجعّده السنون، ينسدل شعره الأبيض الحريري على كتفيه، عيناه الزرقاوان تتقدان بالكثير من الذكاء، لا يمكن أن تتجاهل ذلك الوهج الذي يشع منهما، وكأنه حين ينظر إليك يحدق إلى أبعد بكثير من سطح عينيك البارد.

بجانبه عصا مهترئة يتوكأ عليها وهو يسير، وبنظرة إلى قدميه عرفتُ لماذا كان يتوكأ، أحد أصابعه كان مبتورًا، بينما قد اسودّت قدمه اليمنى تمامًا من المرض، وأغرب ما بشأنه كانت ملابسه، كان يرتدي مجموعة من العباءات البيضاء المعقدة وكأنها شرائط ملتفة حول بعضها البعض، ليست ملابس (بحارة) على كل حال.

كانا يتحدثان حول أحد الجزر ويحكي (إيزرا) لـ (هوسيرل) ما بدا وكأنها مغامرات له هناك أو شيء كهذا. ثم لاحظ (إيزرا) اقترابي منهما وتحديقي البالغ فيه فتوقف عن الكلام ناظرًا إليّ بتلك النظرة شديدة الفضول، المرتاعة قليلًا، والتي قابلني بها أول مرة. قلت وأنا أتكئ على أحد الصواري: «لو كنت مكانك لما اخترت (هوسيرل)، حين يتعلق الأمر بالسمر فهو أقرب لشراع العود ذاك».

نظر (إيزرا) بهدوء إلى حيث أشير، ثم ابتسم وقال: «هذا الشراع القلمي، شراع العود هناك، ولو كنت مكانك لما اتكأت بهذه القوة على هذا الصاري فعادةً ما يكون ضعيفًا، هو مخصص للأعلام فقط».

حاولت أن أخفي ابتسامتي بينما تابع هو: «هل هذه أفضل فكرة خطرت لك كي تختبر صدق ادعائي بأني بحار؟!».

- «في الحقيقة نعم، ودفاعًا عن نفسي دعني أؤكد لك أني لم أفكر في الأمر كثيرًا، وإلا كنت سأخرج بفكرة أفضل من هذه بالتأكيد».

- «هل أثير ريبتك إلى هذا الحد».

- «لا، أنا لم أقل ذلك، تبدو رجلًا طيبًا».

ثم استدركت: «في الحقيقة، أنت بالفعل تثير ريبتي إلى هذا الحد. أنت رجل عجوز صامت طوال الوقت ظهر فجأة على سفينتي المتجهة إلى أخطر مكان في المحيط الأكبر، آه، ونسيت شيئًا. أنت تعاملني معاملة خاصة! في كل مرة أتحرك فيها أجدك تحدق في باهتمام وكأنك تبحث في وجهي عن أسرار الدنيا، أنا بالذات دونًا عن بقية راكبي السفينة العشرين».

استمع ولم يعلق، فأضفتُ أنا: « كل ذلك بدون أن تقدم تفسيرًا يصلح كهدف لك من كل هذا العناء».

- «مساعدتي لك ليست هدفًا كافيًا؟».

ضحكت هازئًا ثم جلست بجانب (هوسيرل) مواجهًا البحار العجوز وقلت له: «لي من العمر ستة وثلاثون عامًا، لم يسبق لي أن رأيت من يعمل أي شيء خارج دائرة اهتمام ذاته الشخصية. لذلك، نعم. مساعدتك لي ليست هدفًا كافيًا».

- «وماذا لو كنتَ مخطئًا؟».

قلت بسرعة: «لم أعتد على الخطأ».

- «لا يوجد أحد لا يخطئ».

- «ربما معك حق، ولكني عندما أخطئ فأنا أعلم ذلك، أقضي معظم وقتي في عملي، وعملي يدور كما تدور الساعة، حين أخطّ على الورق معادلاتي يمكنني أن أعيد الحسابات دائمًا وفقًا للقواعد المعروفة، لو كان هناك خطأ سوف يظهر».

- «وماذا عن تلك الأشياء غير الخاضعة للقواعد والمعادلات؟ ماذا عن الانطباعات والاعتقادات؟ المشاعر البشرية؟ أو الأفكار الجامحة الخارجة من عقل إنسان كان يتأمل في ظلمة الليل».

- «تبدو لي كل هذه الأشياء مجرد... ترهات!».

بدا مندهشًا ومستمتعًا برغم ذلك، سألني: «هل تعني أن كل الوجود خارج مكتبك الصغير في مجمع الأبحاث لا يستحق أن يسترعي اهتمامك؟».

- «بالطبع لا، لو كنت كذلك لما كنت هنا الآن على ظهر هذه السفينة، إن هدفي هو عكس ذلك، أن أفهم كل ذلك الوجود خارج مكتبي الصغير».

ثم تابعت ضاغطًا على كلماتي ناظرًا بحدة إلى عينيه: «ولكني سأصطحب قواعدي ومعادلاتي معي وأنا أفعل ذلك! أتدري؟ كل تلك الأشياء التي تتحدث عنها؟ العاطفة، القيمة، المبادئ أو الظنون، كل هذه الأشياء بالنسبة إليّ مجرد توابع للذكاء البشري! عَرَض جانبي غير مرغوب فيه لمنطقه وقدرته على التفكير».

ثم أردفتُ قبل أن يعلق: «ربما بعد الكثير من السنين ينجح البشر في التخلص من كل هذه الأمراض، حينها سوف نسود العالم عن حق دون كل هذه العطلة».

ابتسم وقد فهم على ما يبدو أننا لسنا على صفحة واحدة، وقال: «تبدو لي كِميتيًّا مخلصًا».

قلت بسرعة: «لا أبالي بالكِميت ولا بكاتبيه، لا أحب هؤلاء المنظّرين الجالسين بمؤخراتهم اليابسة على مقاعدهم الخشبية في مكاتبهم الفوقية يملون على الناس ما يجب عليهم أن يؤمنوا به. إن كان هناك شيء آخر في هذا العالم سوى المادة فسيكون هذا شيئًا مثيرًا وجميلًا للغاية، لم علينا أن نكمّم أفواه من يتكلمون عنه؟ سوف ننصب أدواتنا ونشرع في العمل. لحسن حظ الكِميتيين أننا لما فعلنا ذلك لم نجد أي دليل عليه. هكذا انتصر رجال الكِميت البائس، ليس لأنهم أذكى، بل صادف أنهم على حق».

صمت (إيزرا) وقطّب جبينه وكأني أعدت له ذكرى مؤلمة، أخذت أحدّق النظر إليه بلا كياسة على سبيل المعاملة بالمثل، تجاهل نظراتي، ثم سألني فجأة مشيرًا إلى أحد أجهزتي على يساره: «ما هذا؟».

نظرتُ إلى حيث يشير ثم قلت: «ميقات بحري. طورتُ بنفسي هذه الآلة».

ثم سألته وقد بدا عليه الاهتمام: «أنت بحار، كيف كانت أدوات ملاحتكم؟».

قال وهو يحاول التذكر: «كان لدى القبطان مِقراب ينظر به إلى القمر أو شيء كهذا».

قلت: «كان يقيس الزاوية القمرية، نعم. هذه كانت الطريقة القديمة. أحد علماء الجنوب اخترع هذا الميقات يمكننا به تحديد الوقت على السفينة بدقة لمعرفة خط الطول الذي نبحر به ونعرف مكاننا بدقة. ولكن لم يكن دقيقًا كفاية».

تدخل (هوسيرل) لأول مرة في الحديث موجهًا الكلام لـ (إيزرا): « كان الميقات البحري يعتمد على ثقل ثابت لا يتأرجح مع الثقالة أو حركة السفينة، ولكنه كان يتأثر بقوة الطرد، السيد (تومان) أضاف عجلة توازن سريعة التخبط يتحكم بها زنبرك حلزوني مُكافأ حراريًّا».

صفّر (إيزرا) بإعجاب، وقال: «وهل نجح ذلك؟».

أومأ (هوسيرل) برأسه، ثم قال: «ونال تكريمًا من الوكيل السابق بسببه».

نظر لي (إيزرا) بإعجاب مشوب بالفضول، وقال متحدثًا عني لـ (هوسيرل): «لا أظن أنه قد ناله تمامًا!»، ثم موجهًا حديثه لي: «لقد رفضتَ حضور المحفل العلمي وقتها اعتراضًا على الأوراق التي شارك بها أطباء مصنع (ليبنتس) إن لم تخنّي الذاكرة».

سرت رجفة بداخلي برغمي، كم يعرف هذا الرجل عني؟ ما قصته بالضبط؟! هل سألني عن الميقات من البداية فقط حتى يسألني عن ذلك؟!

نظر لي (هوسيرل) ضاحكًا بينما أجبتُ أنا بجدية: «لا، لم تخنك».

قال (إيزرا): «لماذا تعترض على الأوراق العلمية التي تخرج من مصنع (ليبنتس) إن كان الحديث عن الرحمة بالضعيف، واحترام شعور الألم، والحق في حياة كريمة، وكل هذه الأمور الإنسانية بالنسبة إليك ترهات. أو ماذا كنتَ تدعوها؟ (عرض جانبي غير مرغوب فيه)، (توابع للذكاء البشري)، و...(أمراض)!».

أجبته سريعًا ناظرًا إليه بتحدٍّ: «لأنني لم أدّعِ قط أني قد تخلصت من أمراضي الخاصة!».

بدا وقد أدهشه ردي، ثم صمت.

نظرت إلى (هوسيرل) الذي ظل صامتًا بنظرة لم يفهمها، ثم سألت (إيزرا) مصرًّا على عدم نسيان ما بدأنا الكلام لأجله: «أخبرني إذن لماذا جئتَ معنا، ومن أين عرفتَ (ميرون)».

التفت لي وقد كان ينظر إلى البحر البعيد، ثم قال: «حسنًا سوف أخبرك بكل شيء، ولكن شريطة أن تجيب عن سؤال واحد، أعدك أنك لو أجبتني بصدق فسوف أجيبك بصدق، وإن كذبتَ سأكذب».

- «وما هو؟».

مال تجاهي وأمسك بقلادتي الحمراء من أسفل قميصي، اقشعرّ جسدي قليلًا، ثم قال: «لماذا ترتدي هذه القلادة؟».

أخذتها من يده بسرعة وأدخلتها أسفل قميصي مجددًا، وقلت: «مجرد هدية من شخص عزيز».

ابتسم في خبث وقال: «حسنًا إذن».

شعرتُ بعدم ارتياح عام ورغبة في إنهاء هذه المحادثة، قلتُ: «والآن دورك، لماذا أنت هنا؟».

قال وهو يقوم من مقعده ويتمطأ قليلًا: «(ميرون) وعدني بمقدار من المال إن أنا أعنتك في رحلتك، وقد سمع عني من صديق مشترك اسمه (دال)».

ثم نظر لي بابتسامة مريبة قائلًا: «أرجو المعذرة، رجل عجوز يحتاج إلى النوم قليلًا».

والتفت مرتحلًا ومضى إلى غرفته.

أتبعته أنا و(هوسيرل) بنظراتنا حتى وصل إلى كابينته، ثم التفت لي (هوسيرل) وقال: «وراء هذا الرجل سر».

قلت وأنا مطرق إلى الأرض أفكر: «سر واحد؟!».

جيرالد

أمرتُ الحارس أن يفتح لي الزنزانة التي كانت ترقد فيها (إيليت). بدا مترددًا ولكنه لم يجرؤ على الرفض، دخلت إلى هناك، كانت الزنزانة عطنة، وبداخلها كانت تنام (إيليت) وقد تغطت بألحفة متسخة أحضروها لها، وبجانبها أطباق الطعام وقد صارت خاوية، سرني ذلك، كانت في البداية ترفض أن تأكل، وقد بدا الآن أنها قد اعتادت على حياة الأسيرة.

استيقظت بصوت البوابة الحديدية إذ فتحها الحارس، اعتدلت في جلستها وغطت جسدها بالدثار، ونظرت إلى وجهي في توجس، ثم إلى خنجري المتدلي من سروالي في رعب.

قلت لها وأنا أزيح الخنجر للوراء: «لا... لا تخافي، لن أوذيكِ».

ثم جلست على مقعد خشبي كان هناك، ووجدت صعوبة في بدء الكلام. نظرتُ إليها وفكرت كم هي الفتاة محظوظة أنها غير جميلة! يوجد متشيئون صالحون هنا في الثكنات، ولكن المرتزقة أكثر، وهؤلاء لن يعبؤوا بتعاليم (سولي) الروحية ولا بدماثة أخلاق (كروماز)!

قالت (إيليت) وقد طال الصمت: «سأموت في النهاية، أليس كذلك؟».

أجبتُ صادقًا: «لا أعلم».

قالت وهي تنظر إلى الحارس: «حاول الفتى الآخر الذي كان معك في تلك الليلة أن يزورني، ولكن الحارس منعه». ثم قالت في دلال: «لا بد أنك أعلى شأنًا منه».

نظرتُ لها صامتًا فأردفت: «يقولون أنك الرجل الثاني هنا بعد (كروماز)».

- «ثم؟».

- «ولكنك لا تبدو مثله، لا أظن أنك قاتل».

ابتسمت في سخرية، وأخرجتُ لها مديتي الملوثة بالدماء، وقلت لها: «ربما صاحب هذه الدماء سيخالفك الرأي».

اتسعت عيناها في رعب، ثم صمتت. أدخلتُ خنجري في غمده، ثم تناولتُ كسرة خبز جافة من بقايا طعامها وأخذت ألوكها ببطء محدقًا في أرض الغرفة.

ابتلعت ريقها وكأنها تخاف من أن تتكلم، ثم قالت بتردد: «سمعتُ من الحراس هنا أنكم دمرتم مصنع (ليبنتس)».

شعرت بحزن وأنا أتذكر (كواين)، وقلت: «قد فعلنا».

تابعت هي: «هذا المصنع قريب من بيتي، هذا هو ما كنتم تقومون به في تلك الليلة لما رأيتكم، كنتم تراقبونه، أليس كذلك؟».

لم أعلق.

قالت وهي تتوسل: «يمكنكم تحريري إذن، أرجوكم، كنتم تخافون مني أن أتكلم فأفسد عليكم خططكم، الآن قد فعلتم ما أردتم، اتركوني أعود لأسرتي».

أشحتُ بنظري بعيدًا، وهممتُ بالانصراف، صاحت فيّ: «لماذا أتيتَ إذن؟».

التفتُّ لها في ألم، (إيليت) أيتها الحمقاء لقد كففتُ عن سؤال (لماذا) منذ زمن. لا يوجد سبب لفعلي أي شيء، لا يوجد سبب لحدوث أي شيء، الأمور تحدث فحسب كما قال (كروماز) فعلًا. نحن مجرد قطع من الحجارة على رقعة لعب، لا أعلم من الذي يحركنا، ربما تكون رغباتنا الدفينة ثانية، ربما هو البحث المحموم، ربما العطش في عالم لا يوجد فيه ماء كما قال (كواين)! تريدين أن تعلمي لماذا أتيت هنا؟ ربما لأنني أشفق عليكِ، ربما أريد تحريرك إراحةً لضميري، ربما أريد قتلك خلاصًا من ضميري للأبد، ربما الأمور أبسط من ذلك وتحركني شهواتي فحسب! لن أعرف أبدًا.

طال الصمت، فزاد ذلك من أملها، كررت توسلها باكية: «أرجوك، لن أخبر أحدًا عنكم. أريد العودة إلى طفلي فحسب».

ظللتُ أنظر لها صامتًا. قالت وهي تنظر إليّ وقد يئست: «أرجوك».

تلك النظرة! نظرة من خاب أمله. تلك النظرة مجددًا! ليس ثانيةً! تسارعت أنفاسي وأشحتُ بنظري بعيدًا، ثم أشرتُ للحارس أن يفتح البوابة، وكانت هي تبكي من خلفي، تباطأ الحارس قليلًا، فصرختُ فيه بعصبية: «هيا، سريعًا!».

وخرجتُ ولم ألتفت إليها، هاربًا من نظرة أبي القديمة.

كالينا

[.... أعترف بأن كل ذلك خطئي، لا أبرئ نفسي مما حدث، كنتُ طائشة لا أفكر، ربما أنتِ الآن ذات الثمانية أعوام أعقل مني، كل الناس كانت أعقل مني، ولكني تغيرت، أنتِ من غيرتِني، لما كنت أزورك، وفي كل مرة آخذكِ بين ذراعيّ كنت أَشفى من مرض جديد، لا يمكنني أن أعتذر كفاية عن تركي لكِ، ولكني أؤكد لكِ أني ندمتُ على ذلك طوال السنين الماضية، وكل ذلك لن يكون شيئًا مقابل ندمي لو أصررتِ على رفضي، أنتِ يا (ماندا) عائلتي الوحيدة، لن تجدي من يحبك قدري، ربما لا أستحق أن أكون أمك، ولكنك تستحقين أن تكوني بجوار من يحبك إلى هذا الحد...].

توقفتُ ونظرتُ إلى ما كتبته، كالينا، لو كان أنتِ من تلقَّى هذه الرسالة أكنتِ تسامحين نفسك؟!

مزقتُ الورقة وألقيتها في السلة بجانب كومة الورقات الأخرى، وتناولت ورقة جديدة من الدفتر الذي قاربت أوراقه على النفاد.

[.... (ماندا) الحبيبة، كيف حالك؟ ما قالته لك جدتك كـ....].

تبًّا! تلوثت الورقة بدموعي. مزقتها وألقيتها في السلة، تناولتُ ورقة أخرى، ثم سمعت طرقة على الباب. تجاهلتُ الطارق، ولكنه بدا مصرًّا.

نظرتُ إلى المرآة وعدلت شعري ومسحت وجهي بمنشفة سريعًا، ثم فتحت الباب في ضيق. كانت (سيرا)!

- «هل حدثت مشكلة؟».

- «لا. افتقدتكِ في العشاء فقط، أحببت أن أطمئن عليكِ».

رددتُ بابتسامة ودود: «أنا بخير، شكرًا لكِ، مرهقة قليلًا فحسب».

كانت تحاول أن تنظر داخل غرفتي ولكن جسدي كان يسد الباب، وبدت مترددة، ثم قالت: «حسنًا، لو احتجتِ إلى شيء فأنا... عفوًا سيدة (كالينا)، هل كنتِ تبكين؟!».

شعرتُ بالإحراج، كيف تجرؤ على التدخل بهذا الشكل؟ قلت بسرعة، وأنا أقاوم الانكسار: «لا، هو مجرد إرهاق فحسب».

- «سيدة (كالينا) أنتِ تبكين الآن. هل كل شيء على ما يرام؟».

- «...»

لا أعرف ما حدث في اللحظات التالية ولكني وجدت نفسي محاطة بذراعيها وقد احتضنتني ثم أدخلتني وأدخلت نفسها إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفنا!

كنت أشعر بالضيق والغرابة، أنا لا أنكسر، ليس أمام الغرباء، ليس أمام أحد، حاولتُ التوقف عن البكاء، (كالينا) كفي عن الحماقة أنت تجعلين من نفسك أضحوكة! حاولت وحاولت ولكني لم أستطع، كان جزء بداخلي يستمتع بضعفي ويمعن في إذلالي، كانت تلك المرأة التي تكرهني تصيح بي من الداخل: هذه حقيقتك، مجرد مسكينة أخرى كانت تود ألا تكون كذلك!

أبعدت (سيرا) عني برفق ثم جلست على طرف سريري، بينما جلست هي على المقعد الخشبي المواجه للمرآة. جففتُ دموعي وقد تحكمت فيها أخيرًا، وحاولت أن أتحاشى النظر إلى وجهها، كانت تلبس حذاءً مهترئًا مصنوعًا من جلد رخيص يشي بأنها ليست على هذا القدر من الثراء، فقيرة ومسكينة هذه الفتاة في كل ما يخصها، غير أن وجهها مريح، غير قبيحة، غير جميلة، كانت فتاة صغيرة ولكن وجهها يشي بسن أكبر من حقيقته، وقدرتُ من حركة أصابع يديها المتوترة أنها تعاني من أزمة ثقة ذاتية عميقة. أيتها الـ (سيرا) الحمقاء، أنا التي يفترض أن أفرك أصابعي وأضم أقدامي إلى مقعدي وليس أنتِ، أنا الأضحوكة الآن!

قلتُ وقد استجمعتُ كلماتي أخيرًا: «هل يمكننا أن نتجاهل ونتناسى ما حدث توًّا؟».

قالت بحنان بدا لي صادقًا: «لم يحدث شيء ننساه، من الجيد أن تبكي الفتاة من آن لآخر، لا تحمّلي ذاتك أكثر مما

تطيق، لا تكتمي شيئًا بداخلك».

ثم تابعت بضحكة لطيفة ساخرة: «صدقيني أنا خير من يعلم ذلك، لا يوجد شيء بداخلنا يبقى هناك. سوف يخرج دائمًا بشكل أو بآخر، إن لم يكن بالبكاء فبالكثير من الأفعال الحمقاء!».

لم أفهم ما تعنيه ولكني قدرت أنها تقتبس من تجربة سابقة لها.

- «لماذا كنتِ تبكين إذن؟ ما الشأن؟».

نظرتُ إلى الأرض ولم أرد، وبداخلي كنت أضحك، هل تظن أنني واحدة من البلهاوات اللاتي يثرثرن في كل مكان بكل شيء مقدس بداخلها؟! لقد تعرفتُ عليك توًّا يا (سيرا)، هل من المفترض أن أخبركِ أية امرأة حقيرة هي أنا؟!

تراءت لي (ماندا) فشعرت برغبة في البكاء مرة أخرى، تماسكت. حين كانت رضيعة لم أكن أفكر إلا في شيء واحد: هل صرتُ مجرد جارية؟ هل أنا خادمة أخرى؟ هل انتهت حياتي ومداها عند حدود خدمات زوجي وطعامه ونظافة بيته والاعتناء بالصغيرة؟ ومن أجل ماذا؟ أن تكبر لتصير هي الأخرى مجرد خادمة، تنتظر عودة زوجها كل مساء ليأكل وينام متعبًا بينما تنجب هي أطفالًا آخرين؟ شعرت بالحسرة وأنا أتذكر سنين الدراسة حين كنت أقول لنفسي: ذات يوم ستصبحين غنية، مشهورة، رفيعة الشأن، مطلوبة من الجميع، مرهوبة الجانب.

كنتُ أمنّي نفسي منذ أن كنت تلميذة صغيرة بكل الأشياء التي نلتها الآن. ونظرتُ إلى سلة المهملات المملوءة بالأوراق المكوّمة وإلى منشفتي التي يمكن عصرها من كثرة ما استقبلت من دموع البكاء، وقلتُ لنفسي، مخاطبة (كالينا) الصغيرة صاحبة الأمنيات: هل هذا يا ترى هو ما كان في بالك حين تمنيتِ يا صغيرة؟!

والآن صار رضا (ماندا) عني هو كل ما أرغب، هل يمكنني شراؤه بكل أموالي؟ هل يقبل (بيدرا) أن يسترجعني؟ هل تقبل (ماندا) أن أعود لها خادمة؟ وهل لو قبلوا كل ذلك أقبل أنا؟ هل سأرضى بالتضحية بكل شيء من أجلها؟ أم أن صغيرتي ما زالت أقل من أن أهبها حياتي؟! أم أنني لم أتغير عن تلك المرأة التي رحلت منذ سنين؟

تبًّا لكِ يا (كالينا)! تبًّا لكِ ماذا تريدين؟!

قالت (سيرا) وقد بدت يائسة من أن أبوح لها بشيء: «ربما من الأفضل إذن أن أدعكِ ترتاحين». هززتُ رأسي موافقة.

قامت وقمت معها إلى الباب أودعها، شكرتها بلطف على مواساتها واهتمامها، وددتُ لو أعتذر عن جفائي ولكني لا أجيد الاعتذار. وعند الرحيل بدت كما لو كانت تذكرت شيئًا، فالتفتت لي وقالت: «عذرًا، هناك أمر آخر، هل تعرفين أين هو السيد (تومان)؟».

تعجبتُ وقلت ببساطة: «لا».

- «افتقدته في العشاء أيضًا، لا أدري إن...».

- «أوه، حسنًا، لقد فهمت».

- «فهمتِ ماذا؟».

- «تغيبتُ أنا و(تومان) عن العشاء، خيالك المثقل بالأوهام صور لكِ لسبب ما أننا عاشقان سرًّا، فافترضتِ أنه هنا في غرفتي، لذلك جئتِ تبحثين عنه».

- «لا سيدة (كالين...)».

- «تصبحين على خير يا (سيرا)».

وصفقتُ الباب في وجهها.

ميرون

كان (تومان) يتجنبني بشكل ملحوظ، لا أعلم هل ذلك لإحضاري (سولي) معي وإحراجه أمام تلك المرأة المتسلطة التي عرفت أنها مندوبة ممول البعثة، أم أنه مشغول فحسب في النقاشات العلمية مع أعضاء فريقه، ومباحثات طريق الإبحار مع قائد السفينة، فلا يتسع الوقت للحديث معي، الشخص الوحيد الذي لا فائدة له هنا. ونظرتُ إلى (سولي) الذي كان يجلس أمام البحر وقد بدا مستمتعًا برذاذ رياحه، حسنًا أنا أحد الشخصين الوحيدين اللذين لا فائدة لهما هنا!

اقتربتُ منه واستأذنت في الجلوس بجانبه، قابلني بابتسامة كعادته وأفسح لي المجلس. لم تكن السفينة سفينة ركاب ضخمة، ولكنها كانت مريحة بحق وكبيرة نوعًا، على الأقل أكبر بكثير مما هو متوقع من سفينة صيد. كان الوقت صباحًا، ولم يستيقظ بعد جميع الناس، ومن استيقظوا منهم ما زالوا في غرفهم اتقاءً لحر الشمس.

- «أرى أنك تعرفت على (تومان)».

ضحك بخفة وقال: «نعم، صديقك ليس سهلًا».

- «سوف أعطيك فكرة، (تومان) يعرفه الجميع، وطوال إقامته في مدينة (أورارا)، لم يتخذ إلا صديقين فقط! أنا أحدهما، وبرغم ذلك فكل ما أعرفه عنه يمكن كتابته في ورقتين. صدقني، لن يهدأ (تومان) حتى يطمئن لك».

هز رأسه موافقًا وظل على صمته.

سألته: «لماذا أصررتَ على أنه مألوف لك إلى هذا الحد؟ ألم تفترض أنك لربما رأيتَه في أحد سكك المدينة فحسب؟!».

هز رأسه رافضًا، وقال: «مرت عشر سنوات منذ آخر مرة كنت أسير فيها في سكك المدينة يا بني، على حد علمي لم يكن (تومان) قد وصل إلى مدينتنا حينها».

ثم أضاف: «ليس وجهًا مألوفًا فحسب، وإنما...».

شرد قليلًا وقال: «وكأنه نقش داخل وجداني، لا أعلم لماذا!».

لم أرد، ودخلنا في صمت طويل.

قطعتُ الصمت أنا بذكر السؤال الذي جلست لأجله: «كيف وصلتم إليّ؟».

- «(هارول) هو من وصل إليك، أنا لم أكن أعرفك».

- «(هارول) لم أره من قبل، من أين يعرفني».

ابتسم في حنين واضح وقال: «(هارول) يعرف جميع المتشيئين، حتى السابقين منهم، يمكنه حتى أن يميز المتشيئين من المرتزقة من بين جنود (كروماز). ولعل هذا هو ما منعه من الإبلاغ عن مكان الثكنات طوال هذه المدة. كان يخاف على إخوانه. رجل طيب هو (هارول)، أخ طيب هو».

تنهّدتُ بصبر وقلت له: «وكيف عرف (هارول) مكان بيتي؟».

- «ذكر رجلًا يُدعى (دال)».

امتقع وجهي، هذا هو ما كنت أخاف منه، بدأت في الدفاع عن نفسي: «في حالة كنت تتساءل أنا....».

- «أعرف يا (ميرون) أنك لم تؤذِ أحدًا، على عكس (دال) لا أظن أنه كانت لك علاقة سابقة بـ (كروماز)».

ثم نظر إليّ ووضع يده على شعر رأسي يزيحه عن وجهي، وقال: «أنا سعيد أنك لم تقفز في صباح ذلك اليوم، سعيد أنك استمعت لصوت عقلك».

صمت قليلًا وبدا مترددًا ثم سألني: «هل كنت تعرف الآخرين؟».

- «أي آخرين؟».

- «هؤلاء الذين قتلوا أنفسهم من فوق المنارة».

نظرتُ إلى قدمي في حزن، وقلتُ: «لم أعرف منهم إلا (نيرال)، فتاة جميلة، لم تتم بعد العشرين عامًا، كانت مشهورة في المدينة بلون شعرها الفضي المميز، عرفتها عند (دال)، كانت عابسة طوال الوقت وكتومة، غير أن الندبة في وجهها والثرثرات المتناقلة التي تتبعها في كل مكان لم يتركوا شيئًا يحتاج إلى الكلام، الكل كان يعرف حكايتها».

بدا حزينًا وسألني باهتمام: «وما حكايتها؟».

قلت باقتضاب: «شابة جميلة، شارع مظلم، شاب سكير، زقاق، عراك، مدية.... هل أحتاج إلى تفصيل أكبر؟».

قطّب جبينه في أسى، صمتنا بعدها قليلًا ثم سألني: «ما الذي يقوله لكم (دال)؟ ما الذي أخبر به هؤلاء المساكين كي يفعلوا ذلك بأنفسهم؟ هل ادعى الوغد أني من علمه ذلك؟ هل استخدم كلماتي لإزهاق أرواحكم؟».

لاحظتُ صوته المتهدّج، فنظرتُ له متفاجئًا ووجدت دمعتين تساقطا من عينيه، مددت يدي وأمسكت بيد العجوز أربّت عليها، وقلت: «(سولي)، لقد كنت أبًا روحيًّا لنا جميعًا، كل الدماء التي سالت بعد ذلك لم تكن ذنبك، أنتَ أشرتَ لنا إلى الحقيقة، لم يكن أنت من صنعها».

لم أكن صادقًا تمامًا، بداخلي كنت أجد (سولي) مسؤولًا عن ذلك الجنون الذي أصاب الجمهورية بأكملها، مثله مثل (كروماز) وأشد، ولكني لم أجده مذنبًا، في رأيي فالجنون عرض جانبي للحقيقة! لا يمكن تجنبه، لا يمكن التنبؤ به.

هدأ (سولي) قليلًا ومسح دموعه بطرف عباءته بسرعة، وبدا وقد استعاد هدوءه أمام البحر مجددًا، وأمام أعيننا على مرمى البصر بدأت تبزغ رؤوس الخوالد. بأصواتها العذبة وقفزاتها المثيرة من الماء إلى الهواء ثم العودة، ملامح وجهها شديدة الشبه بالإنسان ولكن أقل جمالًا، وعضلات جسدها الرشيق منحوتة كعضلات الخيل، لها ذراعان قصيران، وينتهي جسدها بذيل طويل، ينظر إليها البعض فيرى أشباه بشر، وينظر إليها البعض فيرى سمكة كبيرة تحتاج إلى أن توضع على مائدة الطعام.

قلت له وقد تملكتني تلك النشوة الطفولية لمجاورة رجل مشهور كثر عنه القيل والقال: «هل صحيح ما يقولونه من أن الخوالد هن من أنقذنك من الغرق عند الحافة؟».

ضحك كثيرًا حتى سعل، ثم قال بعد برهة: «ربما!».

تعجبت جوابه، فأعدتُ: «ربما؟!».

التفت إليّ وقال في خجل: «صدقني أنا لا أذكر الكثير مما حدث عند الحافة! أذكر أني رأيت سمكة خليد في الماء بالفعل عند سقوطي من ظهر تلك السفينة يومها، ولكني فقدت الوعي بعد قليل لأجد نفسي على الشاطئ الذهبي».

ثم تنهد وقال: «ما حدث على الشاطئ الذهبي أمر آخر. هذا شيء لم أنسه قط!».

ثم صمت حتى طال الصمت بيننا فهممتُ بالانصراف، ولكني قلت قبل أن أقوم: «لم تسألني السؤال الوحيد الذي ظننتك تريد سؤالي إياه».

ابتسم ونظر لي قائلًا: «تقصد سبب عدم قفزك يومها؟».

- «نعم».

- «لا أحتاج إلى سؤالك، (دال) قد أخبرنا».

هززتُ رأسي وقد كنت متوقعًا ذلك، ثم قمت وأعطيته ظهري وبدأت في الانصراف بالفعل، ومن خلفي أتاني صوته هادئًا: «غير أني أعلم أنك كذبتَ على (دال) على كل حال!».

تسمرتُ مكاني لحظة، ثم تجاهلته ومضيت لحال سبيلي.

جيرالد

على مائدة الغداء قابلني (كاي)، جلس بجانبي ومد يده وأخذ نصف طعامي، لم أعترض، وقد كان يعلم ذلك، أخذ يلوك قطعة كبيرة من الدجاج في فمه، وبينما يضع في فمه حبة من حبات الـ (كيون) الضخمة قال: «هل سمعتَ ما حدث؟».

- «ماذا حدث؟».

- «لقد مات (إيزكل)!».

شعرت بغصة في حلقي وأنا أتذكر الفتى اليافع الساذج الذي كان يصحبني في مراقبة ليبنتس، والتعذيب الذي عذبه إياه (كروماز) حين كاد أن يجبره على قتل (إيليت). تذكرت عينيه الزرقاوين ووجهه الطفولي، لقد كان صغيرًا على الموت!

- «كيف؟».

- «أرسله (كروماز) للعملية الأخيرة، فرع الضبط في الضاحية القريبة، كان الانفجار قويًّا، يبدو أنهم استخدموا كمية أكبر من اللازم، قارورتين أظن، من مسافة قريبة ولمبنى صغير، لم يكن هذا صحيحًا. على كل حال لم ينجُ (إيزكل)، حاولوا إحضار جثته كي يُحرق بشكل ملائم».

ثم تناول بعض أوراق البايسلي، وقال بفم مملوء: «ولكنها كانت ممزقة إلى عدة أجزاء، كان جهدًا كبيرًا عليهم، أتفهم؟».

رمقته بنظرة غضب قائلًا: «(كاي)، أظهِر الاحترام!».

نظر لي مندهشًا وقال: «ماذا؟ أقسم أني حزين لأجله، أنا جائع فحسب» ثم أكمل طعامه.

قمت من المائدة وقد فقدت شهيتي، كان معظم رجال الثكنات يتناولون الغداء في غرفة الطعام، لم يكن (كروماز) معنا، هو يأكل وحيدًا دومًا في غرفته، في الطرقات كان بعض الرجال ينقلون الأمتعة، وكان هناك طبيب يسير بحقيبته مسرعًا بينما يقوده الحرس إلى غرفة من غرف الإقامة، يبدو أن عملية (إيزكل) خلفت بعض المصابين أيضًا.

كنت أسير على غير هدى، أتقافز على الحجارة المرصوصة غير الممهدة وأتساءل عن الموضع الصحيح لقفزتي التالية، هل يمكن للمرء أن يفقد وجهته إلى الدرجة التي يفقد فيها فعلًا وجهته؟! بعد أن دمرت (ليبنتس) وحققت هدفي الذي كان قد طال زمنه منذ سنين، صرت الآن أشعر بأني إناء فارغ. كان من المفترض أن أموت هناك في معركة تدميره، في ذات المكان الذي مات فيه أبي بسببه، ولكننا كنا أنجح من اللازم، لم يصب أحدنا بكبير أذى.

قادتني خطواتي إلى صالة الاجتماعات، تلك الحجرة مفتوحة الأجناب التي تتوسط الثكنات جميعًا، نجتمع مع (كروماز) وقادة العمليات هنا للتخطيط لخطواتنا التالية، كانت الصالة مفتوحة، ونظرت إلى مداخلها الثمانية لم يكن هناك أحد في طرقاتها، وعلى المنضدة التي تتوسط الصالة فُرِدَت خريطة كبيرة لمدينة (أورارا) عاصمة الجمهورية وأكبر مدنها، وعليها تتناثر دوائر حمراء على الأهداف التي تم تدميرها أو مهاجمتها. كانت على الخريطة سبعٌ وعشرون دائرة حمراء، هي نتاج نشاطاتنا في السنوات الثلاث الأخيرة. شاركتُ أنا في تسعة منها. لم يبق الكثير حتى يسقط الوكيل بحكومته.

كان (كروماز) يتبع سياسة المرونة، دائمًا هناك خطط بديلة، دائمًا يتوقع كل شيء من خصومه، دائمًا يرتجل! لم يكن يؤمن بالخطط المحكمة، والتنظيم المتقن، كان يعلم أن سرعان ما سيُكتَشَف مكان الثكنات الحالي كما اكتشفوه مرتين من قبل، وفي كل مرة يجمع رجاله ويهربون إلى مكان بناء الثكنات التالي... وهكذا. مع الوقت صار رجال الضبط يعلمون أنهم يُطارَدون ولا يُطارِدون. مع رجال يؤمنون أن كل الخواتيم تتشابه لم يكن هناك ما يمكن أن نخسره!

نظرتُ إلى الخريطة، إلى الدوائر الحمراء التي أعلم أنهم قد أعادوا بناء بعضها بالفعل، وعرفت الحقيقة، هذا الصراع لن ينتهي أبدًا!

سمعت أصوات همس من مكان قريب، تبعتها حتى وصلت إلى طرف الردهة المؤدية إلى جناح غرف الإقامة. على الأرض في بدايتها كان ينشغل رجلان بصندوق عاجي صغير جميل الشكل.

اقتربت منهما بحذر، وقلت وقد ظننتُ أنهما قد سرقاه من إحدى الغنائم: «ماذا تفعلان؟».

على عكس ما توقعت لم يرتبك أحد منهم لمرآي، بل تحمس أحدهما وقال: «انظر يا (جيرالد)، أخذتُ هذا الشيء اللعين الرائع من أحد المساجين حين كنا مع (كروماز) عند (سلار) في أبراج القلعة. انظر.. انظر إلى الكرات الذهبية بداخله!

عم يتحدث الأحمق؟ لماذا سوف يترك نقباء البرج أي سجين ليحتفظ بأي كريات ذهبية؟!

اقتربت أكثر من الصندوق العاجي الذي كان مفتوحًا وبداخله استقرت ثلاثة كريات في حجم عقلة الأصبع، تلمع بلون الذهب، ولها مظهر رطب رخو، وشعرت بالشعر ينتصب على مؤخرة عنقي.

صحتُ فيه وأنا أنتزع الصندوق من يده: «أيها الأحمق!! أيها الأحمق!».

ثم أفرغت الصندوق على الأرض ودستُ بحذائي على الكريات الثلاث أهشمها حتى صدرت صيحة ضعيفة أجفل منها الرجلان.

أمسكتُ بقميص صاحب الصندوق وقلت ثائرًا: «من أعطاك هذا الصندوق؟».

قال في ذعر وعدم فهم لما يجري: «قلت لك، أخذته من سجين هناك».

- «لقد أعدوا لنا فخًّا».

- «ماذا تقصد؟».

قلت وأنا أرسله: «لم تكن هذه كريات ذهبية، لقد كانت بيض طائر الكِركي الأحمر»!

ثم تركتهما وأخذت أجري ناحية أبراج المراقبة على المدخل الشمالي للثكنات. تعلمتُ عن هذا الطائر أثناء رحلتي إلى الجبل الغربي في قارة الجنوب قديمًا. طائر نادر ضخم لا يعيش إلا في غابات الكِرك، يضع بيضًا ذهبيًّا مثل هذا، ويبقى البيض شهورًا طويلة حتى تكبر الأفراخ بداخله، حينها تستطيع أنثاه أن تجد بيضها الناضج من على بعد عدة أميال بنفس الطريقة التي تجد بها الطيور المهاجرة وجهتها. لقد كانت الأفراخ بداخل البيضات التي هشمتُها ناضجة وحية، هذا يعني أن أنثاه ترصده منذ عدة أيام. ترى هل تأخرتُ؟!

وعرفتُ إجابة سؤالي حين وصلت إلى الساحة الأمامية ورأيت هرج الرجال ومرجهم، بينما يمزق جندي المراقبة آذاننا بصوت نفيره في البوق أعلى البرج الشرقي. واصطدم بي (كاي) وقد كان يجري صوب مخزن الأسلحة، وقال: «(جيرالد)، هناك جيش خارج الأسوار»!

يولاند

من بعيد دوّى صوت أبواق مميزة، لقد رأونا. جيد، دعهم يشعرون بالرعب قليلًا.

نظر لي القائد بنظرة رضا حين بدت لنا بوضوح أسوار الثكنات، وقد بدأت الشمس تصفرّ من خلفنا، في هذه الصحراء الفسيحة ما كنا لنصل أبدًا إليهم لولا خدعتي الصغيرة.

اقترب مني الجندي المسئول عن الكِركِي وهو يجاهد للسيطرة على الحبل الغليظ الذي يربطه، وصاح: «سيدي، إنه في حالة هِياج غير معهودة».

قلت له: «على الأرجح قتلوا صغاره، وقد شعر بهم». ثم نظرت إلى الطائر الكبير في شفقة وقلت له: «أفلته».

ما إن سمع مني حتى تركه وقد كان يتمنى لو يريحه أحد من هذا العناء، ارتفع الطائر إلى عنان السماء ودار دورتين حول الثكنات وكأنما يودع أفراخه ثم قفل عائدًا إلى موطنه.

أخذ الجندي يفرك كفّيه الملتهبتين من آثار الحبل الغليظ وهو يشكرني، أمرته أن يأخذ موضعه في التشكيلة.

كان القائد قد جاء بجيش كامل خليط من رجال الضبط والحربية، بعتاد وأسلحة تكفي لإبادة الثكنات عن آخرها. ونظرت حولي إلى قرابة الألف رجل مسلح من خلفي، وشعرت بالطمأنينة. اليوم هو يوم نهاية المتشيئين.

بدأ الضباط في الحديث مع القائد حول الخطة المثالية للمحاصرة ثم الاقتحام بينما كان نظري مصوبًا نحو خمسة واقفين على مسافة من البوابة الحديدية للثكنات من بعيد وقد بدوا بحجم النمل من هذه المسافة البعيدة، وأحدهم كان يلوّح براية سوداء.

نبّهت القائد وأشرت إليهم، فقال: «إنهم يطلبون التفاوض».

هززتُ رأسي أن نعم.

قال: «علينا أن نذهب إليهم».

نظر له الضابط الذي يليه في الرتبة بدهشة، وقال: «سيدي، إنهم موتى، يحاولون التملص كشاة مذبوحة في مسلخ، لا موطن قوة لديهم، لم علينا تكلف عناء الاستماع لأي هراء يقولونه؟!».

نظر له بحدة وقال: «أحسب أننا عانينا كفاية من جراء الاستهانة بالمتشيئين طوال السنوات العشرين الماضية». ثم بدأ في اختيار فريق التفاوض الذي سوف يذهب للّقاء، لم أكن ذا رتبة عالية ولكنه وضعني معهم، ربما لأني من قدتهم إلى هنا في البداية، وربما هو يثق في حقدي عليهم ورغبتي في تدميرهم كأكثر ما يرغب فيه إنسان في هذي الحياة.

انطلقنا على خيولنا، حتى وصلنا إليهم. كانوا يركبون الطماجن السوداء، وقدّرتُ أننا في معركة مفتوحة سوف نعاني من هذه الطماجن ذات الظهور العالية والحركة الخفيفة.

كان (كروماز) يقف في أوسطهم عاري الصدر، وقد بدت عضلات صدره وذراعيه منحوتة وكأنها تمثال على واجهة هيئة الفنون، وبرغم نحوله فقد بدا كخصم لا يستهان به، وعلى وجهه ووجه الجميع من خلفه رسموا علامات بصبغات سوداء.

كانت العلامات متماثلة تمامًا، ليست مجرد علامات اعتباطية، إنها أقرب إلى رمز ما، شبيه بقوسين متقاطعين، ولكنهما غير مكتملين.

كان أحد الضباط المتظرفين هو أول من تكلم، وقال: «هل يفترض لهذه الرسوم أن تخيفنا؟».

تمنيت لو أشير للأحمق أن يخرس، هذه ليست رسومًا، هذه عادات جيوش ما قبل الكِميت في القتال، إنهم يتمسكون بالتقاليد القديمة في تحدٍّ لنظامنا الحديث.

تجاهل (كروماز) الجميع ونظر في عينيّ بثبات، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، هل تذكرني من يوم برج القلعة ذاك؟ هل فهم أني من أوقع بهم؟!

تكلم رجل طويل بني الشعر بجانب (كروماز) وقال: «نعرض عليكم تجنب القتال»! وأشار إلى الثكنات من خلفه، وقال: «هذه، بكل ما فيها من أسرى وعتاد وذخائر، مقابل حياة كل المتشيئين بالداخل».

ضحك أحد الضباط باستخفاف، بينما تكلم أكبرنا رتبة: «ولماذا نود أن نعتقل الأسلحة ونسمح لكم بالفرار؟!».

رد عليه في حدة: «ومن تحدث عن الفرار؟!».

سكت الضابط وبدا متحيرًا، نظر الضباط بعضهم إلى بعض، بينما تدخلتُ أنا في الحديث ناظرًا إلى (كروماز) الهادئ تمامًا وكأن كل ما يجري لا يعنيه: «هم يتحدثون عن الاستسلام»!

التفت لي بعض الضباط فأكملت، بينما ما زالت عيوني مثبتة على (كروماز): «يعرضون المؤن والأسلحة في مقابل أن نكتفي باعتقالهم ولا نقتل أحدًا منهم».

همهم بعض الضباط في فهم، بينما بادلني (كروماز) النظرات واستمر على صمته.

ثم قلت أنا: «ولكن ما الذي يمنعنا من قتل كل رجل في الثكنات الآن ثم الاستيلاء على ما فيها أيضًا؟».

رد الرجل الطويل ذي الشعر البني عليّ: «سوف يدخل ألف جيش إلى الثكنات وسوف يفشل ألف منهم في الوصول إلى شيء لم نخبر بمكانه»!

هززتُ رأسي متفهمًا، ثم تحدث ضابط آخر: «سوف نعرض الأمر على القائد».

تحدث أحد المتشيئين على يسار (كروماز): «كيف سنعرف بقراركم».

قال وهو يلوي حصانه للعودة إلى الجيش: «صدقني، حين نتخذه سوف تعرف»!

تركناهم وعدنا، أخذنا نقطع المسافة التي تفصلنا عن بقية رجالنا، وبينما يركض حصاني حانت مني التفاتة إلى الوراء، لأصطدم بعيني (كروماز) ما زالت تتبعني أنا دونًا عن البقية، وعلى شفتيه ذات البسمة الهادئة.

عدنا إلى القائد، ولما استمع إلينا بدا سعيدًا وقال جزِلًا: «إنهم أضعف مما تصورنا».

قلت معيدًا ذات كلماته عليه: «أحسب أننا عانينا كفاية من جراء الاستهانة بالمتشيئين خلال السنوات الماضية».

التفت لي بحدة غاضبًا وقال: «(يولاند)، الزم حدودك»!

قلت له وأنا أخفض رأسي: «أرجو المعذرة سيدي».

هدأ قليلًا، ثم قال يسألني: «ما رأيك؟».

سكتُّ قليلًا، وقلت مشيرًا إلى الخمسة الذين قفلوا عائدين وكادوا يصلون إلى بوابتهم: «لماذا يفضلون مهانة السجن على القتال؟ هل يبدون لك يا سيدي.. جبناء؟!».

نظر إلى حيث أشير، ثم قال: «ربما يريدون أن يُسجنوا على أمل تحريرهم بعد ذلك».

- «حسنًا، هل يبدون لك أغبياء؟ هم يعرفون أنهم سيعدمون الأسبوع القادم».

- «ماذا ترى إذن؟».

تدخل أحد الضباط الأعلى مني شأنًا وقال له: «سيدي، دعك من (يولاند)، إنه متشائم دائمًا. نحن أتينا مستعدين وباغتناهم وهذا أربكهم، لقد انتصرنا، هذا كل ما في الأمر. نجمع كل هؤلاء السفلة، نملأ بهم أبراج القلعة، نعدمهم غدًا، ثم نذهب لتلقي ترقياتنا ومكافآت هيئة الضبط ونعود لبيوتنا قبل إجازة نهاية العام».

صاح بعض الضباط مرحبين وبدوْت غُرابًا وسطهم.

ابتعدتُ عنهم قليلًا أحاول أن أفكر، ثم خطر لي خاطر حاولت أن أطرده فلم أستطع، ناديت على أحد الجنود ممّن يأتمرون بأمري، وقلت له: «كم تستطيع أن تركض؟».

بدا محتارًا فقلت له: «أريدك أن تحضر لي شيئًا من المدينة وتعود قبل صباح الغد».

بهت وجهه ولم يجرؤ على الرفض، ثم قال: «أمرك سيدي، ماذا تحتاج؟».

قلت له وأنا أعبث بلحيتي: «هل تعرف الطريق لمكتبة (أورارا)؟!».

سولي

- «هل يمكنني خدمتك في شيء؟».

- «نعم، أبحث عن رجل اسمه (كونور)، قالوا لي إنه يعمل هنا».

قال وهو يحتسي آخر ما تبقى من شرابه ويتجشأ: «ليس موجودًا هنا، ابحث عنه في مكان آخر».

قلت له: «هل أنت متأكد؟ لقد قالوا إنه هنا».

ثم أخذت أساعده على التذكر: «يقولون إنه رجل قصير القامة له أنف أفطس وأصلع الرأس يخفي صلعته بشعر مستعار، ولا يجيد لعب الكاتا».

قام (كونور) من على مقعده وأمسك بطوق قميصي مهددًا بقبضته: «هل جئت تسخر مني؟»، ولكن انحسر غطاء رأسي عن وجهي فرأى وجهي الضاحك. ارتبك وأرسلني غير مصدق ثم قال: «(سولي)، هل هذا هو أنت فعلًا؟!».

ثم أمسكني مجددًا يعانقني بعنف وهو يهذي بكلام غير مفهوم بصوت عالٍ حتى جذب إلينا المزيد من رواد الحانة، وقال: «لقد ظننّا أننا فقدناك يا رجل! لقد عدت إلينا من الموت!».

كانت قد مرت شهور كثيرة لا أذكر عددها، ربما عام، ربما أقل، منذ أن سقطت من سفينتهم في العاصفة حتى عدت إليهم من... من الحافة! لا ألوم (كونور) أن يظنني مسخًا قد عاد من الموت.

ولكن ماذا عنهم؟ تلك السفينة التي سقطتُ منها لم يكن لها أن تعود إلى الديار سليمة وسط هذه العاصفة، لقد عادوا هم أيضًا من الموت.

بعد أن هدأ قليلًا، سألته السؤال الذي جئت لأجله: «أين (أفيري)؟».

صمت بحرج، قلت في توجس: «لا تقل لي إنها..»

- «لا تخف، لم تمت!».

تنفست الصعداء، وقلت: «أين هي إذن؟».

تناول (كونور) كأسين من شراب القمز من النادل وناولني واحدة وقال: «لقد اعتزلتنا منذ تلك الليلة التي فقدناك فيها. أظن أنها كانت تلوم نفسها على موتك بطريقة أو بأخرى، أو ما ظننا أنه موتك». ثم صمت وقال بنبرة شجن لائمة: «أنت تعلم أنها لم تحب غيرك».

تجاهلت غيرته وعتابه، وقلت: «هل تدري أين ذهبت؟».

صمت وبدا مترددًا وقال: «اسمع يا (سولي)، (أفيري) كأخت لي».

تجاهلت كذبته بينما أكمل: «لو كنت تنوي أن تجدها لتقابلها ثم تهجرها فأنا أرجوك ألا تفعل، يكفيها ما عانته بالفعل في سبيل نسيانك، لربما كان من الأفضل أن تظل بالنسبة لها ميتًا»!

شعرت بغصّة، وأخذت أفكر في كلامه، لم يكن هناك من مجال لحل آخر، قطعت أفكاري وتجاهلتها سريعًا.

قال لي (كونور) وهو يشير إلى كأسي الممتلئة: «ألن تشرب؟».

قلت باشمئزاز لم أبالِ بإخفائه: «لن أشرب لبن خيل مختمر يا (كونور)». ثم أعدت عليه: «أرجوك، دلني على مكانها فحسب».

هز رأسه في أسى وكأنه كان يتوقع ذلك وشرب كأسي في جرعة واحدة، وأنقد النادل أمواله وقال دون أن ينظر إليّ: «اتبعني».

سرنا كثيرًا بين لسعات برد الليل البهيم لا نرى إلا بضوء خافت من المصابيح الزيتية العتيقة المنتشرة طول الطريق، لم يتكلم (كونور) ولم أتكلم أنا، أنا لست قاسيًا يا (كونور) صدقني، لم أشأ أن أكون بهذه اللامبالاة لمشاعرها، ولكن الأمر أكبر من ذلك!

وصلنا إلى بيت خشبي متوسط الحال بنفس الطراز المعتاد لمعظم بيوت الكرم، كان مضاء من الداخل، (أفيري) العزيزة كعادتها تحب السهر. وقفنا أمام الباب، أخذت نفسًا عميقًا وشرعت في الطرق، أوقفني (كونور) وقال: «انتظر حتى أرحل».

رأى وجهي المستفهم، فقال: «لا أحب أن أرى (أفيري)»، ثم صمت مترددًا قليلًا وقال: «لنفس السبب الذي لن تحب رؤياك لأجله». ثم عانقني مودعًا وتركني.

استجمعت شجاعتي وطرقت الباب برفق ثم وقفت بعيدًا عنه بخطوات يسيرة، جاءني صوتها المألوف من الداخل: «من بالباب؟». أجبتها بصوت خفيض لا يسمعه سواي وكأني أخاطب نفسي أوبخها: «مجرد لئيم آخر»!

فتحت الباب ورأتني، مرت عليها لحظات من الدهشة، ثم الحيرة، ثم الفرح، ثم البكاء، وبدون كلمة أخرى كانت تعانقني وهي تبكي، شعرت بالحرج والارتباك، لاحظت ذلك فتركتني بعد لحظات ودفنت وجهها في كفيها وجلست على عتبة بيتها لتكمل بكاءها، أخذت نظرة خاطفة داخل البيت فوجدت مغزلًا والكثير من الأصواف والخيوط.

جلست بجانبها وربتت على كتفيها مهدئًا واغرورقت عيناي بالدموع برغمي، حين تفطن أن هناك من يحبك كل هذا الحد دون أن تقدر على مبادلته، فإنك تكره نفسك بالتأكيد!

لما هدأت قليلًا بدأت تتكلم وتسألني، كيف نجوتَ وأين اختفيتَ كل هذه المدة؟ والكثير من الأسئلة التي توقعتها، أجبتها باقتضاب: «هل ستصدقينني لو قلت لك إني أجهل معظم كل ذلك؟».

قالت: «ليس تمامًا!».

ابتسمت بحرج ونظرت لها قليلًا وقلت بعد برهة: «كيف حالك يا صديقتي العزيزة؟».

نظرت إلى الفراغ ولم تجب، أشرت إلى المغزل بالداخل وقلت: «أرى أنك غيّرتِ مهنتك».

ابتسمت بحزن وقالت: «هذه هواية قديمة»، ثم تابعت: «البحر لم يعد يناسبني».

ثم اعتدلت قائمة وقالت بخشونتها المعتادة: «ماذا تريد يا (سولي)؟».

نظرت إلى الأرض في حرج وخلعت قلادتي ومددت بها إليها وقلت بدون أن أنظر في عينيها: «أريد أن أبيعك هذه القلادة»!

تناولتها مني وقلبتها في يدها وقالت: «لا أفهم، لماذا؟».

قلت: «لأني أرجو أن أعود إليكِ يومًا وأعيد شراءها منكِ، لا يمكنني أن أخاطر ببيعها في السوق وأفقدها إلى الأبد. فهذه القلادة...».

توقفت عن الكلام مخافة أن أجرحها بالمزيد، ولكنها كانت قد فهمت، قالت وهي تتأمل فيها أكثر: «هذه القلادة كانت تخص (ناجيلي)، أليس كذلك؟».

قلت محدقًا في الأرض بحزن: «بلى».

قالت (أفيري): «كم تساوي هذه القلادة؟».

قلت: «لا تساوي أكثر من مائة روكيّة». ثم استجمعت شجاعتي وأكملت: «ولكني أحتاج إلى خمسمائة»!

- «تحتاجهم لأي شيء».

تنهدت ونظرت في عينيها أخيرًا وقلت وقد ارتبكت من نظرتها إليّ: «لقد حدثت لي أشياء... غريبة. صدقيني أنا لا أعلم عنها الكثير، فقط ما أعلمه أني أحتاج إلى القيام برحلة، قد تكون طويلة».

جلست بجانبي مجددًا ولم تقل شيئًا، بدت محبطة، هل كانت تظن أني أتيت لها كي أبقى؟ هل كسرت قلبها مجددًا؟

قالت بعد برهة: «هذه الرحلة التي تريد القيام بها؟ هل هي للعودة إلى (ناجيلي)؟».

ها أنتِ تنكئين جراحي في الموضع المناسب مجددًا يا (أفيري)! وبداخل نفسي كنت أعيد السؤال على مسامعي وكأني قد ذهلت. هل يمكن للحقيقة أن توافق الهوى؟ هل يمكن أن أبحث عنها متجردًا متجاهلًا أنها ستكون غرضًا تطمئن إليه

نفسي؟

هل يمكن أن أراكِ مجددًا يا (ناجيلي)؟!

احتبست دمعة في عينيّ وأجبتها: «لا أعلم، أتمنى ذلك».

لم أدرِ كيف تقبلت الأمر، فقد كنت ناظرًا إلى الأرض في حرج طوال الوقت، ولكنها تركتني وغابت داخل البيت قليلًا ثم عادت بكيس جلدي صغير ثقيل. وناولتني إياه.

تناولته منها محرجًا، من وزن الكيس قدّرت أنها تكفي وزيادة، قلت لها ممتنًا: «(أفيري) أنا...».

- «كف عن الكلام الفارغ ولا تقل شيئًا».

- «أعدك أنني سوف أسترد منك القلادة بنفس الثمن قريبًا».

قالت ببسمة عملية جامدة: «أعلم».

قلت لها وأنا أهم بالوقوف: «إذن هو الوداع إلى لقاء قريب».

هزت رأسها ببطء وابتعدت خطوتين إلى الوراء وكأنها تحاول الاعتذار عن العناق السابق الذي أربكني. قلت لها بحزن حقيقي: «إلى اللقاء يا (أفيري)». ثم في لحظة ضعف خاطفة أردفت: «ربما لو قابلتك منذ سنين ما كنت ودّعتك أبدًا».

نظرت بعيدًا وارتشحت عيناها بدموع متحجرة ولم تجب. التفتّ وهممت بالرحيل.

- «سولي».

قفلت إليها عائدًا حين نادتني، فقالت: «أغمض عينيك»!

شعرت بحرج وتردد، أعرف ما تنوي أن تفعله. لاحظت ذلك فقالت: «هيا، افعل».

امتثلت لأمرها وأغمضتُ عيني فشعرت بملمس شيء بارد على رقبتي، فتحت عيني فوجدت قلادة ناجيلي وقد عادت حول رقبتي، بينما نظَرَت هي إليّ باسمة في شجن، وأشارت إليها وقالت: «هذه... لتُدفئ قلبك»!

لم أرَ (أفيري) أبدًا بعد هذه الليلة.

كالينا

في غرفة الطعام في مساء اليوم التالي تجاهلتُ (تومان) الذي كان يجلس وحده، ثم (هوسيرل) و(ميرون) على المنضدة الأخرى. واتجهتُ مباشرةً صوب (سيرا) التي كنت أشعر أني مدينة لها باعتذار ما. توتّرت وبدت غير مرتاحة لما رأتني أجلس بجانبها، ابتسمتُ لها بود صادق وشرعتُ في تناول عشائي في صمت.

لم تكن (سيرا) جميلة، ولكنها ليست بنصف القبح الذي تظن نفسها عليه. لها ملامح مريحة تشي بطيبة لا شك فيها بعد أن اختفت تحت أطنان من العصاب ومحاولات مستميتة لأن تجد ذاتها في أي شيء آخر. أعرف ما تمرين به يا صغيرتي، لقد كنتُ هناك. صدقيني، الأمر لا يستحق!

- «إذن أنتِ تحبين (تومان)!».

نظرت لي متفاجئة، ثم مرت لحظات من الصدمة، ثم ضحكت بخجل، ثم بقهقهة عالية لما شاركتُها أنا أيضًا الضحك.

- «هل هذه هي فكرتك عن كسر الجليد؟».

- «أسرع الطرق هو أجملها دائمًا، هذا غير أني لا أظن أن هناك الكثير من الجليد قد بقي بيننا بعدما رأيتِ ألعابي المائية بالأمس».

قالت وقد شعرتُ بأن توترها قد خفّ قليلًا: «تذكري أنكِ ما زلتِ لم تخبريني بسبب بكائك».

شعرتُ بظُلمة تزحف بداخل نفسي مجددًا. وحشة كتلك التي تعتصر قلبي منذ إبحارنا، بحر كذلك الواسع أمامنا، وسماء لا نرى آخرها، وأشعر معهما أني سجينة في غرفة باردة مظلمة. الوحدة هي كل شيء بوجداني!

لم أخف من الوحدة يومًا، لم أشعر أني بحاجة إلى من يؤنسني برفقته. فقط إلى اللحظة التي اختفت فيها الأشباح التي كانت تؤنس داخلي! حين شعرت أن هذه الوحدة التي اخترتها لنفسي قد تطول رغمًا عني إلى الأبد، شعرت بالخوف منها لأول مرة في حياتي.

- «لا أريد التحدث عن ذلك، صدقيني ليس لأني لا أعتبركِ صديقة، ولكن... دعينا نقل إن هناك من الجروح ما لا يجب أن يُنكأ مجددًا».

هزت رأسها متفهمة، انهمكنا في تناول العشاء قليلًا، ثم قالت فجأة: «أعتذر على ظني فيكِ بالأمس».

- «وأنا أعتذر عن صفق الباب بوجهك».

ابتسمت بخجل، كانت ابتسامتها جميلة، لا أظنها تعرف ذلك عن نفسها.

- «ولكني لا أفهم، لماذا ظننتِ أن شيئًا يحدث بيني وبين (تومان)؟ نحن نكره بعضنا كالأفاعي!».

- «قال لي أبي ذات مرة إن البغض والحب أتيا من ذات العالم! لو كنتي تُكنِّين أيًّا منهما تجاه أحد، فهو بالنسبة إليكِ ليس كأي أحد».

- «أبوكِ هذا ما زال حيًّا؟».

- «لا».

- «ليرقد في سلام. ولكن عزيزتي، أرجو أن تعذريني، إنه يتكلم بالهراء! الحب حب، والبغض بغض، أعدكِ أنني لن أقع في غرام الفأر. هو بالنسبة إليّ ليس كأي أحد بالفعل، ولكن هذا لأني أبحث عنه جيدًا في الغرفة قبل أن أنام فيها، أفكر فيه طوال الوقت أيضًا، هل يوجد فأر أسفل سريري؟ لو كان كذلك فهل سأسمع صوته أم سيتسلل في صمت أثناء نومي ليقضم شفتي؟ هل يمكن للفأر أن يظن أني أحبه لمجرد أنه حاضر دائمًا في ذهني؟».

ثم قلت وأنا أرتشف آخر ما في حسائي: «أنا صدقًا لا أعلم كيف تحبين ذلك المزعج المغرور».

رمقتني بنظرة غاضبة، وشعرتُ أني تماديت قليلًا، فقلت وأنا أضحك: «ولكنه عبقري بلا شك، لا يمكن إنكار ذلك».

فابتسمت بود ابتسامتها المريحة ولم تعلق.

قالت بعد قليل فجأة أيضًا، وقد بدا أن تلك عادة لديها: «أنا لا أحبه فعلًا، ليس بالمعنى المعروف، فكي تحبي أحدًا تحتاجين إلى قدر من الأمل كي تقعي في غرام أحدهم. لا أحد لديه من الشجاعة ما يجعله يقع في حب ممثلة مسرحية، عليه أن يكون واقعيًّا».

قلت باستهجان وأنا أرمق (تومان) بطرف عيني: «هل (تومان) على هذا القدر من الأهمية؟! تعتبرينه خارجًا عن مجرد الاحتمال!».

قالت ببسمة هازئة حزينة وهي تشير إلى وجهها ناظرة إلى المنضدة بأسفلها: «بهذا الوجه، فكل الناس أعلى من قدرتي على الوصول».

قلت بغضب حقيقي: «أنتِ حمقاء، هل تعلمين ذلك؟ لقد سمحتِ لهم أن يحددوا كيف عليكِ أن تري نفسك، سمحتِ للآخرين بجعلك مجرد سلعة لها مواصفاتها المثالية، ثم تركتِ لهم حرية تحديد هذه المثاليات المفضلة بالنسبة إليهم..

نمتلك الآن المال والعلم والقوة والسلطة أحيانًا لفعل ما نريد، ولكن حين يتعلق الأمر بنظرتنا لأجسادنا فإننا أسوأ حالًا بكثير من جداتنا في الأزمنة السحيقة. كنّ يقبعن في البيوت ولكنهن كنَّ أكثر تحررًا منا ألف مرة!..

ماذا علينا أن نفعل؟ أخبريني. كم من الأصباغ يجب أن نزين به وجوهنا؟ كم مَشدّ يجب علينا أن نرتدي أسفل عباءاتنا لنبدو بخصر نحيل تمامًا كما يحبه الرجال. سأقول لكِ رأيي في الرجال، فلتأخذهم اللعنة جميعًا».

ثم أمسكت يديها بقبضتيّ وضممتهما إليّ وقلت: «هل ستنسين ذكاءك المتقد، براعتك في العلوم، حضورك المريح، وبسمتك الودود؟ هل ستجعلين كل شيء يخصك مجرد كسور ليس لها قيمة؟».

قالت بلهجة ذات معنى: «نعم، نعم، أعلم. لقد قال لي الكثيرون ذلك، أمتلك (طباعًا) جميلة، لكن سيدة (كالينا) ما أود أن أقوله هو.. في النهاية لا أحد يهتم فعلًا بأي شيء آخر غير أشكالنا من الخارج! هل هذا ظلم؟ نعم أجده كذلك، ولكن لستُ أنا من يضع القواعد هنا. نحن نحب بأعيننا، لا تصدقي ترهات الأغاني، هناك من الناس من يعشق بأذنه، ويرى الناس بقلبه، هل تعلمين ما اسم هؤلاء؟ المكفوفون! ربما عليّ أن أبحث عن واحد منهم إذن».

شعرتُ بالتردد قليلًا ثم قلت: «أنتِ رائعة الجمال، عليكِ أن تعلمي ذلك، إن كان أحدهم يرى أنك لستِ مفضلةً لديه للتزاوج الحيواني فهذا جميل، على الأقل لن تكوني أمًّا للمزيد من حيواناته! إن دخلتِ إلى هذه الدنيا وخرجتِ منها دون أن تمنحي لنفسك الحب الذي تستحقين فهذا لم يكن خطأ أي أحد سواكِ».

مطّت شفتيها في عدم تصديق ثم سكتت، بعد قليل استأذنتُها للنهوض فشكرتني بعينيها بصمت.

خرجتُ إلى سطح السفينة لأشم بعض هواء الليل البارد، كانت هناك بعض المصابيح الزيتية ما زالت مضاءة بينما أشعل البحارة بعض النار في وعاء التدفئة في منتصف صحن السفينة وجلسوا حوله ومعهم (إيزرا)، بدوا وكأنهم يحثونه على أمر ما وهو يحاول التمنّع بلطف.

شعرتُ بقادم من خلف كتفي فأجفلتُ، التفتُّ فإذا هو (ليفاي). قلت له: «ماذا يفعلون؟». أشار إلى القمر المكتمل من فوقنا وقال: «ليلة الحداء، طقس البحار المفضل لدينا!».

بدأ صوت (إيزرا) يرتفع بغناء حالم من صوته الرخيم، لم يكن مع أحدهم آلات عزف ولكني شعرت بالإيقاع يسري تحت أقدامي رغم أني لم أفهم شيئًا من كلمات أغنيته، كان صوته جميلاً بحق، تكاد تتذوقه بفمك وكأنه ماء عذب ثقيل.

خيّم الصمت على الجميع يستمتعون بسماع حداء (إيزرا) الحالم. كان ينظر إلى القمر وقد بدا وقد انفصل عنا وتتابع غناؤه الحزين.

نظرتُ إلى (ليفاي) مستفهمة فلم يمهلني حتى أسأل، وبادر بالجواب: «إنها أغنية عن الحنين للوطن، بلغة المارونيين».

- «هل تفهم هذه اللغة؟».

- «لا، نعرف أغانيهم فحسب».

- «ماذا يقول إذن؟».

قال (ليفاي) يترجم لي ما يقوله (إيزرا) بينما ما زال حداؤه العذب مستمرًّا:

«يحين المساء فأتقسّم..

كم أنا الآن يا ترى؟

يرنو بعضي إلى النجم الأحمر..

وبعضي إلى الثرى الدفين..

أيها النجم أخبرني عن الوطن..

أيها النجم كن معي حين يقرصني البرد..

كن معي حين يأتي الخوف متبخترًا..

كن معي وراقبني أقاتله..

لا تتركني..

لا تتركني كما فعل الآخرون..

كم أنا الآن يا ترى؟

عيوني جافة تخدع الجميع..

ترى من يخبر الجميع؟

أن الدمع مثله كالشعر..

لا يخرج إلا في غربة المساء..

أيها النجم الأحمر أجبني..

أرسل سلامي للأحباب..

أخبرهم أني قد مررت هنا الليلة..

أخبرهم أني سألت..

كم أنا الآن يا ترى؟

حين جاء المساء..

حين تقسّمت في المساء..

أيها النجم الأحمر».

قال بعدها (ليفاي) معتذرًا: «بالطبع تفسد الترجمة الشعر تمامًا». شعرتُ بقشعريرة مع دمعة متحجرة في عيني، سقطت على شفتيّ فتذوقت فيها طعم قطرات عرق (ماندا) حين كنت أقبل جبينها وهي تلعب، طعم دموع لطالما سقطت مني حين جاعت روحي إلى كل شيء فقدته من قبل، طعم حنين إلى أنين أستحقه! وقلت: «لم تفسده».

قال (ليفاي): «لا يجمع البحارة شيء كالحنين إلى أرض الوطن الصلبة».

قلتُ وأنا أمسح دموعي بسرعة بينما أحدق شاردة في (إيزرا) الذي لم ينزل نظره عن السماء وقد بدا في شروده وكأنه ذهب إلى مكان آخر: «هذا الرجل لا يغني للوطن».

ميرون

قلت لـ (تومان): «لقد مللت من هذه السفينة، أحتاج إلى أرض صلبة».

قال (تومان) بلهجة صبور: «لم نكمل أسبوعنا الثالث بعد». ثم تابع: «أنت تفتقد وفرة الخمر فقط يا صديقي السكّير».

- «وهل يوجد سوى الخمر ما يعيننا على إكمال الحياة».

- « ليس من المفترض للحياة أن تكون مؤلمة إلى هذا الحد. هل أنت متأكد أنك لا تعيشها بشكل خاطئ؟».

حولت نظري إلى صفحة البحر التي مللتها ولم أرد، بدأ هو: «ميرون....».

- «لا تفعل»!

- «لا أفعل ماذا؟».

- «تفتح أمورًا كانت مغلقة لسبب وجيه».

قطب جبينه قليلًا ثم قال بتردد: «لم يكن سؤالي عن (ألفن)، كان سؤالي عنها».

نظرتُ له متسائلًا بينما قال هو: «لماذا تركتَ زوجتك يا (ميرون)؟».

طال الصمت فترة أطول مما ينبغي، في النهاية قلت: «ثمة رجل حكيم قال مرة: (بالإنجاب يصبح الزوجان غرباء). كان يقصد أنك حين ترى ابنك الذي يحمل ملامحك وطباع أبيك تشعر أنه ينتمي إليك وتنتمي إليه، حينها لا بد أن تشعر أن زوجتك كانت غريبة عنك طوال الوقت ولكنك كنت تدعي أنكما شيء واحد. تفهمني؟ بضدها تتبين الأشياء وكل هذه الحكم».

- «نعم، نعم، أفهمك، تقصد أن هذا هو ما حدث معك؟».

- «لا، بل حدث معي عكس ذلك! لقد تبين أن الحكيم أحمق، أو على الأقل لم تكن حكمته بهذا الذكاء الذي يظنه. في غالب الأحيان سوف تجد لكل حكمة حكمة مضادة، ربما لأنه لا يشبه أحد منا الآخر قط! وفي حالتي أنا كانت الحكمة المضادة هي الصواب».

ثم تنهدت كمن يستعد لحكاية حزينة، وقلت: «أنت تعلم ما يحدث حين تحب إحداهن. في البدء لا يمكنك إلا أن تفكر في أن تجانس الحب بينكما لا بد يعني أنكما مغزولان من سحابة واحدة، قد وُجدتِما لبعضكما، لم يكن لأي منكما احتمال ألا يكون مع الآخر.

ولكن هذا لا يدوم، الشكوك تبدأ في الزحف، والتردد يطرق بابكما مستأذنًا قبل أن يدخل إلى حياتكما للأبد. والظروف التي جمعتك بحبيبتك يمكن أن تجمعك بأخرى، والحب من الممكن أن يُغزَل من جديد، تحتاج فقط من أجل هذا أن تجيب لنفسك على سؤال واحد».

- «وما هو السؤال؟».

- «هل كل منا للآخر بالفعل؟ أم أنك أخطأت حين مددت يديك واخترت، بينما اختيارك الأمثل ما زال في مكان ما؟!»

- «وماذا أجبت نفسك عن هذا السؤال؟».

- «لم أفعل، لقد فعل (ألفن) بدلًا مني! حين تنجب طفلًا تبدأ في مراقبته يكبر أمامك، يتمطى أمام حصانه الخشبي الصغير ثم يمتطيه وهو يضحك، ما هذا؟ تفكر أن هذا إنسان حقيقي، إنسان كامل، له وجوده المستقل، وجود هو أكثر تحققًا من أي شيء آخر. وكأنه كان ينتظر الحياة، وكأن الحياة كانت تنتظره، بدا (ألفن) أمامي كشيء قصدت الحياة أن تصنعه! هنا أدركت أن حبي لزوجتي تمامًا كما هو (ألفن) ثمرة هذا الحب، كان معنيًّا له أن يكون!».

سكت (تومان) قليلًا يلوك كلامي. ثم قال بعد برهة صمت: «حسنًا، لم تخبرني أيضًا في النهاية، لماذا انفصلت عنها؟».

نظرت له وقلت ببساطة من يتحدث بالبداهة: «لقد مات (ألفن)»!

ثم تابعت بحزن ناظرًا إلى الأرض: «لم يعد من شيء قادر على إقناع أحدنا أن حبنا كان مقصودًا له أن يتم».

طال الصمت بيننا ثم سألتُ أنا: «ماذا عنك يا (تومان)؟ لم تحصل على حبيبة بعد؟».

ابتسم بحرج، وقال: «أنت تعرف».

- «مشكلة (سيرا) مجددًا؟!».

- «تتحدث عنها وكأنها أمر بسيط».

- «بسيط؟ لا، لم تكن هذه هي الكلمة التي في ذهني!».

سكت (تومان) قليلًا، ثم قال: «مشاعري تجاه (سيرا) قريبة من مشاعرك تجاه (ألفن)، هل كنتَ تقدر على أن تؤذيه عامدًا؟».

شعرت بحرارة في حلقي حتى أوشكتُ على القيء، وقلت له متعجلًا في ضيق: «لا».

- «حسنًا، أنا كذلك، لا يمكنني أن أؤذيها عامدًا بزواجي من أخرى وأنا أعلم ما تكنه لي من حب. لا يمكنني أن أبادلها هذا الحب أيضًا! بدا لي في لحظة بعينها أن الحل الوحيد هو أن يبقى كل شيء على ما هو عليه».

أطلقتُ زفرة من فمي مستنكرًا، وقلت بسخرية: «من كان يظن أن (تومان) رجل العلم الصارم على كل هذا القدر من رقة المشاعر؟!».

- «ماذا تقصد؟».

- «أقصد أنك تخدع نفسك، الحب لم يطرق بابك فقط، هذا كل ما في الأمر».

ابتسم بحرج، وقال بغموض: «أنت مخطئ».

ثم عاد فقال وقد بدا مصرًا: «لا أدري ما بي! لماذا لا أقدر على حب (سيرا) كما تفعل هي؟! أحببتها كطالبة، كصديقة، كأخت، كابنة حتى. لماذا لا أفكر بها كزوجة؟».

بدا منتظرًا ردي، ولكني لم أفعل.

تابع هو: «لماذا أشعر بالانجذاب تجاه امرأة كـ (كالينا) مثلًا أكثر من (سيرا) لمجرد أنها أجمل منها؟ إن (سيرا) أذكى وألطف عشرةً، ومع ذلك.... هل أنا بهذا السوء حقًّا».

قلت مقطبًا جبيني: «ربما جميعنا كذلك».

هز رأسه متفهمًا، ثم قال: «أرأيت، دليل آخر على أن الإنسان مجرد حيوان أذكى فقط! ننجذب في النهاية لما يرضي أجسادنا، كأي حيوان يسعى للتكاثر الملائم».

قلت بلا مبالاة وأنا أهز كتفيّ: «ربما. ولكن هل تظن أن الحيوان كان لينزعج بهذه الحقيقة عن نفسه إلى هذا الحد؟».

ثم أعدت النظر إلى البحر قائلًا: «ربما مكمن عذابنا ومنبع آلامنا يأتي من ذلك. أننا محض حيوانات تجاهد ألا تكون كذلك!».

بعد قليل كنا قد أخذنا كفايتنا من هواء البحر المالح، فقمنا ونوينا العودة للغُرَف، التفتنا فإذا بـ (سيرا) جالسة على مسافة قريبة منا ممسكة بكتاب منكبة تقرأ فيه!

امتقع وجه (تومان) واصفرّ ومررنا بجانبها صامتين، بينما همس في أذني: «أتظن أنها كانت تسمعنا؟».

حانت مني نظرة للكتاب الذي بيدها أسفل رأسها المنحني، ورأيت صفحاته وقد ابتلت تمامًا بدموعٍ غالية. ولذتُ بالصمت.

تومان

استيقظت من نومي قبيل الشروق، كانت معدتي قد اعتادت أخيرًا على حركة الأمواج وتقلبات البحر، لم أشعر بالكثير من التوعك في ليلتي. غسلت وجهي في الحوض الصغير في غرفتي، ونظرت له في انعكاس المرآة النحاسية العتيقة أعلى النافذة الصغيرة المطلة على البحر، وحدقتُ نفسي بنظرات الكراهية وأنا أذكر ذلك الجرح الغائر بالأمس والذي صنعته في قلب (سيرا) بحماقاتي المعهودة وقسوة قلبي القذر!

خلعت ملابس نومي ولبست ملابس جديدة، اخترت تلك المهندمة جيدًا وأخذت وقتًا طويلًا لاختيار ألواني، اللون الأبيض مع الأسود أنيق ولكن يناسب الليل أكثر، قدرتُ أن الألوان الزاهية في ضوء الشمس ستبدو جيدة، وبينما أفعل ذلك كانت صورة (كالينا) تحضر في ذهني لسبب غير مفهوم. تبًّا!

تناولت قلادتي من على الرف بجانب الباب ولبستها، -تبًّا لك يا (إيزرا) أنت أيضًا- أخفيت القلادة جيدًا أسفل ملابسي، وصففت شعري بعناية وخرجت من غرفتي وأخذت نفسًا عميقًا أتشمم به هواء البحر، و... سعلت بشدة! ما هذا الدخان؟

تلفتُّ حولي وجدت صخبًا وحركة في كل مكان، الجميع يتجهون إلى مقدمة السفينة، وهناك رائحة دخان قوية، خشيت أن يكون هناك حريق، اندفعت إلى مقدمة السفينة، كانت (كالينا) ومعها (ميرون) و(سيرا) يلتفون حول رجل يسعل ويتفل وملابسه مبتلة تمامًا، لم أتبين ملامحه ولكني لم أره من قبل، هذا ليس من فريق بحارتنا، نظرت إلى مصدر الدخان فوجدت سفينة ركاب صغيرة في عرض البحر أمامنا وهي تحترق، لا بد أن هذا الرجل أحد الناجين. في الحقيقة لا يبدو أن هناك من نجا غيره!

جاء (ليفاي) مسرعًا من الداخل وقد استدعاه أحدهم، أفسح له الجميع ليقترب من الناجي، لا بد أنه خير من يتعامل مع مثل هذه الظروف لخبرته.

- «اهدأ يا رجل، أنت بخير الآن، أنا قبطان السفينة التي تلقفتك من البحر».

كذا حاول (ليفاي) أن يطمئنه، بينما كان الرجل يأخذ أنفاسه بصعوبة ويعب الهواء عبًّا ثم قال: «الصُفر، هجموا علينا بالليل، سرقوا كل شيء». ثم أخذ يبكي: «لقد قتلوا الجميع، أنا كنت الشارة فقط». ورفع يده فاتحًا كفه، كانت محروقة، أو مختومة بمعنى أصح، بختم ناري يحمل علامة مميزة لم أتعرف عليها.

نظر (ليفاي) إلى (كالينا) بنظرة ذعر وأشار بوجهه بمعنى: (هذا ليس جيدًا). ثم أشار لرجاله أن يأخذوا الناجي لأحد غرف الإقامة الفارغة ويزودونه بملابس جافة وبعض الطعام وأعشاب (السابير).

انفضّ الجمع تدريجيًّا، حتى (ميرون) قد اختفى، وبقيت أنا و(ليفاي) و(كالينا) و(سيرا)، كانت (سيرا) أول من بدأ الكلام، وقالت بخوف: «ما معنى هذا؟ من هم هؤلاء الصُفر؟».

سكت (ليفاي) وقد بدت على وجهه أمارات التوتر وكان يتبع السفينة المحترقة ببصره وقد صارت خلفنا الآن بعدما تجاوزناها. كررتُ أنا السؤال بصيغة أكثر حزمًا فأجابت (كالينا): «من الواضح أنهم قراصنة».

- «هم ليسوا قراصنة».

كذا رد (ليفاي)، ثم التفت لنا وتابع: «الصُفر صيادون مثلنا، فقط هم لا يصطادون الأسماك».

قلت: «لا تقل لي من فضلك إنهم يأكلون لحوم البشر».

رد: «أما اللحوم فلا». ثم أشار إلى رأسه: «الأمخاخ أمر آخر»!

ثم أكمل: «إنهم إحدى قبائل جزيرة (إلي) الظلماء. سكان هذه الجزيرة رفضوا الكِميت وقاوموه واحتفظوا بخرافاتهم القديمة، يؤمنون بالحظ الحسن والفأل ورقصات اجتذاب الرخاء وتعاويذ منع المصائب. الصُفر يصطادون رجال قارة الشمال من البحر، يعتقدون أن أمخاخهم تجلب الغِنى لآكليها».

بدت علامات التقزز على (سيرا) و(كالينا)، بينما شعرت أنا بالخوف، لا يوجد من هو أكثر مني علمًا لما يقدر عليه إنسان يؤمن أن قتلك سوف يكون تميمة حظه!

قلت وأنا أحاول التمسك بجدية الأمر: «هؤلاء الصُفر كم مرة يصطادون؟».

- «عدة مرات في بداية موسم المطر».

- «وحظنا الرائع جعلنا نكون هنا بالذات في بداية موسم مطرهم؟».

- «يبدو ذلك، نعم».

بدأ التوتر يغزو وجوه الجميع، وسألت: «تحدث الناجي عن أنه هو الشارة، ما معنى ذلك؟».

قال وهو يفرك جبهته قلقًا: «سمعتُ أن الصُفر يتركون دومًا ناجيًا في كل صيد، يسمي البحارة ذلك الناجي بالشارة، لأنهم يَسمون يده بعلامتهم المميزة وكأنهم يريدون أن يعرف الجميع أنهم فعلوا ذلك، وأنهم قادمون من أجل البقية».

تدخلت (كالينا): «ولماذا يفعلون ذلك ويخاطرون بتحذير الآخرين بقدومهم واستعدادهم لهم؟».

قال (ليفاي): «يُقال إن خوف أعدائهم منهم يجعل أمخاخهم... آآ.. حسنًا، يؤمنون أن هذا يجعل التعويذة تعمل». ثم أشار بكتفيه بمعنى الاستهزاء بكل هذه الخرافات، وتابع: «المهم أن هذا هو ما يعتقدونه، وهم سيفعلون أي شيء يدب الرعب في قلوبنا قبل الهجوم».

صاحت (سيرا): «ماذا؟ نحن؟ ولماذا نحن؟».

التفت لها (ليفاي) وقال مشيرًا إلى منارة بعيدة جدًّا: «أترين هذه المنارة؟ إنها تسلط ضوءها تجاهنا نحن منذ البارحة، هذا يعني أن البحر خالٍ أمام عامل المنارة إلا منا نحن. يا بنيتي، لا توجد سفينة غيرنا الآن في هذا الجزء من المحيط!».

صمتنا جميعًا وقد بدا الوجوم على أكثرنا، ثم سألت (كالينا) أهم سؤال في المحادثة: «حسنًا، هل يوجد من انتصر على هؤلاء الصُفر يومًا؟».

يولاند

انفتحت البوابة الحديدية على مصراعيها ببطء، تحفزنا جميعًا.

أخبرهم القائد بالموافقة على العهد الذي طلبوه، حياتهم مقابل كل شيء آخر. (كروماز) يجمع نفيس الأسلحة منذ عشرين سنة، لو عدنا بكل ذلك إلى العاصمة لكان نصرًا كبيرًا لهيئة الضبط.

كان القائد قد أرسلني مع الفيلق الكبير الذي يحاصر الثكنات، بينما ظل بقية الجند هناك خلف المدافع المنصوبة من بعيد والمُوَجَّهة تجاه الثكنات كاحتياط في حالة الغدر. صار جيشنا الآن نصفين، النصف الذي أنا فيه ومعنا أغلب الخيول، ونصف آخر فيه كبار القادة هناك مع بقية العتاد والراجلين من الجنود على بعد قرابة نصف الميل. لم أحب فكرة الانقسام هذه ولكن لست أنا من يلقي الأوامر.

صارت الأسوار الآن مرئيّة بوضوح بالنسبة إليّ وقد بدا المكان أكبر بكثير مما كان يتخيله أحدنا حين كنا نسمع عن وكر المتشيئين في الصحراء! هذا أشبه بجيش نظامي كامل العتاد.

بدأ المتشيئون في الخروج شيئًا فشيئًا من البوابة، على وجه الجميع ذات العلامة السوداء المحيرة، وقد رفعوا أياديهم خلف رؤوسهم في إشارة إلى الاستسلام وبدا بوضوح ألّا أسلحة معهم.

كان (كروماز) والأربعة الذين كانوا معه بالأمس في مقدمة الجموع، نظرت إلى (كروماز) الذي كان هادئًا كالعادة ولكن أسعدني أن اختفت ابتسامته من على شفتيه.

كانوا يلبسون ملابس عادية، سراويل وكنزات من القماش.

ملت على أذن أحد رفاقي من الضباط وقلت: «ألا تلحظ شيئًا غريبًا؟».

- «تقصد تلك العلامات السوداء التي حكيتَ لي عنها؟».

- «لا، شيء آخر.. لا أحد منهم يلبس عباءة المتشيئين البيضاء المميزة».

بدا يفكر قليلًا ثم قال: «لربما لا يلبسونها عادة في بيتهم هنا، ربما هي رمز لهم وسط الناس فقط».

لم يقنعني ذلك ولكني لذتُ بالصمت. كانت كل أحشائي تخبرني أننا نتعرض لخديعة ولكن كان كل شيء يبدو على ما يرام! سلموا أسلحتهم وخرجوا مستسلمين أمامنا، أمامهم يقف نصف الجيش فوق خيولهم ممسكين بالبوارید، ومن بعيد يقف النصف الآخر خلف المدافع والرماة. وما زلت مع ذلك أشعر أننا نحن من نوشك على الهلاك.

تدفق ساكنو الثكنات شيئًا فشيئًا، يخرجون فيجثون على ركبهم على أحد جانبي البوابة في صفوف متوازية، بينما أياديهم فوق رؤوسهم. منظمون حتى في الاستسلام.

كانت الأعداد ضخمة، لا أعرف إن كان المتشيئون فيهم أكثر أم المرتزقة؟ ولكن على كل حال كانت أعدادنا نحن أكثر بكثير.

استمرت عملية الإخلاء قرابة الساعة، ثم بدأ خروج العتاد والأسلحة والطماجن.

آثرنا أن نخرج الأسرى في النهاية بعد أن يُقيّد الرجال ويُنظّم رجالنا على ظهر الخيول والطماجن الجديدة، وتستتب الأمور لنا بالكامل.

لم أصدق كمّ هذه الطماجن الخارجة من بوابة الثكنات، يبلغ سعر الطمجن الأسود خمسة أضعاف ثمن الخيل. وبرغم ذلك أحصي الآن ما يقرب من سبعين منها يسيرون في صف طويل حيث يقودها بعض جنودنا إلى القائد هناك خلف المدافع، ليركبها الراجلون من رجالنا.

وبينما أتبع صف الطماجن الطويل بصري وهو يبتعد عن الثكنات كنت من آن لآخر أختلس النظر إلى (كروماز) القابع على ركبتيه رافعًا يده فوق رأسه ومطرقًا ببصره إلى الأرض. ومن بعيد رأيت جنديًّا على ظهر خيل يركض تجاهي قادمًا من الشمال. لقد وصل مبعوثي الذي أرسلته البارحة إلى المدينة، لقد ذهب راجلًا وعاد راكبًا، ومع ذلك عاد بعدما أشرقت الشمس، متأخرًا جدًّا.

ما إن وصل إليّ حتى اختطفتُ منه الكتاب الذي مد به إليّ، ذلك الذي أرسلته لمكتبة أورارا من أجله، وبجانبي نظر لي أحد الضباط نظرة ازدراء وهو لا يدري أي غباء ذلك الذي حل بي كي أهتم بكتاب لعين الآن.

تأملتُ عنوانه: (الرموز القديمة لعصور التاريخ البائد)، ثم ترجلت من حصاني، وأخذت أقلب صفحاته سريعًا في ضوء الصباح الوليد. ليس هذا، ولا ذاك، ولا هذا... نعم، وجدته، هو ذلك الرمز الذي رسموه على جباههم، وقرأت بجانبه: (علامة القتال حتى الموت، كانت شعوب الساحل الغربي من قارة الجنوب ترسم هذه العلامة على جباه مقاتليها في الحروب المقدسة، وتعني أن الجندي قد حُرّم عليه المصالحة أو الهدنة أو أسر غيره أو الوقوع في الأسر، وسوف يقاتل حتى موته أو موت آخر أعدائه)!

شعرت بدقات قلبي تخفق ونظرت إلى جموع المتشيئين الجاثين على ركبهم، يتقدمهم (كروماز) ومن كانوا معه، بينما العلامة السوداء على جباه الجميع. وشعرت بالرعب.

ناديت على قائد الفيلق سريعًا وأنا أركب جوادي، شعر بالاضطراب لما سمع صوتي العالي ورأى اندفاعي تجاهه، جذبت الكثير من الأنظار إليّ، وأولهم نظر (كروماز) الذي لمحتُه وقد عادت ابتسامته على شفتيه.

قلت للقائد لما وصلتُ إليه: «سيدي، إنهم يخدعوننا».

قال وهو مشغول بمتابعة جنودنا وهم يخرجون الأسلحة والمدافع الثقيلة من الثكنات: «ليس الآن يا (يولاند)».

جذبتُ ذراعه بعنف وقلت له بغضب: «استمع لي! إنهم لا يستسلمون كما يبدو لنا». وأشرت له بالكتاب، فأطاحه من يدي بحركة عنيفة.

أُسقِطَ في يدي، هناك خدعة لا أتبينها.

ترجلتُ مرة أخرى وتوجهت إلى (كروماز) المنحني على الأرض الرملية، وأشهرت بارودتي وأنا أنوي تهديده لأتبين الأمر.

التفت إليّ (كروماز) بهدوء وقد رآني قادمًا نحوه، بينما جميع من معه يركزون أنظارهم على الأرض في صمت وهدوء، وبينما أسير إليه لاحظت ما شتت انتباهي عنه.. بقع سوداء متناثرة أمام بوابة الثكنات!

انحنيتُ عليها أتصفحها، كانت ثمرات (باسيلي) جافة! الكثير منها وقد وقع بطول الطريق بين بوابة الثكنات وبين صف الطماجن الطويل الذي وصل معظمه الآن إلى الصف الأفقي للمدافع المنصوبة.

وشعرت بالشعر يقف على مؤخرة عنقي، هل يمكن أن تكون ثمار (الباسيلي) هذه هي نتوءات ظهر الطماجن؟ هل هذا يعني أنها خيول متنكرة؟! هذا يعني أن ظهرها العالي ليس ظهرًا عاليًا.. إنها....

وركبت جوادي وأخذت أجري تجاه الجنود التي تقتاد الطماجن التي ليست كذلك، وأنا أصيح فيهم: «توقفوا، إنها فخ». التفت لي آخرهم وقد كان يسير مع آخر طمجن فيهم بغباء وهو لا يدري ماذا أريد، فقلت له: «لقد أخفوا فوق ظهور الخيول شيئًا لتبرر هذا الارتفاع».

لم يفهم ما أقول ولكني رأيت عينه تتسع وهو يشير إلى نقطة فوقي! نظرت إلى حيث يشير فوجدت بعض الرجال يقفون فوق قمة أطول بناء في الثكنات ويمسك كل واحد منهم بقوس وسهم مشتعل بالنار.

جذبتُ الجندي بسرعة ووضعته فوق جوادي وأخذت أركض أسرع ما يمكنني بعيدًا عن قطيع الخيول السوداء الذي تخلل أغلبها وسط جيشنا القابع هناك، في اللحظة التي أطلق فيها الرجال الأسهم على ظهور أوسط الخيول في القطيع.

ثم سمعنا دويّ انفجار ضخم لم نسمع له مثيلًا من قبل، وشعرت بقوة دفع كبيرة تقذفنا من على صهوة جوادي لأجد رأسي بين الرمال. نظرت خلفي فوجدت وكأن الصحراء بأكملها قد اشتعلت، ومن بعيد كان الكثير من جنودنا يجري والنار أمسكت في جسده كله، بينما قد تدمرت مدافعنا بالكامل، ومن نظرة واحدة علمت أن القائد مع كل الذين كانوا هناك قد ماتوا جميعًا، لا يمكن أن ينجو من ذلك الانفجار أحد.

وقفت بصعوبة وأنا أفكر أن لا بد أن النيتروجلسرين هو ذلك الذي كان فوق ظهور كل هذه الجياد. وحين نظرت خلفي إلى الثكنات رأيت معركة أخرى غير متكافئة قد اشتعلت أمامها بين جنودنا على ظهور الجياد المُشتَّتين بحريق رفاقهم، وبين المتشيئين الذين ظهرت لهم أسلحتهم فجأة من مكان ما!

رأيت آخر المتشيئين يستخرج بارودة له من الرمال كانت مدفونة أمامه، ثم يطلقها على رجل من رجالنا. لقد كانت أسلحتهم أمامهم طوال الوقت، لا يفصلهم عنها إلا شبران من الرمال.

أخذت بارودتي وركبت جوادي وانطلقت أعاون رفاقي في المعركة، نفد مني البارود فأشهرت سيفي، لم نكن جميعًا رجال حربية، كان الكثيرون منا رجال ضبط لم يعهدوا المعارك المفتوحة، قُتِلَ من المتشيئين الكثير ولكن قُتِلَ منا أكثر. ورأيت (كروماز) وهو يتحرك بخفة هنا وهناك مع بعض رجاله يعقرون كل خيل يرونه، حتى سقط معظمنا. ومن فر منا تكفل الرماة فوق الثكنات بهم.

وضعتُ يدي فوق رأسي أنا ومن بقي من الضباط والجنود، فكَفّوا عنا، وانتهت المعركة وقد انقلب الأمر وصرنا نحن الأسرى بين أيديهم.

وصل (كروماز) وقد تغطى صدره العاري بدماء أعدائه، ومن حوله تجمع صفوة رجاله، بينما بدأ الرجال من بعيد يهللون بالنصر، نهاهم (كروماز) عن ذلك، وقال بجدية لاهثًا يخاطب الجموع: «أتذكرون ما قلنا هناك؟ قتال حتى الموت! لا أسرى.. فقط الموت!».

ثم نظر إليّ طويلًا وابتسم في غموض وبدا أنه قد سرّه أني بقيت على قيد الحياة، وأومأ إلى رجل ضخم الجثة بجانبه وأسر له بشيء وهو يشير إليّ. ثم انصرف عنا متجهًا إلى بوابة الثكنات وبرفقته بعض رجاله.

اقترب مني الرجل ضخم الجثة وعاجلني بلكمة على سبيل المهانة، ثم رفعني ببساطة بين ذراعيه ووضعني فوق كتفه داخلًا إلى الثكنات، وهو يقول: «لا بد أنك أثرت إعجاب (كروماز). لقد قال لي إنك الاستثناء الوحيد».

قلت بصوت مليء بالجزع: «الاستثناء الوحيد من ماذا؟!».

قال وهو يلهث: «لا تنظر هناك»!

ولكني نظرت. ورأيت جميع الأسرى وهم يُذبَحون، كل جندي وكل ضابط بقي من المعركة كان يموت الآن جاثيًا على ركبتيه. بينما يهلل الرجال ويصيحون رافعين سيوفهم إلى الأعلى. وفوق جباههم كانت علامتهم السوداء اختفت وقد غسلتها الدماء.

سولي

لم تكن المكتبة العامة لمدينة (مافرسك) تشبه أي مكتبة رأيتها، كانت صرحًا عظيمًا، ربما أكبر بناء رأيته في حياتي، كان مرشد الرحلات ينظر لنا وهو يقول مستعرضًا البناء الشاهق خلفه: «مكتبة (مافرسك)، سبب شهرة مدينتنا، وربما شهرة القطاع الغربي كله من قارة الجنوب، حاولت جمهوريات عدة أن تغير على المدينة عدة مرات في تاريخها فقط كي تستولي على كنوز هذه المكتبة. يقولون لو رأيت كتابًا في أي مكان على الأرض ولا توجد نسخة منه في (مافرسك)، فهذا ليس كتابًا وأنت قد أصابك الخرف!».

شعرت برهبة ممزوجة بالأمل، لربما رحلتي الطويلة التي قطعتها في ثلاثة شهور إلى قارة الجنوب هنا لم تكن هباءً، زاحمني بعض الشباب للمرور وعلى وجههم أعتى علامات الحماس مع صيحات انبهار، يسابقون بعضهم البعض للوصول إلى باب المكتبة الشهيرة، لم يكن عمري وقتها قد تجاوز الأربعين، ولكني أصبت بالشيخوخة بالفعل، كنت قد فقدت وميض الحياة وفقدني، وحين أرى من ينغمس فيها أشعر وكأني أشاهد عملية احتيال. احتيال معلوم العاقبة، الحياة سوف تخدعه وفي النهاية سيبقى هو الخاسر الوحيد! لم يكن هناك ما يثير حماسي بعد عودتي من الحافة إلا شيئًا واحدًا، شيئًا أعاد لي الأمل، والذعر، والتوجس، والشكوك!

أكمل المرشد كلامه يثرثر عن إحصاءات عدد كتب المكتبة وتاريخ أقدم مخطوطة فيها، ودخلنا المكتبة وكانت كما توقعت وأكثر، بمساحة واسعة وعدد لا يُحصى من رفوف الكتب مقسمة حسب فروع العلوم والمعارف. التفت لنا المشرف وقال بصوت مرح: «أين ذلك الشاب الذي صدّع رؤوسنا بالحديث عن الكِميت من بداية الرحلة؟». أشارت إليّ امرأة وقالت ضاحكة: «هو ذا». قال المرشد متلطفًا مشيرًا إلى إحدى طرقات المكتبة: «إليك سيدي تفضل، كل ما كُتِبَ في فلسفات وعلوم الكِميت».

شكرته وهززت رأسي ممتنًّا، واتجهت إلى القسم الذي أشار إليه رويدًا وأنا أتباطأ عمدًا حتى ابتعد الوفد عني وأكملوا رحلتهم، ثم غيرت مساري وابتعدت عن قسم الكِميت. هو لا يفهم! أنا لا أريد القراءة عن فلسفة ما، أنا أريد العودة بالزمن مئات السنين إلى الوراء!

تسللت بين الطرقات وبين الأقسام المختلفة، كان الناس يجذبون من الكتب ما شاؤوا ويقرؤونها حيث جلسوا إلى مكاتب طويلة بطول القاعة. وفي غير مكان توجد ما يشبه البكرة التي يستخدمها البحارة لرفع حبال الصواري وقد تم تثبيت أرفف صغيرة في كل نتوء منها، ويجلس إليها الباحث وقد وضع عدة كتب أمامه على رفوفها المتعددة ليتصفحها معًا باحثًا عن ضالته.

أخذت أبحث عن القسم الذي أريده حتى وجدته أخيرًا: (قسم التاريخ البائد)! لم يكن هناك من يهتم بهذا القسم، وبنظرة سريعة إلى كتبه شعرت بالإحباط، كانت كل الكتب على الرفوف لا تتجاوز الخمسين كتابًا، تصفحت العناوين سريعًا: (تاريخ الأراضي الجيرية)، (قصة الذهب وبداية استخدامه للتثمين)، (مقالة في الأشجار أذنيّة الأوراق).... أين ذهبت كل الكتب؟

مر بجانبي أحد أمناء المكتبة، فاستأذنته في السؤال: «من فضلك، أين أجد الكتب التي تتحدث عن تاريخ الإنسان؟».

أشار ببساطة إلى ركن التاريخ. قلت له: «لا. أقصد التاريخ القديم، ما قبل الكِميت، التاريخ البائد!».

قال: «سيدي، كل الكتب في القسم الذي أشرت إليه تتناول تاريخ إنسان ما قبل الكِميت الظلامي نهايةً بالعصر الحديث».

شعرت باليأس، فهززتُ رأسي له مبتسمًا وقلت: «نعم، لقد فهمت، شكرًا لك».

مضى لحال سبيله. شكرًا لك على لا شيء في الواقع. أنا لا أريد أن أقرأ ما كتبه الكِميتيون، أنا أريد الكتب التي أخفوها عنا!

أخذت أتجول في المكتبة من هنا لهناك، بعد ما مضى نصف النهار كنت قد رأيت المكتبة كلها، جلست على أحد المقاعد لأريح قدمي قليلًا، ودفنت وجهي بين كفّيّ، إذن كانت رحلة الشهور الثلاثة بلا طائل!

أرحت ظهري على مسند الكرسي الخشبي المريح، وأظن أني قد غفوت قليلًا، فقط تنبّهت على صوت صرير باب ثقيل،

كان أحد العمال يفتح بابًا جانبيًّا لم أكن قد رأيته من قبل. هل هو باب سري؟ بالطبع لا، هو يفتحه أمام الناس جميعًا في وضح النهار.

من بعيد بدا الممر المظلم الذي يقود إليه الباب وهو يختفي سريعًا إلى درج سفلي، وكان العامل الذي فتح الباب ينزل فيه حاملًا شيئًا على كتفيه، من الواضح أنه مخزن من نوع ما. بعد قليل خرج العامل خاليًا وترك الباب مفتوحًا في عهدة الحارسيْن دون أن يغلقه أحد.

حاولت أن أخفي حماسي واتجهت إليه في ثبات، على جانبي الباب كان يقف حارسان يراقبان الأمور، قدّرت أنهما سيمنعاني من الدخول. لا بد من طريقة!

قمت بالاتجاه إلى الطرف المقابل، حيث كان يجلس رجل كهل يتصفح كتابًا في فنون الغناء، نظرت إليه وهمست بيني وبين نفسي: (أرجو أن تسامحني).

اتجهت إلى أحد أمناء المكتبة المعنيين بكتب قسم الغناء وقلت له بصوت خفيض مشيرًا إلى الكهل: «سيدي، عذرًا على التدخل، أنا لست متأكدًا مما رأيته ولكني أحسب أني رأيت هذا الرجل هناك وقد اقتطع عدة ورقات من الكتاب الذي يقرؤه وأخفاها في حقيبته».

نظر الأمين لي ثم له، بينما أعطيت ظهري للكهل وقلت وأنا أستعد للرحيل وكأن الأمر لا يعنيني: «لا أعرف عمر الكتاب الذي يقرأ فيه، ولكنه يبدو أنه قديم بما يكفي، هذه الورقات تساوي مئات الروكيّات».

عدّل الأمين من قامته، وقال: «شكرًا لك يا سيدي، سوف نتولى الأمر».

ثم أشار إلى أحد الحراس بأن يتبعه، واتجه إلى الرجل وبدأ في النقاش معه، بهدوء في البداية ثم بعنف وصياح اجتذب إليه أعين الكثير من الزوار، وكما توقعت اتجه معظم الحراس إلى موضع المشاجرة، وصار الباب الثمين خاليًا من دون حراسة، للحظات تكفي لي للدخول إلى الممر المظلم والنزول في الدرج سريعًا قبل أن ينتبه الحراس مجددًا.

وصلت إلى الطابق السفلي، كان خانقًا ذا رائحة كئيبة، واسعًا بما يكفي ولكن بدون فتحة هواء ولا إضاءة إلا من بصيص نور خفيف يأتي من بهو المكتبة بالأعلى. انتظرت في مكاني مترقبًا أن يكون هنا أحد يكشفني، ولكن بدا أني وحيد هنا! ومن أعلى الدرج سمعت صوت الباب المعدني وقد قرروا إغلاقه أخيرًا، ثم صوت مزلاج وقفل معدني، وخطوات آخذة في الابتعاد!

لقد حُبِستُ هنا.

بعد عدة تخبطات في الظلام بدأت أتحسس طريقي. كنت أفكر: المكان لا تدخله إضاءة شمس ليلًا أو نهارًا، لا بد أن العمال يستخدمون مصابيح للرؤية، ولكن العامل الذي نزل لم يكن معه أي مصباح، لا بد أن المصباح هنا إذن، وأي مكان سيكون أفضل لتركه من مكان قريب من آخر الدرج؟

أخذت أتحسس الجدران وأختبر الأرض بأطراف قدمي قبل الخُطى، وجدته بالفعل في النهاية أخيرًا، أشعلت المصباح وآذت الإضاءة عيني التي كانت قد اعتادت على الظلام، ثم بدأت أتصفح المكان حولي.

كان بهوًا أصغر من بهو المكتبة بالأعلى ولكنه ما زال كبيرًا بما يكفي، وعلى كل الجوانب كانت هناك غرف مغلقة بأبواب تمنيت ألا تكون موصدة.

كانت أرض البهو قذرة، والسقف قد غزلت فيه كل عناكب العالم بيوتها، وتغوص قدمي في طبقة سميكة من التراب سمحت لي بالتعرف على أماكن آثار أقدام من ساروا هنا قبلي، تلك الآثار التي كانت جميعًا تتجه من الدرج إلى الغرفة الأولى ذهابًا وإيابًا، وفيما عدا ذلك بدا ألا أحد كان يدخل إلى أي من الغرف الأخرى.

اتجهت إلى الغرفة الأولى التي يدلف إليها العمال بكثرة وفتحتها، فوجدتها نظيفة نسبيًّا من الداخل وقد تناثرت آلات للنظافة وملابس عمال مكوّمة والكثير من بقايا الأطعمة اليابسة، وعلى الأرض كانت حشية مفروشة وعليها آثار أكواب متسخة وبعض ألواح لعبة الكيتا. أغلقت الغرفة التي لم تثر اهتمامي، وتمنيت أن تكون بقية الغرف مختلفة.

اتجهت إلى الغرفة الثانية، أدرت مقبضها وأنا أعلم ما سيحدث، وكما توقعت، كانت موصدة. الثالثة كانت كذلك أيضًا والرابعة، وهكذا جميع الغرف الأخرى كانت موصدة، غرفة العمال التافهة هي الغرفة الوحيدة المفتوحة، بينما أنا حبيس

هنا إلى الغد على أقل تقدير!

جلست على الأرض القذرة محبطًا، لا بد أن عباءتي الآن صارت بلون الطين، ولكني لم أبالِ بذلك، تحركت عدة فئران أمامي فلم أبالِ بهم أيضًا. كنت أشعر باليأس، بالتيه. وعاد إليّ شعور الشرود القديم الذي كان يلازمني قبل ذهابي للحافة.

مرت فترة من الوقت كافية كي أسمع بصوت الخيال بوابة المكتبة وهي تُغلق في وجه بقية الزائرين، والعمال والموظفون وقد انصرفوا، والشمس وقد غابت. شعرت أني قد عدت إلى غرفتي الضيقة أسفل سلم المخزن السفلي لسفينتي القديمة. وتذكرت (أفيري)، ووضعت يدي ألمس قلادة (ناجيلي)، وحين تذكرت (ناجيلي) سقطت دموعي برغمي.

يا حبيبتي، كم أشعر بالوحشة! كم أشعر بالحنين! كم أرجو أن أرتمي بين يديك في عناق يضم بعضي إلى بعضي، ويجمع أمري على أمري. يا ليتني ألقاكِ مرة أخرى فأخبرك كيف أصبحت من بعدك، شبح بارد من إنسان محطّم.

هل أنسى كل شيء؟ الحقيقة التي اؤتمنت عليها، السراب الذي تراءى أمامي، الأمل الذي تراقص حول جثة (ناجيلي) يعدني بفصل آخر لروايتي التي اشتقت إليها؟

ونظرت إلى السقف المغطى ببيوت العناكب، وقلت مناديًا لا أحد، أو ربما كل أحد، هل تسمعني؟ هل ستعينني؟ هل أنا مجنون؟

أجابني صوت خفي بداخلي أن لربما كان من يخاطب بيوت العناكب في سقف مخزن مكتبة لمدينة غريبة أتاها بحثًا عن تاريخ قديم لم يعد موجودًا، ربما لا يحتاج إلى أن يسأل نفسه عمّا فيه من الجنون!

أغلقت عيني وأخذت أفكر في تلك الفكرة الملحة التي طاردتني عامين متتالين، منذ أن فقدت (ناجيلي) لا أفكر إلا فيها: عمّ كان كل ذلك؟ هل (ناجيلي) تعني شيئًا لهذا الوجود؟ هل شعر بغيابها أحد غيري؟ هل أعني أنا لها شيئًا؟ كيف وقد ماتت؟ هل نوجد حقًّا في هذا العالم أم أننا مجرد فكرة في أذهان محبينا؟ ربما نحن مجرد صورة هامشية على حياة غيرنا، ربما حياة غيرنا هي صورة هامشية على حياتنا نحن. ربما لا يوجد من يعيش حقًّا. ربما كنا جميعًا في حلم رجل آخر، شخص قوي، قادر على تحويل أحلامه إلى حقيقة، ربما كان هذا الشخص قادرًا على أن يشرح لنا، لماذا أتى بـ (ناجيلي) إلى وجوده، ولماذا لقيتها، ولماذا حرمني منها؟

هل يمكن أن يكون كل هذا محض هذيان مني؟ هل يمكن أن تكون الحقيقة هي الهذيان الأكبر الذي علمونا إياه: ألا شيء هناك. لا سحر في هذا العالم. لا يوجد إلا ما نراه، كيفما نراه. (ناجيلي) لم توجد من أجلي، كان من الممكن ألا تكون، ولقيتها صدفة، كانت من الممكن ألا تكون، ورحيلها لا يهم، وحزني على فراقها لا يجدي، وسأذهب مثلها فأختفي، ويستمر العالم كما كان، ليعذب غيري كما عذبني بعناء وجود مُلغز، يستعصي على فهم الأذكياء، ويسخر من تأمل الحكماء، ولا ينصر إلا البُله الذين أكلوا كالهوام وتضاجعوا كالماشية، وماتوا كالجِيَف، وتجاهلوا كل خاطرة لمعت بداخلهم، كل لمحة من لمحات إنسان يتساءل، كل نظرة إلى السماء بدت قادرة على احتواء العالم بأكمله فيها. هؤلاء البُله كانوا هم الأصوب من كل حكيم يتذاكى كان عليه أن يأكل حتى يموت فخسب.

أي وجود لعين هو هذا إذن؟!

ثم رفعت بصري إلى السقف مرة أخرى، وقلت: «أنت فقط من يمكنه تفسير كل شيء. هل تسمح لي؟ هل تسمح لي أن أشعر بوجودك، فقط لأنه يفسر كل شيء؟!».

ودفنت وجهي بين كفيّ مجددًا. عليّ أن أتوقف.

أخذت أفكر في كيفية الخروج من هنا. هل يمكن أن يكون هناك درج آخر؟

كان الدرج الذي نزلته من الناحية الشرقية من المكتبة فلربما....

لحظة!

كان بهو المكتبة له جانب آخر، جانب طويل غائر إلى الداخل، وكأنه لسان بحر ينشق من ساحل عريض. لا يوجد مناظر لهذا الجانب هنا بالأسفل. من المفترض أنه بناء واحد.

قمت من مقعدي وقدّرت المسافة وأخذت أسير حتى وصلت إلى مكان اللسان التقريبي، هنا. من المفترض أن يكون

الامتداد هنا. وجهت مصباحي إلى الحائط وانتصب الشعر على مؤخرة رأسي، وشعرت بقشعريرة برغمي، كان الحائط مبنيًّا إلى آخر فتحة جدار آخر خلفه وبينهما مسافة قصيرة، تبدو للناظر إليها وكأنها حائط واحد، ما إن تقترب منها حتى تعرف أنهما حائطان أمام بعضهما. هل هذا التصميم مقصود؟

دلفت إلى الممر فوجدت بابًا آخر، شعرت بخيبة أمل، على الأرجح سيكون موصودًا كبقيتها، كتمت نفسي وأدرت المقبض.

وانفتح!

سيرا

أخذت أراجع بعض الأرقام وأنا أسخر من نفسي من الداخل، كوني أعيد نفس العمل الروتيني منذ أن خرجنا في رحلتنا لكي نبدو بصورة جيدة ليس إلا، في الحقيقة ليس لدينا الكثير من العمل لأنه ليس لدينا الكثير من الخطط أصلًا. إلا أنني كنت في حاجة إلى عمل، أي عمل يلهيني عن أفكاري السوداء، وجرح قلبي النازف دمعًا مستمرًّا من عيوني.

اقترب مني (هوسيرل) بشعره القصير المصفف بعناية والملتصق بمادة شمعية، لم أشأ أن أخبره أن تفاعل يود البحر مع دهان شعره لا يترك أثرًا لطيفًا آخر النهار، (هوسيرل) يحاول دائمًا أن يبدو بشكل أجمل من حقيقته، وهو جانب أنثوي غريب فيه رغم أنه فيما يتعلق بالإناث لا يفهم أي شيء آخر.

قال: «ما قصة الناجي؟».

- «اسمه (إكسيفر)».

- «وما موضوع الصُّفر هذا؟».

شرحتُ له ما قاله لنا (ليفاي)، ثم قلت: «يقول (ليفاي) إنه لا يعرف أحدًا قابل الصُّفر ونجا منهم!». رأيتُ نظرة القلق في عينيه فقلت له: «لا تقلق، لقد حوّلنا مسار السفينة، اتفق (تومان) مع (ليفاي) أن يلتف حول جزيرة (إلي) بدائرة متسعة، سوف يزيد هذا من رحلتنا يومين آخرين».

هز رأسه وانتهى الأمر سريعًا وكأنه كان يبحث عمّن يطمئنه، ثم جلس بجانبي وقال: «(سيرا) دعكِ من العمل قليلًا، تعالي نستمتع برحلتنا». ثم استند على ذراعيه وقال مبتسمًا: «لن نجد مثل هذا البحر والهدوء مرة أخرى، دعينا نثرثر قليلًا».

توقفت عن عملي ونظرت له متعجبة، ماذا يريد هذا المعتوه؟ أغلقت دفتري وفردت ساقي وقلت له: «حسنًا، ماذا تريد الحديث عنه؟».

- «لا أعلم، ابدئي أنتِ، حدثيني عن أبيكِ، لم يسبق لي أن رأيتك تتحدثين عنه، إلا مع (تومان) بالطبع».

تجاهلت تلميحه، وقلت: «أبي كان صاحب البيت الذي استأجره (تومان) حين قدم إلى جمهوريتنا مهاجرًا من الكَرْم، أبي لم يكن مغرمًا به، ربما لطبيعة (تومان) المنطوية، ولكن أظن أن (تومان) أحبه بصدق».

لم يعلق فأكملت قصتي: «مات بالمرض وأنا صغيرة، لم ينسني (تومان) قط، حتى بعد أن اشترى بيته وخرج من عندنا كان يكثر من زيارتنا.

أظن أنه كان... وفيًّا فحسب! أراد أن يكرم ذكرى أبي في العناية بابنته الوحيدة. عرّفني على العلم وعلى مبادئ الرياضيات، وحللتُ أول معادلاتي بصحبته. وحين تخرجت من مدرستي النظامية وجدتُ لنفسي مكانًا بجواره، ترقّى وترقيت معه، كان ولا يزال يرى عندي شيئًا لا أراه لنفسي، ربما لا يراه أحد غيره».

قال (هوسيرل) بخبث واضح: «لا تقولي ذلك يا (سيرا)، أنا متأكد أنك تستحقين ما وصلتِ له».

- «ماذا يعني ذلك؟».

قلب كتفيه وقال: «لا يعني أي شيء، أنا أمتدحك فحسب».

شعرت بغيظ عارم، هل يسخر مني؟

قلت له وقد عدت لأفتح دفتري: «هل تأذن في أن تتركني لأعمل إذن».

ابتسم في استسلام ثم قام متلكئًا وتركني ورحل إلى مقدمة السفينة. أتبعته نظراتي، وأخذتُ أتمنى لو كانت نظراتي تقتل.

عدت إلى عملي، أو إلى التظاهر بذلك، حيث لم يكن في داخلي سلام يكفي، وشعرت بحركة طفيفة خلفي، التفتُّ فوجدت ذلك البحار العجوز، (إيزرا) يجلس على مقربة مني خارج مقصورة آلات القياس، وقد أغلق عينيه وأراح ظهره على أحد الصواري، وكأنه في قيلولة.

- «عفوًا، هل كنتَ تستمع إلينا؟».

فتح عينيه، وابتسم محرجًا وقال: «في الحقيقة الصوت وصلني ولم أتعمد التنصّت».

ثم أردف: «سامحيني».

تجاهلته وعدت إلى الأرقام المملة، ولكنه قال: «هل تسمحين لي أن أحكي لكِ قصة؟».

نظرتُ له متعجبة، وجهه لطيف ودود، وأصبت بالخجل من عنفي السابق معه، وقلت: «بالتأكيد، تفضل».

- «في إحدى رحلاتي وقت الشباب، قبل أن يشتعل الرأس بكل هذا الشيب الذي ترين. كنت في إحدى المدن بالقرب من الساحل الشرقي لقارة الجنوب، تعرفتُ فيها على عالم من علماء الحيوان، حكى لي قصة عن حيوان شبيه بالقرد، تعرف عليه ورصده في غابات الكاليب، أطلق عليه صديقي هذا اسم البينولي، ما زلت أذكر وهو يحكي لي بفخر عن كل ما يتعلق به من أمور، كان يشعر أن كل فرد من البينولي هو ابنه الذي لم ينجبه.

كان البينولي يشبه القرود في كل شيء إلا أن له ذراعين أقوى ورأسًا أكبر وفراء أقل، وحجمه يبلغ نصفه أو يزيد قليلًا، قال لي صديقي إن أغرب ما بشأنه كانت في طريقة تكاثره. بعكس معظم الحيوانات الأخرى، لم يكن ذكر البينولي يسعى إلى الأنثى التي تثير إعجابه، على العكس كان يسيطر على بيتها، يطردها من جحرها، ويبعثر ثمار الفاكهة التي تجمعها، لسبب ما كانت مضايقته لها علامة على إعجابه بها، وحين كانت تجد الأنثى ذلك كانت تذهب إليه متوددة للتزاوج».

ثم صمت وقد فهمت أن هذه هي كل الحكاية!

قلت له: «ماذا تقصد من كل ذلك؟».

قال وهو يقوم من مقعده ويتوأه قليلًا بسبب تيبّس مفاصله: «لا شيء، خطر لي فقط أنك قد تحبين هذه الطرائف العلمية، لا أملك منها الكثير على كل حال، معظم قصصي كانت مع أنصاف متعلمين مثلي». ثم حياني وهم بالابتعاد.

في هذه اللحظة كان يخرج (إكسيفر) من كابينة غرف الإقامة، ذلك الناجي الذي أخرجناه من البحر صباح اليوم، وقد بدا بشكل أفضل الآن بعد أن نال قسطًا من الراحة مع بعض الأعشاب المسكنة ووجبة طعام ساخنة وملابس نظيفة.

حانت من (إكسيفر) نظرة تجاهنا والتقت عيناه بعيني (إيزرا)، ثم تصلّب وقد اتسعت عيناه في ذعر، وقال: «(سولي تراك)؟ هل هذا أنت حقًّا؟»!!

كالينا

كنت مستلقية في غرفتي أنعم ببعض الهدوء مع أفكاري السوداء حين سمعت جلبة وصوت جدال عنيف يأتي من مؤخرة السفينة، وضعت العباءة على كتفي سريعًا وخرجت من مقصورتي وأنا أعقص شعري بعود من النول، وجدتُ الجميع تقريبًا يتجمعون هناك، وكان الرجل (إكسيفر) ذلك الناجي المحروقة يده يشير بيده السليمة تجاه (إيزرا) وهو يصيح: «أنا أعرف ماذا أقول، لقد رأيته وأنا شاب صغير في أحد خطاباته بمدينة (ويلوه)، هذا (سولي تراك)، لن أنسى وجهه أبدًا».

دُهشت ونظرت إلى البحار العجوز حيث كان هادئًا صموتًا وقد حدّق فيه الجميع نظرهم، (سولي تراك)؟! هل يعقل؟

قال (تومان) يحاول أن يعقّله: «ربما قد اختلطت عليك الأمور يا سيد (إكسيفر)، نحن نتحدث عن ذكرى قديمة منذ أكثر من عشر سنوات».

قال (إكسيفر) وقد صار هستيريًّا يصيح في الجميع «أنا لا أنسى وجهًا رأيته، انظر أنت حتى إلى صوره المرسومة»، ثم التفت إلى (ليفاي) وقال: «هل توجد لديك هنا جرائد قديمة؟». هز (ليفاي) رأسه نافيًا، ماذا كان يظن الأحمق؟ بالطبع لا.

قال (تومان): «أنا أذكر الصور التي تتحدث عنها، وأنت تعرف أنها لا تكون دقيقة، لقد اعتمدت على الأوصاف المنقولة عن الرجل، والحق يقال، الصور لن تعضّد كلامك، هي لا تشبه هذا الرجل هناك في شيء».

كان (إيزرا) صامتًا بشكل مريب، ونظرت إلى (ميرون) وكان ظني في محله، (ميرون) يراقب (إيزرا) في توتر وكأنه ينتظر ردة فعله على الحدث حتى يعضدها.

تدخلت (سيرا) في الحوار وقالت: «(سولي) مات منذ سنين، أنتم ضخمتم الأمر، أنا واثقة أن ذاكرتك قد خانتك يا سيد (إكسيفر)، أرجوك اهدأ قليلًا».

تجاهلها (إكسيفر) وسار نحو (إيزرا) ووقف أمامه ونظر في عينيه في ثبات وقال: «يومها كنت تلقي خطابًا في السوق، وزّعت علينا أوراقك المنسوخة تلك الخاصة بال... كميت توبو، ألم يكن هذا اسمها؟ ما زلت أذكر حديثك يومها لأنني.. حسنًا لأنني ظللت أفكر فيه طويلًا بعدها. أتذكر؟ كنتَ تقول: لو كان الكِميت صادقًا لما وافق بعضنا بعضًا في حب كل ما هو جميل من القيم، يمكنكم أن تروا صدق أمري في حبكم للوفاء، كراهيتكم للخيانة، تعظيم أمر الصدق و...».

- «... واستقباح الكذب».

جاءت هذه من (إيزرا) نفسه وهو يكمل كلام (إكسيفر)، ثم تابع بعدها بابتسامة واسعة: «اليوم الذي ترشدني فيه تعاليمي الخاصة بعد أن حُفِرت في وجدان إنسان آخر لهو يوم سعيد حقًّا».

فغرت فمي غير مصدقة، وأخذت أقلب النظر فيه، (سولي تراك)، أشهر مطلوب في الجمهورية، معنا على ظهر السفينة؟! لماذا؟

كان أول من قطع دهشتنا الصامتة هو (تومان) حين أشار إلى (سولي) ناظرًا إلى اثنين من البحارة خلف ظهره، وقال: «ألقوا القبض عليه واحبسوه في مقصورة الخزين بالأسفل».

نظر الرجلان إلى (ليفاي) فأشار لهما برأسه مؤيدًا، وفي حين كانا يتقدمان نحو (سولي) الذي لم يُبدِ علامة على أية مقاومة، صحت أنا لأول مرة: «وهذا أيضًا»، اتجهت أنظار الجميع إلى موضع إشارة يدي حيث كان (ميرون) الناظر إلى الأرض في خجل، وأكملت: «لقد كان هو من كذب علينا بشأن صاحبه ذاك».

قال (تومان): «لا، ليس (ميرون)».

أجبته ضاغطة على أسناني: «هذا ليس راجعًا لك».

قال المأفون بغضب: «في الحقيقة، هو راجع إليّ فعلًا، كل ما يحدث على هذه السفينة يكون بأمري حتى تنتهي البعثة، يجب عليكِ أن تعلمي أنكِ مجرد مندوب، لا تملكين مالًا ولا علمًا، وظيفتك أن تراقبي في صمت، والآن عليكِ أن تراقبيني وأنا أخبرك أن (ميرون) يبقى على ظهر السفينة ولا يمسه أحد بسوء».

ابتسمتُ بهدوء ونظرتُ إلى (ليفاي) بنظرة ذات معنى، حيث تنحنح الأخير وقال: «أخشى يا سيد (تومان) أن كلامك

غير صحيح، وحتى تنتهي البعثة أرجو أن تعتبر نفسك ورفقتك أضيافي المكرمين، بينما السيدة (كالينا) هي التي تدير سفينتي بأمر من السيد (نوبير)».

نظر له (تومان) في حدة وقال: «حسنًا، اعتبروا البعثة ملغيّة، ولنعد أدراجنا الآن».

قال (ميرون): «(تومان)، لا تفعل».

التفت إليه بسرعة وقال: «اصمت».

بينما نظر لي (ليفاي) مستفهمًا وتبادل (تومان) النظرات مع (سيرا)، واقتربت أنا منه بهدوء وقلت بحزم رافعة بصري إلى حيث موضع عينيه المرتفعتين: «سوف أجعل هذا سهلًا لك، إما أن يصطحب البحارة صديقك (الشخصي) إلى مقصورة المخزن بالأسفل مع (سولي تراك)، وإما أن نعود أدراجنا الآن وتتم إلغاء البعثة للأبد كما طلبتَ أنت». ثم أضفت: «ولكن صدقني لو حدث ذلك فسنحرص جيدًا على ألا يسمع أحد مرة أخرى عن (تومان نيقه) الذي لو كان بنصف الذكاء الذي يحسب نفسه عليه لعلم جيدًا أننا قادرون على ذلك».

مرت لحظات من الصمت المشوب بتوتر الجميع ونظراته مصوبة إلى عيني ثم بدا كما لو كان استسلم، وابتعد عني ورحل عن المكان تمامًا، تبعته (سيرا) ثم (هوسيرل)، بينما أشرتُ أنا إلى (سولي) و(ميرون) وقلت لـ (ليفاي): «اقتادوهم للأسفل».

يولاند

- «هل أنت أحد رجال الضبط؟».

أفقت من شرودي على صوت امرأة تسألني، شعرتُ بالعجب، لم أكن أعلم أن هناك نساء أسيرات هنا.

قلت بصوت متحشرج: «من يسأل؟».

قالت: «اسمي (إيليت) أنا أسيرة هنا منذ فترة لا أحصيها».

تأملت الجدار الذي يفصلني عن محدثتي إذ كانت زنزانتها ملاصقة لزنزانتي، وقلت: «وماذا أتى بكِ إلى هنا؟».

قالت: «الحظ السيئ». ثم بعد برهة، أضافت: «أليس هذا هو ما أتى بك هنا أيضًا؟».

قلت وأنا أزفر: «لا علاقة للحظ بذلك، كنا أغبى منهم فحسب»!

قالت تشرح مقصدها أكثر: «الحظ هو ما جعلني أرى رجلًا يدعى (جيرالد) على سطح داري، أتى بي إلى هنا».

همّت بأن تقول شيئًا، فقاطعتها وأنا أقترب من قضبان الزنزانة: «هل يمكن أن تصمتي قليلًا؟! أريد أن أسمع ما يُقال في الخارج».

سكتت وبدأت تتضح الأصوات في الخارج، كان صوت (كروماز) وهو يلقي خطابًا في جموع رجاله: «الليلة سوف ننتقل إلى ثكناتنا الجديدة، وسوف نودع مكاننا الجديد باحتفال خاص»! هلل الجموع بصيحات استحسان.

أكمل (كروماز): «لدينا هنا رجل ضبط من الذين كانوا يشاركون في حفلات تعذيب إخواننا من المتشيئين هناك». صارت صيحات الاستهجان أكثر غضبًا.

ثم مرت فترة صمت ورجع صوت (كروماز): «إليكم رسالة كان كتبها أحد إخواننا لما كان محبوسًا هناك قبل أن يموت من آثار جراحه. اسمعوا جيدًا وقولوا لي ماذا يجب أن نفعل في ذلك الرجل في الزنزانة هناك»!

قال (كروماز) بصوت يبدو أنه يقرأ به في رسالة الرجل: «في اليوم الأول وضعوا شوكة بين ذقني وبين صدري، لم أكن أستطيع النوم مخافة أن تنغرس في أحدهما، لقد منعوني من النوم خمسة أيام متصلة حتى بدأت في الهذيان». ثم قال بصوت أعلى ولهجة حماسية: «ماذا يستحق أمثال هؤلاء الرجال؟» علت صيحات غضب من الجموع. «ماذا سوف نفعل به؟». تعالت الصيحات أكثر وأكثر.

ثم قال (كروماز): «هناك المزيد.. اسمعوا.. بعد ذلك وضعوني في المعصرة، حبال تشد أوصالي بعيدًا عن بعضها البعض حتى تتمزق أوتاري». علت الصيحات من جديد، فقاطعها (كروماز): «بعد ذلك وضعوني في حوض نحاسي وأشعلوا النار من تحتي...».

قطع علي استماعي الرجل الطويل ذو الشعر البني الذي كان يرافق (كروماز) يوم التفاوض، حيث دخل إلى قاعة الزنازين التي كانت خالية حتى من حارس الزنازين. كان جميع المتشيئين هناك يستمعون إلى خطبة (كروماز) لتحميسهم بإذاقتي أشد أنواع العذاب.

اقترب الرجل مني، وفي الطريق نادته المرأة (إيليت) وقالت: «سيد (جيرالد) أرجوك». نظرت له في قلق ثم تجاهلها حتى وصل أمام زنزانتي وظل ينظر لي طويلًا من خلف القضبان.

بدأت الكلام بسخرية: «هل تظنون أن لديكم وقتًا للانتقال إلى مكان جديد؟»

قال وهو يشير إلى أحجار المبنى: «لقد انتهى بناء الثكنات الجديدة بالفعل من قبل انكشاف أمر هذه!».

قلت بإعجاب لم أستطع إخفاءه: «(كروماز) يخطط لكل شيء».

ضحك وقال: «بل هو يرفض التخطيط لأي شيء».

قلت: «هل هذا هو ما يقنعكم به؟».

سكت، فسألت أنا: «ما الذي سيحل بي من عذاب؟».

نظر لي بنظرة ذات معنى، فقلت ساهمًا وأنا أنظر إلى الأرض: «إذن لهذا أبقاني دونًا عن رفاقي. كي لا أظفر بالموت النظيف».

ثم رفعت له عيني في أمل وقلت: «ألهذا جئتَ؟».

بدا وقد اندهش وقال: «ماذا تقصد؟».

- «ألم تأتِ هنا كي تعطيني الموت الرحيم؟».

- «وما الذي يجعلك تظن أني أريد ذلك؟».

قلت وأنا أقترب منه من خلف القضبان: «يمكنك أن تقول إن خبرتي سمحت لي بالتعرف على معادن الناس من مجرد النظر إليهم».

سكت قليلًا ثم أخرج بارودته من أسفل معطفه ووجهها إليّ، ثم خفضها وقال: «وهل تستحق أنت ذلك الموت الرحيم؟».

قلت: «أنت تعلم أني لم أشارك في أي من الفظاعات التي يذكرها (كروماز)، هو يريد معاقبتي فحسب بسبب ما حل بصديقه (سلار)».

قال بسرعة: «وهل هذا يجعلك بريئًا؟».

قلت بعنف: «وهل أنت كذلك؟".

فهم أني أشير إلى معركتنا الدامية، فقال مبررًا: «نحن في حرب».

فكرتُ قليلًا ثم قلت مشيرًا إلى الزنزانة بجانبي: «وهل كانت هذه تحارب؟!».

نظر إليها طويلًا، ثم سكت ناظرًا إلى الأرض في خجل. وبعد فترة صمت بيننا لم تتكلم فيها إلا العيون، رفع فوهة البارودة إلى رأسي، ابتسمت وقلت له بصدق: «أشكرك».

هز رأسه متفهمًا، ثم قال بصوت كالفحيح: «أغلق عينيك».

أغلقت عيوني في هدوء إلى ظلام دائم!

ميرون

- «بُنيّ، هل أنت مستيقظ؟».

شعرت بالغرابة! حين تطرق مسامعك أول كلمة بعد صمت يدوم قرابة اليوم والليلة فإنك تشعر بالغرابة حتمًا. لم أتبادل كلمة واحدة مع (سولي) منذ أن اقتادونا هنا.

كانت الغرفة في النهار أكثر رحابة عن الآن، وقد تكفل الظلام الدامس بتعميق شعور الوحدة الذي يغمرني. هل كنت غاضبًا من (تومان)؟ على العكس، لقد كنت أشعر بالخجل منه، ولكني لا أنكر شعرت بالعجب كونه لم يزرني هنا حتى ولو مرة طوال اليوم.

كنا في مقصورة مخصصة للخزين بجانب المطبخ في دور سفلي يشبه البدروم، المكان كله معبأ برائحة السمك، لم يكن هناك سمك، ولكن كان يوجد منه الكثير هنا لا شك في رحلات الصيد السابقة.

كانت الغرفة ضيقة خانقة موصدة علينا من الخارج، وقد تركوا أحدهم يحرس الباب وقد تحولت وظيفته فجأة من بحار مساعد إلى حارس زنازين.

أجبت (سولي) وأنا لا أراه: «نصف مستيقظ نصف نائم».

قال بعد برهة أخرى: «أردتُ أن أطلب العفو منك».

- «هذا ليس ضروريًّا».

ثم أضفت سريعًا: «ولا أظنه يفيد أحدًا الآن».

صمت ولم يعلق، فتحتُ عينيّ وبدأت أعتاد على الظلام قليلًا، وتبينت ملامح جسده حيث كان متكئًا على أحد حوائط الغرفة وساقه ممدودة أمامه، لم أر هذا الرجل إلا وهو يجلس كذلك، أظن أن لهذا علاقة بمرضه، مع سنه وقدمه المتعفنة قدّرتُ أنه يشعر من الآلام في جسده بأكثر مما يظهر بالفعل أو يشتكي. وبداخل نفسي لمع إحساس بداخلي حين فطنتُ له أول مرة، كنت أشعر أني أحب حقًّا ذلك الرجل. كان حبًّا ممزوجًا برهبة لم أدرِ مصدرها، ربما كانت الشهرة، وربما كانت الإعجاب بمن يقدر على أن يفني حياته من أجل فكرة، إعجاب يستحقه كل من يفعل ذلك حتى المخطئون منهم!

قلتُ وقد جعلني الظلام والوحدة أكثر هشاشة من قبل: «هل لي أن أسألك سؤالًا؟».

- «أي شيء؟».

ترددتُ قليلًا، ثم قلت: «قلتَ لي إنك تظن أني لم أكن صادقًا مع (دال)».

- «لم تكن».

- «أي شيء تقصد بالضبط؟».

- «حين قلت إنك لم تقفز يومها لأنك خشيتَ أن تضيع ذكرى ابنك معك. لن أشتري هذا الكلام بنصف روكيّة!».

قلت بنبرة عدائية قليلة: «وأنى لك أن تجزم بكذبي بأمر هو داخلي؟».

قال وهو بعد كل ذلك لم يغير جلسته، مستندًا برأسه محدقًا في الظلام لا يتحرك: «لأني جربتُ ما أنت فيه، ربما قبلك بكثير، ربما حزنك أعمق، وربما أنا، ولكني أعلم أنه أتى من ذات العالم! حزني وحزنك ظلان، وفي عالم النفس كل الظلال تتشابه!

لقد فقدتُ زوجتي، عشتُ بعدها قرابة الأربعين عامًا، لم يمر عليّ يوم من حينها إلا وأنا أتمنى أن تذهب من داخل وجداني كما ذهبت خارجه! حين تفقد حبيبًا عليك فأنت لا تحزن لرحيله عنك فعلًا، أنت تحزن لبقائك دونه! في كل مرة كنتُ أذكر (ناجيلي)، نظرتها حين تضحك، ثورتها حين تغضب، وبسمتها حين تحنّ، في كل مرة أذكر حبها لي، رغبتها في البقاء معي للأبد، وتشبثها بثيابي حين كنت أودعها للعمل، في كل مرة أذكر شوقي لها كنت أموت من جديد، لم يمر علي يوم إلا وأنا أتمنى من كل قلبي لو أستطيع مبادلة كل شيء آخر في سبيل هدية النسيان.

لا تقل لي إنك خشيتَ على ذكرى ابنك أن تضيع معك، في نظري فضياع هذه الذكرى كان سببًا كافيًا للقفز بمفردك. ثمة شيء آخر، سبب آخر جعلك تخاف في هذه اللحظة من الرحيل بعد أن صعدتَ ألفًا من الدرجات مصرًّا عليه.

أرى السر بداخلك ولا أتبينه، لا أدري ما هو ولكنه ثقيل! أشعر بك من يوم أن رأيتك يا (ميرون)، أشعر بالعبء على كاهلك ولا أكاد أجد لك على ثقله تحملًا».

آه يا (سولي) ماذا تفعل؟ كفاك عبثًا بجراحي أرجوك!

كانت هشاشتي تتزايد، وأشعر وكأن الظلام بداخلي، قد ابتلعته وصار بقلبي، وأخذت أراقب برعب نظرة عين (ألفن) الجاحظة وهي تملأ الفراغ أمامي، أرجوك اذهب. أرجوك.

حين سمع (سولي) نشيج بكائي فاحترم بكائي بصمته حتى انتهيت.

- «أنت محق، لقد كنت كاذبًا، في تلك اللحظة وأعلى الفنارة، وبعد أن قفز إخواني هالكين، شعرت بالخوف، شعرت برعب شنيع، لم أشعر مثله في حياتي، ليس من الموت، ليس من اليقظة بعده لو كانت هناك يقظة، ليس من ضياع ذكرى (ألفن). ولكن...»

أكملت بعد تردد: «... ولكن من أن أذهب إلى حيث ذهب، فأقابله مرة أخرى!».

قال باهتمام: «لماذا؟».

لم أرد.

قال: «بني، ماذا حدث لابنك؟».

طال الصمت أكثر ثم قلت وأنا أتقدم بداخل نفسي وأتأخر: «كان (ألفن) هو نبع السعادة الذي وصلت إليه وأنا ما زلتُ بعد صغيرًا، لم أذق الكثير من الحب مع أمه، لم أذق ربعه من والديّ، لم أشعر بنور يضيء لي صدري قبل أن أتعرف على ضحكته الرفيعة حين كان يصل إلى ألعابه في فناء منزلنا الريفي.

حين كنت أطبب الأطفال، وبعد أن انتشر في وادينا وباء الوحمة، حين كنت أرى عجز المرض وهو يتركنا نحن الآثمين وينال من كائن بكل هذه البراءة والنقاء كنت أشعر بالأسى، وأشعر بالرعب، أقول لنفسي كيف سيكون حالي لو أصاب ابني ما أصابهم؟

شعرت بالفزع من الفكرة، رجعت من عملي ذات يوم وأنا مصر على الرحيل، فاجأت زوجتي حين حملت إليها كل ما معنا من أموال، كل متاعنا الباهظ، وقلت لها: هيا. لم يتسن لها وقت للاعتراض، في ظرف ساعات قليلة كنا على متن عربة للرحيل. وفي الطريق بدأ حلقه يتورم، بدأت عينه تنتفخ، بدأت الوحمة في الظهور أسفل رقبته، وكانت الحمى قد ضاعفت من سرعتها إليه، وكأنها كانت تسخر مني ومن فراري، أحسبتَ أنك لن تصاب بكل هذا السوء لمجرد أنك لا تقدر على تحمله؟ كانت الحياة قاسية، ولم أكن أعلم أن قسوتها قد تنال من نقاء (ألفن)!

سبعة وثلاثون طفلًا حاولتُ تطبيبهم من ذلك المرض في وادينا، وانتهى سبعة وثلاثون منهم بالموت. كنت أعلم بحكم عملي ما يخجل العامة من الاعتراف به، ما تخشى زوجتي من الإقرار به، كنت أعلم أن هذا المرض حكم بالإعدام، إعدام بطيء، مؤلم، قاسٍ، يعتصر الألم منك اعتصارًا، ثم يعتّقه، ويذيقك من مزاجه كأس الموت.

سبعة وثلاثون طفلًا قبل (ألفن)، كنت عددتهم بنفسي واحدًا واحدًا، والآن سيكون (ألفن) هو التالي! شعرت بالهلع، أخذته من يدي أمه وركضت به، ربما لو خرج من وادينا قبل الأوان، ربما كان يُشفَى، ربما لو ذهبتُ به إلى أعالي الجبال ينقيه الهواء من مرضه! لم أكن طبيبًا ساذجًا كي أفكر كذلك، كنتُ طبيبًا أبًا كي أفكر كذلك!

كنتُ معه وحدي ممتطيًا الخيل وأركض لا أعرف أين أذهب حين حانت مني التفاتة إليه فعرفتُ أن الأمر انتهى، كان يهذي، يرتجف، يتألم، وقد صارت عيناه بلون الدم، وانتفخ عنقه وتورّم، وقال من بين أسنانه المتعبة: «أبي، توقف، أنا متعب، أبي أرجوك».

توقفت على قارعة الطريق، سقيته من الماء معي، بحثت في حقيبة أعشابي عن بعض (السابير) فلم أجد، كانت المسكنات قد نفدت كما نفد أملي.

عدت إليه فاحتضنته وأخذت أنشج بالبكاء بصوت مكتوم مخافة أن يسمعني، ولكنه لم يكن يسمعني، لم يكن يسمع أحدًا، كان يهذي، يخرف، كان عقله قد ذهب، تمامًا مثلما حدث للأطفال من قبله، وطوال الساعات التالية، لم يصدر صوت في الطريق القفر إلا من حَمحَمة خيلي الجائع، وتأوه (ألفن) المستمر.

لم يكن يكف عن الأنين، لم يكن.. أنت لا تفهم، لم يكن يكف عن الأنين. لم أرد أن.. لم أرد أن يشعر طفلي المسكين بالمزيد من الألم، كنت أعلم أنه سيموت ولكن لماذا الألم؟ أريد لألمه أن يتوقف، لم يفلح بكائي، لم يفلح عناقي، لم تفلح قبلاتي، كان يتأوه، بشدة، وأخذتُ أصيح من بين دموعي المنهمرة: أرجوك مُت، أرجوك يا (ألفن) مُت!

حين تكون أبًا فإنك لا تحتمل صراخ طفلك، ليس من المفترض أن يتألم، لماذا تعيش إذن؟ إن كنت ستسمح لطفلك بأن يعتصره الوجع!

زاد الألم عليه، من بين هذيانه كان يتكلم بكلمة واحدة: أبي، أرجوك، اجعله يتوقف. اجعل الألم يتوقف، أرجوك يا أبي. أصبت بالجنون، تركته وركضت ثم عدت ثم ركضت ثم لطمت ثم صرخت. أرجوك يا أبي، اجعل الألم يتوقف، أرجوك.

أخذت أصرخ وأنا أشد شعري من بين شهقات بكائي: أرجوك يا (ألفن) مُت سريعًا. أرجوك يا ألفن، اجعل الألم يتوقف. ومن دون تفكير جريتُ على حقيبة أعشابي، أخرجت منها عصارة عشب ورقة الشلوى، نقطة واحدة تكفي لعلاج الكبار، ربما القارورة كاملة تجعل الألم يتوقف عند طفل صغير!

لم أكن أفكر، لم أكن أرى حتى، من بين دموعي، صراخي، شهيقي، مخاط أنفي، كنت أرى وجهه بالكاد، فمه وأنا أفتحه، القارورة وأنا أصبها في حلقه، أطبقت فاه على الدواء، ولكن الدواء لم يكن النهاية الرحيمة لحياته كما كنت أتمنى، صار ينتفض ويتشنج ويتقيأ ويتأوه أكثر! لقد زاد ما فيه من الألم ونضب الأمل عن آخره، تضاعف ذعري وأنا أرى طفلي الصغير وهو يتشنج ويتلوّى، أخذت أحتضنه وأبكي، أطبقت يدي على فاه الصغير، دفنت أنفه في صدري، ضغطت على ظهره، منعت الهواء من أن يصل إلى رئتيه ليطيل عذاب حياته، منعت الحياة من أن تنال منه مجددًا! أرجوك يا ألفن، اجعل الألم يتوقف، أرجوك!»

ثم أجهشت في البكاء، لا أدري كم بكيت، قلت بعدها صارخًا فيه من بين شهقاتي: «هل تريد أن تعرف لماذا لا أقدر على إنهاء حياتي؟ لأني أخاف أن تكون مصيبًا. أخاف من الصحوة بعد النومة الأخيرة لأجد (ألفن) أمامي، أخاف من لقياه! من نظرته اللائمة إليّ، لن أستطيع تفسير ما فعلته لمخلوق، لا أنت، لا زوجتي التي صارت طليقتي، لا أنا، ولا لـ (ألفن)».

توقفت قليلًا محاولًا أن أكتم صرخاتي اليائسة وقلت: «أخاف ألا يسامحني».

ثم لم يكن هناك سوى الصمت، لا يقطعه إلا نشيج بكائي، ومن بين صوت شهقاتي كنت أسمع صوت بكاء رجل آخر، كان (سولي) يبكي معي، ولاذ بعدها بصمت كامل.

سولي

أخذت أتقلب بين الكتب غير مصدق، وكأني قد وقعت على كنز.

كانت الغرفة التي وجدتها قاعة واسعة مترية تحتوي عدة مناضد عليها صناديق خشبية مرصوصة بعناية فوق بعضها البعض، الصناديق ملأى بكتب مترية نزعوها من المكتبة إلى هنا منذ زمن غير بعيد. أخذت أفتش كثيرًا حتى وجدت الصندوق الذي يحوي كتب التاريخ البائد التي كنت أبحث عنها. بعد عناء خلّصته من الصناديق المحيطة وجذبته إلى ركن الغرفة حيث جلست أقرأ.

كانت أغلفة الكتب تحكي كل شيء توقعته، كل شيء تمنيته، كل ما كنت أخاف منه!

انتقيت كتابًا عنوانه: (الإنسان والطبيعة)، وأخذت أقرأ.

[..... أيًّا كان سبب شعور الإنسان بامتيازه عن الطبيعة فقد كان جليًّا بالنسبة لأي مفكر في ذلك الوقت. لم يكن هناك اتفاق بين أهل الحكمة على شيء قدر اتفاقهم على أن الإنسان يدرك ذاته ويدرك العالم ويدرك الفرق بينهما.....].

وبعد عدة صفحات أخرى:

[..... بعض هؤلاء كانوا يقدسون أجسامًا من جنس الطبيعة عن خوف أو شعور بالتفاؤل والمزجيّة. البعض كانوا يرون أنه لا بد وأن كان خفيًّا لا نراه ولا يرانا ولكن نشعر بوجوده من آثاره .....].

[..... هناك من تحدث عن كائن متكامل الصفات بدأ كل شيء منذ الأزل وتصير كل الأمور إليه، هؤلاء كانوا أكثر أهل قارة الجنوب، ولكنهم أخذوا في التناقص شيئًا فشيئًا. وصار أكثر أهل الشمال على تسميتهم: المتشيئين ....].

المتشيئون!

تذكرت مطلع لفافة الكميت توبو التي أخذتها من الشيخ الكفيف عند الحافة: [كان المتشيئون على صواب، الكِميت يكذب، نحن لسنا وحدنا في هذا العالم.....].

هل يمكن أن يكون قاصدًا لذات الشيء؟!

أخذت أقلب في عناوين الكتب، باحثًا عن أي كتاب عن المتشيئين، لم أجد!

تناولتُ كتابًا آخر، عنوانه (عن الكِميت وانتهاء العالم كما كان)! وأخذت أقرأ فيه بنهم:

[..... كان لا بد من دستور يضعونه بينهم لقتل كل هذه الأفكار المتضاربة، كل هذه الرؤى الفوقية كانت تهدد أي طريق لإصلاح مدني حقيقي، اتفقوا على أن الوقت قد حان لإنزال نظر الإنسان من السماء إلى الأرض، وأنه لا مزيد من الاعتبارات الأخلاقية المزعومة، يجب أن ينتصر القوي.. ثم يفرض أخلاقه! ....].

[..... هناك من قاوم الكِميت وتمت معاقبتهم بحرمانهم من كل أسباب الحضارة، الهندسة والطب والفلك والكيمياء تم قصر نتاجهم على جمهوريات دساتير الكِميت، تم حرمان أهل السماء من النور، سرعان ما اقترن الظلام بها، وصار الناس يتحدثون عن عصور ما قبل الكِميت بظلام ما دون الكِميت ....].

[..... تراكمت السنون على الناس وتم محو بداية الكِميت عنهم، يجب أن يظل في نظرهم بلا بداية، يجب أن يظنوا أنه قد جاء مع الإنسان، نسي الناس السماء بسرعة أكبر مما تخيلها واضعو الدساتير أنفسهم ....].

وضعت الكتاب عني وأنا مأخوذ بأفكاره، لقد كان العجوز على حق. لقد تم صنع الكِميت!

نظرت إلى الفراغ أفكر، إلى تلك القاعة الواسعة الخاوية إلا من الصناديق التي حاولت إخفاء علوم غير ضرورية لقادة الإنتاج، وقد ارتسمت عليها ظلال الأضواء الخارجة من مصباحي الزيتي الذي بدأ ضوءه في الخفوت.

كنت شاردًا في معنى ما قرأت وفي خطوتي التالية، محدقًا في بقعة بيضاء أسفل إحدى المناضد أمامي حيث كانت هناك أشياء مكوّمة لم أتبينها إلا من تلك البقعة البيضاء الصغيرة. بعد قليل من الوقت فطنت إلى أن هذه ليست بقعة واحدة، بل اثنتين. بعد مقدار أكثر من الوقت فهمت أنها ليست بقعًا، وإنما انعكاس ضوء مصباحي على عيني أحدهم، عيني إنسان مختبئ هناك كان يراقبني في صمت ناظرًا إلى عينيّ مباشرة!

أمرت الفتى الذي وضعوه لحراسة الغرفة بأن يفتح الباب، بدا متلكئًا فأزحته جانبًا بقوة وفتحت الباب بنفسي، قال شيئًا يعترض به ولكني لم أعره انتباهي، دخلت إلى الغرفة التي كانت غارقة في ظلام دامس قبل دخولي رغم كوننا في الصباح، استيقظا على إثر النور الساطع الذي أصاب أعينهما من الباب المفتوح، اعتدل (ميرون) جالسًا مغمضًا عينيه مبعدًا إياها عن الضوء، بينما كان (سولي) في الجهة الأخرى من الغرفة ما زال مستلقيًا، قال لي وقد استيقظ لتوه: «سوف نحتاج إلى أغطية، الجو بارد ليلًا».

قلت: «نأمل ألا تضطروا إلى المكوث هنا ليلة أخرى».

ثم اتجهت إلى (ميرون) مباشرة، وركعت على ركبتي مواجهًا إياه وقلت: «هل أنت بخير؟».

قال بصوت متكسر من أثر النوم وهو يحاول أن يفتح عينيه ليراني: «نعم، لا تقلق».

- «أخبروني أنك رفضتَ أن تأكل».

- «لا أشعر بالجوع».

قلت وأنا أتأمل الغرفة القذرة المليئة برائحة السمك: «ليس مكانك أن تكون هنا».

قال مشيرًا إلى (سولي): «ولا مكانه!».

اتجهت إلى (سولي) الذي كان قد قام وأسند ظهره إلى الحائط وقلت: «إذن أنت هو (سولي تراك) الذي قلب الجمهورية رأسًا على عقب».

قال ولم يبدُ سعيدًا بكلامي الذي قصدتُ به مدحًا: «أنا هو».

- «لماذا تسللت إلى سفينتنا؟».

- «أحتاج إلى الوصول إلى الحافة».

صدمت من بساطة مقصده، هذا هو الأمر وفقط؟!

أكمل هو: «حياتي تنتهي، أحتاج إلى إنهاء بحثي كذلك».

- «عن أي شيء تبحث عند الحافة».

لاذ بالصمت كما توقعت، أعدت السؤال عليه فقال: «سبق وقلت لك، سوف أخبرك بمرادي بمجرد أن تخبرني بأمر القلادة!».

- «انس القلادة اللعينة يا رجل ودعني أساعدك».

- «لو أردت أن تساعدني فلنبدأ بالأغطية».

هززتُ رأسي في استسلام ثم قلت لـ (ميرون): «هل لو سألتك عن علاقتك بهذا الرجل سوف تحدثني عن الحُلِيّ التي أستخدمها أنت الآخر؟».

قال (ميرون) وقد بدا في مزاج سيئ لا يتحمل المزاح: «لقد رأيت (سولي) لأول مرة في حياتي منذ عدة أيام فقط».

ثم أردف: «لقد كنت صادقًا معك، (سولي) هو أكثر من يفهم عن الحافة وكيفية الوصول إليها، فهو....».

- «.... فهو قد ذهب إلى هناك من قبل ووجد هناك مخطوطًا عنوانه: (كِميت توبو) فعاد من الحافة ونقشه ونقله وأخذ يبشر الناس بأن الكِميت خدعة، أليس كذلك؟».

ثم أخرجت من جيبي اللفافة التي وجدناها في غرفة (سولي) بعدما فتشناها، مخطوطة (كِميت توبو) الأصلية، وفردتُها أمامي مستمتعًا بنظرات (سولي) الممتعضة إذ يعبث غيره بكنزه الخاص. ثم بدأت في القراءة: (كان المتشيئون على صواب، الكِميت يكذب، نحن...).

قاطعني (سولي) متعجبًا: «هل تعرف لغة اليور القديمة؟!».

- «العلم يُكتب بلغة اليور في الأوساط الأكاديمية العريقة. أنتَ من أتعجب من كونه يعرف هذه اللغة».

- «إنها لغتي الأم هناك في موطني أسفل وادي الرمال».

- «يا لها من مصادفة سعيدة، أن تجد مخطوطة قديمة في مكان سحري غامض لتجدها كُتِبَت بلغتك الأم أنت بالذات»!

تجاهل (سولي) سخريتي منه وقال وهو يرنو ببصره إلى الحائط المقابل: «(ميرون) مخطئ، أنا لن أساعدك على الذهاب إلى الحافة أو الرجوع منها، لأني ذهبت وعدت وأنا فاقد الوعي في كلا الرحلتين! ربما أنا لا أستطيع مساعدتك في الكثير».

ثم نظر إليّ قائلًا: «ولكني أعلم أنكم حمقى، تعديل مسار السفينة لن ينقذكم من الصُفر أبدًا! سوف يؤخرهم قليلًا فحسب. أما أنا فأستطيع مساعدتكم للنجاة منهم بالفعل!».

صدرت أصوات عالية من المنضدة التي كان يأكل عليها (تومان) و(ميرون) و(سولي تراك)، فانتبهنا إلى جدالهم أنا و(سيرا) التي صرتُ أتناول معها طعامي دائمًا.

كان (تومان) يصيح بصوت عالٍ وبنبرة مستهزئة: «فقط لأننا نشعر بالخلود بداخلنا يعني هذا أننا سنعيش بعد الموت؟ هذا هو كل ما في الأمر؟ هذا ما جعلتَ الناس يموتون من أجله؟».

قال (سولي تراك) شيئًا بصوت هادئ وبسمة عملية جافة، لم أستطع تبينه. هززتُ رأسي لـ (سيرا) مودعة، وقمت تجاه منضدتهم مدفوعةً بفضول لأسمع محتوى النقاش.

لم أكن شغوفة بحوارات المتشيئين طوال عمري، ولم أسمح لأحد أن يجرني في نقاش عنهم أو عن أفكارهم، كانوا بالنسبة إلي شأنًا غير هام، عَرَض طارئ أصاب الناس سرعان ما سيزول. ولكني الآن مع (سولي تراك) شخصيًّا! بعد أن عاد بشكل ما من موت استمر عشرة أعوام. حتى بالنسبة إلى شخص يعتبره مجرد مجنون، فهو حدث جلل. الشهرة لها ثِقلها، لا شك في ذلك.

لما اقتربتُ أكثر صار الكلام أوضح، كان (سولي) يقول: «لقد تكلمتُ مع الكثير من الكِميتيين، صارحني الكثير منهم أن أكثر الأشياء غير المفهومة لديه هو انتظار الموت، ما معنى أن أكون غير موجود في وقت ما؟ ما معنى أن يفنى وجودي؟ أن تنتهي عجلة الشعور الدائمة في ذهني، أن يأتي وقت لن أشعر فيه بلحظة قادمة؟».

أصدر (تومان) صوتًا متضجرًا من فمه مع علامة استهجان على شفتيه فتابع (سولي) عاقدًا يديه على صدره وقد بدا غير عابئ باستهجانات (تومان): «قرأتُ الكثير من كتب التاريخ البائد، كتب لم تصل إليكم أنتم. دعني أؤكد لك شيئًا. لم توجد أمة من الأمم قبل الكِميت كانت تظن أن الموت يضع حدًّا لوجود الإنسان! البعض كان يؤمن بأن نفسه تدخل إلى وعاء جسد آخر. البعض كان يؤمن أنه سيعيش في قبره مجددًا، البعض كان يتحدث عن مكان جديد يُحاسَب فيه على أعماله وقت حياته».

لاحظ (سولي تراك) أني أقف خلفه فالتفت إليّ ثم عاد يخاطبنا جميعًا وقال: «الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعلم أنه سيموت، وبرغم أنه ينتظر الموت فإنه الكائن الوحيد أيضًا الذي يعيش بشكل متجاوز لهذا الانتظار وبطريقة تشكك في أن يكون الموت نهاية فعلية لوجوده!».

قال (تومان) بعصبية غير مبررة: «ربما لأن الإنسان أحمق فحسب! هل فكرتَ في ذلك؟».

فكر (سولي) قليلًا وقال: «أنا أجد كل الدعوات لاعتبار حماقة الإنسان مغرية للغاية. لك أن تتيقن أني أتشكك في كل كلمة أقولها لك مثلما أتشكك في كل كلمة أسمعها. أنا وأنت تنالنا من الحماقة الكثير، ولكن من الحماقة ما هو أهون من بعض! ربما أكون سخيفًا حين أخبرك أني أشعر بقرارة نفسي أن الرحلة لن تنتهي عند النفس الأخير. ولكنك تبدو أسخف مني بكثير وأنت تحدثني عن حياة لم يكتمل غرضها، ولم يتحقق شيء من أمانيها! عن مظالم لم يُقتص لأصحابها ولن يُقتص أبدًا، وشعور بالظمأ لعدالة لن تكون. عن عالم كان يعبث معنا بلعبة ثقيلة، وضعنا على خشبة مسرح كي نتصارع ثم نموت دون أن نعلم شيئًا عن غرض اللعبة وقد خفيت علينا الكثير من قواعدها. ألا يثير تعجبك أن يكون العالم قد أوجد بدون غاية بشرًا مهووسين جدًّا بغايات الأمور؟!».

لم يرد أحد، فأكمل هو: «إن كان من شيء أنا على يقين منه فإليك هو: أنتَ لستَ مجرد لحم وعظم، أنتَ لستَ مجرد حيوان آخر كذلك. أنتَ ككل البشر تحمل إحساسًا بالتجاوز هو أكبر منك بكثير، يمكنك أن تحتضن العالم كله في نظرة عينيك أو تختزل كل معارفه بقناعة ذاتية وقرت في قلبك. لا أعرف ما سيحدث لنا بعد الموت يا سيد (تومان) ولكني أعرف أن شيئًا منا يبقى بعد أن تكف أجسادنا عن العمل. شيء هو الفارق بين رجل من الأحياء وجثة متحللة، ذلك السحر الذي كان يملأ الوعاء الذي صار خَرِبًا الآن، تلك النضارة التي كانت تكسو وجهه بكل التعابير الممكنة. شيء ما يفرغ من جسدنا حين نموت، يرحل بعيدًا، ربما يموت هو الآخر بعد ذلك، لا أعلم. كل ما أعلمه أنه يستحق نهايةً أفضل، وحياةً أكثر اكتمالًا»!

قال (تومان) فجأة: «زوجتك ماتت، انتهت، تحللت جثتها، لن تقوم من الموت لأجلك، أنت لن ترى زوجتك ثانيةً!».

انتبه (ميرون) لأول مرة وقد كان غير مكترث طوال الوقت لما يقال، ونظر إلى (تومان) نظرة كراهية، بينما تدخلتُ أنا في المجادلة وقلت: «سيد (تومان) لا أظن أن هذا كان ملائمًا منك!».

التفت إليّ وقال مشيرًا إلى (سولي): «لا، سوف أخبركِ أنا ما لا تعرفين عن (سولي تراك)! هذا الرجل أشعل صراعًا راح ضحيته الآلاف بين قتيل وسجين وقابع في بيته خوفًا. كل ذلك لأن لديه زوجة ماتت فشعر بالحزن من أجلها وغاب من بعدها عدة سنين ينقب في كتب قديمة ويرتحل بين جزر الشمال والجنوب ويعود بأفكار غريبة وحماس أعجب. كل هذا لأنه يريد أن يعود إلى أحضان زوجته في العالم الآخر. يظن أنه يثير بهذا إعجابها!»

نظرتُ إلى (سولي) الذي كان محدقًا في طبق طعامه الفارغ مبتسمًا في هدوء مريب، ثم قال بعدما فرغ (تومان) من ثورته الغاضبة: «(تراك عاشقًا)، جول سونبرن. لقد قرأتُ هذا الكتاب، وكل الكتب الأخرى التي تحدثت عني كذلك. بعضها كان ظريفًا، لكن لم يأخذ أحد من مؤلفي هذه الكتب كلمة من فمي. ربما أظرف ما فيها هي ثقة هؤلاء الكُتّاب في أنفسهم».

قلتُ في محاولة لتلطيف الأجواء: «دعونا من هذه المجادلات الحزينة، لقد اقتربنا من جزيرة (إلي)، من المفترض أن نرسو هناك قبل الغروب، أقترح أن نركز على ما سنفعله لاحقًا».

ثم جذبت مقعدًا للجلوس بجانبهم وأشرت إلى (سيرا) التي كانت تجلس منفردة للانضمام إلينا، ثم أشرت إلى منضدة ثالثة كان يجلس إليها (هوسيرل) و(ليفاي) أن ينضموا إلينا بدورهم. ومن دون أن يدعوه أحد، قام (إكسيفر) من مقعده البعيد وجذب مقعدًا ليجلس بجانبنا.

لما اجتمعنا جميعًا حول المنضدة الصغيرة، قال (هوسيرل) متظرفًا: «ما زال هناك مكان حول هذه المنضدة، أقترح أن ندعو طاقم البحارة».

قلتُ موجهة الكلام للجميع مشيرة إلى الجهة التي كان يجلس عليها (سولي) و(ميرون): «أخرجناهما من الحبس صباح اليوم نظير وعد من السيد (سولي) بمساعدتنا للنجاة من الصُفر. أرشدتَنا إلى أن نتجه إلى جزيرة (إلي)...»

قاطعتني (سيرا): «أنا لا أفهم. أليست هذه الجزيرة هي موطنهم؟».

قال (سولي): «بلى».

- «هل تقصد أن هذا آخر مكان يبحثون عنا فيه؟».

- «لا، سوف يجدوننا بسهولة، ولكننا سوف ندّعي أننا من الزوّار».

ثم استطرد: «هناك من الكِميتيين...».

تدخل (تومان) في الكلام غاضبًا وقال: «تقصد من العاقلين، من الناس الطبيعيين، من غير المجانين أمثالكم».

ابتسم (سولي) بصبر، وقال: «هناك من الناس من يذهب لزيارة جزيرة (إلي) بتنظيم من حكومات الجمهوريات الداخلة في تحالف (الكِميتية)، وغرض تلك الزيارة هو التعرف على شعوب ظلام ما دون الكِميت. كيف تعيش وبماذا تؤمن».

قلت: «وماذا سيمنعهم من إيذائنا حتى لو كنا من الزوار».

قال: «كهنتهم.. كهنتهم يمنعونهم من المساس بالزوار بأي سوء. لسبب ما».

تبادلت النظرات مع (ليفاي) وقلت بحذر: «سيد (سولي) نحن نخاطر بحياتنا هنا، سوف نحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد (سبب ما)».

قال: «هل تظنين أن الحكومات كانت سترسل المزيد من هذه الأفواج إليهم لو كانوا ينزعون رؤوسهم ويشربون أمخاخهم؟ لا أدري السبب بالظبط، ولكن من الممكن أن تكون منفعة متبادلة، الزوّار يأتون بالكثير من الروكيات للجزيرة الفقيرة، وربما سبب آخر، لا أعلم. ولكن في كل الأحوال، فكل واحد منهم يرى أننا صرنا محرمين عليهم بمجرد نزولنا إلى هذه الجزيرة».

فكرت في كلامه قليلًا، وقلت موجهة الكلام للجميع: «حسنًا، يبدو ذلك منطقيًّا، سوف ننزل إلى الجزيرة، جميعنا فيما عدا (ليفاي) والبحارة، لن نظل أكثر من شطر يوم على الأكثر، نتبضّع من الأسواق أو نزور المعابد، أي شيء يقنعهم أننا

مجرد زوار، ثم نعود لنكمل حملتنا اللعينة». ثم نظرت إلى (تومان) وقلت بسخرية: «آسفة». قال عاقدًا يديه أمام صدره وهو يرمقني باحتقار: «لا، لستِ كذلك».

جيرالد

فتحت (إيليت) عينها ببطء على إثر فركي لجبهتها في لطف، رأتني بعينيها الناعسة فوضعت يدي على فمها سريعًا قبل أن تصرخ، وباليد الأخرى رفعت الورقة التي كتبت عليها: [لا تنطقي بكلمة، اتبعيني في صمت، لا تصدري صوتًا].

قرأت الكلمات ونظرت حولها حيث كان يرقد الحارس في الخارج بينما مفاتيحه المسروقة موضوعة في القفل الخارجي للبوابة المفتوحة للزنزانة، ومن حولنا كانت الزنازين جميعًا مظلمة يغط أصحابها في النوم.

قامت بهدوء وانسلّت من بين الأغطية ووقفت بعباءتها التي صارت بنية من كثرة ما علق فيها من التراب، أرادت أن تلبس حذاءها ولكني أشرت لها بالرفض، لا يوجد وقت لذلك. جذبتها من ذراعها وقدتها خلفي خارجًا. لم تكن هناك من شعلة ضوء تنير لنا الطريق إلا أشعة ضوء القمر من النوافذ الحجرية للزنازين. تحركنا في خفة محاذرين أن نوقظ أحد الحرس. وبينما نخرج من قاعة الزنازين جذبتها سريعًا كي تنحني معي، كان (آشير) حارس وردية الليل يمر بين طرقات الثكنات الجديدة ممسكًا ببارودة مُعمّرة، كان متجهًا نحونا وكنا ننحني تحت السور الحجري لقاعة الزنازين، لو تقدم للأمام خمس خطوات أخرى لرآنا. حبسنا أنفاسنا أنا و(إيليت) وأغمضت عيني في توتر، ممسكًا بقبضة خنجري بإحكام. لا تأتِ هنا، أرجوك.

تقدم (آشير) خطوة أخرى، ثم ثانية، ثم ثالثة، ثم توقف. تلكأ قليلًا ولم أدرِ ماذا كان يفعل، ربما يمضغ بعض أوراق القِطيم. وبعد برهة بدا أنه يمضي بعيدًا، وصارت الخطوات تتسارع مبتعدة عنا، تنفستُ الصعداء، أعلم أنه الآن سوف يتجه إلى الجناح الشمالي بعد أن يكمل دورته. لقد كنت أنا من صمم دورات الحراسة في الثكنات الجديدة التي انتقلنا إليها منذ عدة أيام.

انتظرنا قليلًا ثم أشرت لـ (إيليت) بالتحرك، كانت تسير خلفي منحنية الظهر بينما نتسلل في الطرقات بجانب السور محاذرين أن يلتفت إلينا أحد الحرس على أبراج المراقبة العالية بمحاذاتنا.

وصلنا إلى بوابة الثكنات الشمالية، كان يفصلنا عنها بضعة ياردات. أشرت لـ (إيليت) أن تختبئ خلف بعض صناديق المؤن التي كانت مُكوّمة هناك، ثم اعتدلت أنا وأدخلت خنجري في غمده، وحاولت أن أتنفس بعمق لأخفي توتري، وعدلت من عباءتي ثم تحركت بهدوء صوب البوابة التي كان يقف عليها (سوقار).

أجفل (سوقار) والتفت بعنف مصوبًا بندقيته نحوي، فلما تعرف على وجهي امتعض وقال: «كدتُ أن أطلق عليك البارود. من أين أتيت؟!».

- «شعرت بالأرق، لن أستطيع النوم بسهولة في مكان جديد كهذا، كنت أبحث عن أحد أتسامر معه قليلًا».

بدا عدم الفهم على (سوقار)، وقال بضحكة هازئة: «منذ متى و(جيرالد) الصموت يتسامر مع أحد في الثكنات؟». أشرت بيدي بمعنى: (كف عن هذا الكلام) ثم جلست على مقعده بما يضطره للجلوس على المقعد الذي يواجهني وظهره لـ (إيليت).

جلس وقال: «حسنًا، ها نحن، كيف حالك إذن؟».

- «هل سنثرثر دون شراب؟».

أشار لي إلى إبريق المارين بجانبي، قلت له: «اللعنة على المارين، نحتاج إلى النبيذ».

- «ممنوعة هذه الأشياء في نوبة السهر».

نظرت له نظرة بمعنى: (كف عن الادعاء الكاذب)، وقلت: «(سوقار)، هيا».

نظر لي بجدية طويلًا بثبات، ثم بدأ في الابتسام ثم الضحك فالقهقهة، وقال: «حسنًا طالما ستشاركني الجريمة». ثم قام من مقعده للحجيرة الخشبية الصغيرة بجانب البوابة المعدنية ليحضر زجاجة النبيذ التي يخفيها هناك، انتظرت حتى دخل إليها ثم قمت ووقفت على بابها كي أسده وقلت له: «هل صحيح أنك كنت قتلت وحدك عشرين من جيش الضبط؟». أشار بيده بحماس وقال: «لقد كانت ليلة صاخبة»، ثم بدأ في الكلام، أشرت أنا من خلف ظهري لـ (إيليت) المنحنية خلف الصناديق لكي تتحرك باتجاه البوابة. هل يمكن ألا تلاحظ الحمقاء إشارتي؟ أخذت أطوّح يدي يمينًا ويسارًا

حتى سمعت صوتًا خلف ظهري بالفعل، لقد بدأت في التحرك.

تحركت للأمام قليلًا لأسد فرجة باب الحجيرة بجسدي تمامًا حتى تصبح إيليت خارج البوابة التي كانت مفتوحة إلا من مزلاج حديدي يفتح بسهولة من الداخل. حاول (سوقار) الخروج بعد أن جهّز الزجاجة مع كوبين نظيفين ولكني أخذت أتلكأ: «هل يوجد عندك هنا... لا أدري.. بعض أوراق القِطيم؟».

- «ماذا حدث لك؟ أنت في مزاج جيد هذه الليلة. ولكنها نفدت مني للأسف، يمكننا أن نقترض من (آشير)». ثم همّ بالخروج ثانية. قلت سريعًا: «لا لا، حسنًا بعض الخبز الحرّيف سيفي بالغرض». تنهّد ثم أعطاني ظهره ينقب في خزانته، التفتّ أنا بسرعة فوجدت (إيليت) ما زالت تعالج المزلاج الذي كان ثقيلًا عليها. أسرعي أيتها البلهاء.

كان (سوقار) يتحدث معطيًا ظهره لي وقد بدا منهمكًا في البحث، هل يمكن أن أستغل انشغاله وأتراجع خطوتين للوراء لأفتح لـ (إيليت) البوابة؟

تراجعت بظهري ونظري مركز على (سوقار) حتى وصلت للبوابة، نظرت لـ (إيليت) نظرة لائمة ثم عالجت المزلاج سريعًا، فتحت فرجة يسيرة في البوابة تسمح بمرورها ثم ....

- «ماذا تفعل؟!».

التفتّ فوجدت (سوقار) ينظر لي وقد بُهِت!

نقّل بصره بيني وبين المرأة وقد تعرف عليها فيما يبدو، مرت لحظات قبل أن يفهم أنه يشهد عملية خيانة بالفعل، بعدها حدث كل شيء بسرعة. ألقى الزجاجة على الأرض لتنكسر، والتقط بندقيته التي كانت تستند على جدار الحجيرة وقبل أن يصوبها إليّ طرتُ عليه ملتحمًا به ونحن نتصارع على الأرض، بينما قطع الزجاج المهشم تمزق لحمي وهو يجلس على صدري ويسدد لي اللكمات، كنت أستل خنجري من غمده، واستجمعت قوتي لأصير فوقه ثم وضعت المدية على عنقه موجهًا وجهه للأرض.

استسلم (سوقار) وكف عن الحركة، بينما خنجري على عنقه ولكن في قلبي كان الخنجر على عنقي أنا، شعرت بأن روحي تتمزق وأنا أتذكر أيامي الخالية مع أخي الطيب، ولكن لم يكن من مفر، إما أنت وإما نحن، كل الخواتيم تتشابه يا صديقي.

وبعين دامعة وصوت متهدّج رددت: «سامحني يا أخي»، ثم أجهزتُ عليه بضربة واحدة.

قمتُ وأنا لا أكاد أرى من دموعي، ونظفتُ خنجري في كمي ثم أعدته إلى غمده، كففت دمعي فوجدت (إيليت) تمسك على فمها لتمنع نفسها من الصراخ وهي تنشج في صدمة، منقّلةً بصرها بيني وبين جثة سوقار المذبوحة وهي لا تكاد تصدق ما حدث، تناولت ذراعها فسحبته مني في عنف، أمسكتها بكلتا يدي ونظرت لها في عينيها وقلت هامسًا: «نحن في هذا معًا الآن، هل تفهمين، لم يعد لي مكان هنا، صرت هاربًا مثلك، وأما أنتِ فلم تعودي البريئة التي كنتِ تحسبين نفسك عليها». وأشرت إلى جثة (سوقار) وقلت لها: «أخي هذا مات من أجلكِ، أتمنى أن تكون حياتك البائسة تستحق ذلك». ثم دفعتها خارجًا من البوابة وأنا معها، وأغلقت البوابة بحذر.

التفتُّ لأجد (كروماز) واقفًا أمامي خارج بوابة الثكنات! كان يحمل في يده نايه الذي يحب أن يعزف به، فلما التقت عينانا ابتسم في ود ثم عدل من عويناته والتفت إلى (إيليت) وقال: «مساء طيب لكِ يا سيدتي»، ونظر لي: «ولك أيضًا يا (جيرالد)».

ثم انتزع من جيبه سكينه الصغير وبحركة سريعة قذفه ليستقر في عنق (إيليت) بحانبي، نظرت لي وقد جحظت عيناها، والدماء تنزف من عنقها ثم سقطت على الأرض كبالون مثقوب.

انقسمنا إلى مجموعتين، واحدة بقيادة (كالينا) ومعها (سيرا) و(هوسيرل). وواحدة تضمني مع (سولي) و(إكسيفر) و(ميرون). اشترت (كالينا) طوقًا من الورد من بائعة مسنة أمام الميناء ووضعته حول عنقها ليعطيها طابع المسافرة الغنية التي جاءت لترى عجائب العالم. بينما أنقد (سولي تراك) نفس المرأة العجوز بعض الروكيات دون أن يشتري منها شيئًا.

قلت له: «لماذا فعلتَ ذلك؟»

أشار إلى قدمي العجوز حيث كانت مرتدية سيور نعل بالية وقال: «لأنها امرأة فقيرة، انظر، هذه السيور تختلف ألوانها تبعًا لمدى فقر مرتديها. طريقة ذكية قاموا بها هنا لتمييز الفقير الذي يحتاج إلى المال من المتعفف بأقل قدر ممكن من إصابته بالحرج».

قلت أنا: «أنتَ كنتَ هنا من قبل». رد ببساطة: «بالطبع».

تأبطت ذراعه مدفوعًا بفضولي العلمي، وقلتُ وأنا أتلفّت حولي وسط زحام الناس الذين كانوا يلبسون ملابس غريبة في معظمها: «إذن لو لا تمانع، أرجو أن تعطيني نبذة سريعة عن.. عن كل هذا».

لم يمانع، فأردفت وأنا أشير إلى رجل كان يبيع حصًى ذا شكل مميز على قارعة الطريق: «ولنبدأ من هنا. ما هذا؟».

ابتسم (سولي) وقال: «هذا حصًى جاءوا به من قارة الجنوب».

- «ولماذا يبيعون أي نوع من الحصى أصلًا».

- «يطلبه السحرة من مريديهم. أعمال شعوذة لدفع المصائب. يصنعون سوارًا من هذا الحصى بعد أن يباركونه، من المفترض أن يحميه هذا السوار من اقتراب الشر منه أو من أحد محبيه».

ضحكتُ باستهزاء، فقال بسرعة: «لا أؤمن بهذا الهراء بالطبع».

- «هذا الهراء هو ما حماك منه الكِميت الذي تسخر منه».

- «أو هو من أنتجه»!

توقفتُ عن السير وقلت له: «ماذا تقصد؟».

قال: «إذا منعتَ الإنسان من أن يمارس إنسانيته، إذا أجبرته على أن يفسر وجوده بنظرة إلى الأرض لا إلى السماء، فإنك ستجد كل أنواع الاعتراضات الممكنة».

ثم نظر قليلًا إلى البائع الذي كان يتشاجر مع رجل فقير على سعر الحصى، وقال: «الجوع في حقيقته واحد. أنتَ منعت عنه الطعام، وهو الآن يعض بأسنانه أي شيء يخدعه به أحدهم أنه يؤكَل».

تابعنا السير، وتابعتُ أنا فضولي، كان هناك تجمع كبير من الناس أتبعته ببصري، ثم طلبتُ منه أن نسير خلفه، بينما (ميرون) و(إكسيفر) من خلفنا بمسافة. لما وصلنا إلى حيث تجمّع الناس، بدوا وكأنهم في طقس حزنٍ ما، الجميع على وجهه علامات الأسى، وبعض النساء يبكين. همس سولي يتساءل: «جنازة؟».

سألتُ أحد الأهالي: «هل هذه جنازة؟».

ثم شتمتُ نفسي في سري، ماذا أحسب؟ بالطبع هو لا يتحدث اللغة الدارجة.

ولكنه لدهشتي كان يفعل، لقد بدا أن اختلاط زوار قارة الشمال الأثرياء بهم جعلهم يتعلمون لغتهم لدواعي التجارة. قال الرجل بلهجة فظيعة: «نعم، إنه ابن عمي العجوز».

كنت أبحث عن التابوت فلم أجده، لم يكن هؤلاء يتجمعون حول جسد الميت بل كانوا يتجمعون حول امرأة تلبس ملابس قذرة وتناول كل واحد منهم صندوقًا خشبيًا صغيرًا مغلقًا.

أشار لي (سولي) إلى الكوخ الذي كنا أمامه، كان في داخل الكوخ منضدة ملوثة بالدماء، ونظر كل واحد منا إلى الآخر في رعب، هل ما نفكر فيه صحيح؟

سألتُ الرجل الذي يتحدث الدارجة مشيرًا إلى الصندوق الصغير الذي حصل عليه هو: «ما هذا؟».

قال: «لا أعلم بعد، لم أفتحه». ثم فك عقدة الحبل التي كانت تغلق الصندوق الصغير وفتحه، وشهقت! كان بالداخل أذن! أذن بشرية! محفوظة في مادة شمعية شبيهة بالكهرمان.

نظر لي الرجل وعلى وجهه علامات التأوه والحزن: «إنها أذنه. ابن عمي الحبيب»! ثم بدأ يبكي.

نظرتُ إلى (سولي) مستفهمًا، لم يبدُ أنه رأى شيئًا كهذا من قبل، ولكنه لم يكن متفاجئًا بقدري. قلت له وأنا أصيح رغمًا عني: «إنهم يقطّعون جثة الميت ويوزعونها على أحبابه»! هز رأسه أن نعم. ثم جذب ذراعي بعيدًا عن التجمع الحزين، وسار نحو بقية المجموعة، أخذتُ أُجدّ السير خلفه وقلت له ساخرًا: «أظن أن الكِميت هو الذي سبب هذا أيضًا، أليس كذلك؟».

التفت إليّ وقال بوجه جاد: «على خلاف ما تود أن تسمعه، فـ لا، لا أظن أن الكِميت هو من سبب ردة الفعل هذه، لكن يمكنك أن ترى شبح الكِميت أيضًا هنا. الكِميتيون لا يحتفظون بجسد الميت، لا توجد لدينا هناك مقابر ولا شواهد ولا أضرحة، من يموت يتم حرقه أو إهداؤه إلى أسماك البحر على طوف من أخشاب النول. لا يُسمح بعد ذلك بالاحتفاظ برماده حتى مع أحبابه. كل ما قد يربطك بإنسان لم يعد موجودًا جسده يجب أن يُقطَع، لأن هذا الإنسان لم يعد موجودًا حقًّا بعد ذلك. ألا ترى في هذا نوع تطرف؟ نوع من المبالغة المريبة التي تشي بأنهم يخفون شيئًا، أو يخافون من شيء! تطرف كذلك الذي رأيناه هناك ولكن بنوع مضاد. هنا يفعلون العكس! هنا فالميت لم يمت حقًّا طالما لم ينسه أحباؤه».

- «وأي الفريقين على صواب بالنسبة إليك؟ نحن أم جزّارو الجثث هؤلاء؟».

صمت ولم يعلق ثم التفت وتابع المسير حتى التقيْنا مع (ميرون) و(إكسيفر)، سألتُ (ميرون): «أين الآخرون؟».

أشار إلى السوق الذي كان في آخر شارع الميناء، ومن بعيد رأيت شعر (كالينا) يتطاير وبجانبها (سيرا). تبعتهم حتى وصلت إلى السوق. كانت (سيرا) ما زالت تتحاشى النظر إليّ منذ ذلك اليوم على ظهر السفينة، فكرتُ أن أشتري لها هدية من هنا، هممتُ بأن أقول لها شيئًا، لكنها هزت رأسها بابتسامة عملية ثم تركتني ورحلت. بعد دقيقة تبعها (هوسيرل). ووقفتُ مع (كالينا) بمفردنا.

قلت لـ (كالينا): «ما الخطة الآن؟ سوف نظل في هذا المكان طوال اليوم؟».

قالت وهي تتلفت حولها: «لا أعلم، لا أظن أن أحدًا يراقبنا أو يعلم بقدومنا إلى هنا، لقد كانت خطة بائسة في رأيي، ربما الأفضل أن نعود».

نظرتُ إلى أعلى كتفها محدقًا في شيء أثار تعجبي، فالتفتت لترى ما أراه وأصابتها الدهشة مثلي.

كان رجلًا عاري الجذع يلبس طوقًا على رأسه وعليه شعار ملوّن، وبنطالًا جلديًّا، وقد نُحِتَت عضلاته نحتًا، وحليق شعر الرأس والوجه تمامًا، وقد بدا حائزًا على احترام كبير من الناس من حوله، أو لعله الخوف!

كان يحدّق في عينيّ مباشرة، ويقترب منا ببطء. تراجعت (كالينا) حتى صارت بمحاذاتي، ثم أشارت إلى الجهة اليمنى، نظرتُ حيث أشارت، كان رجلًا آخر مثله تمامًا آتٍ من الجهة اليمنى، ومثله من خلفنا. ومن الجهة اليسرى رأيتُ (ميرون) و(سولي) وقد أمسكهما اثنان منهم! أخذتُ أبحث عن (سيرا)، وكما توقعت وجدتها مع (هوسيرل) وقد أمسكهم ثلاثة آخرون! ثم جاء دوري أنا و(كالينا)، بقبضتهم الحديدية على أكتافنا، وبهمسة باللغة الدارجة في أذننا أن نرحل معهم دون جلبة.

اقترب (إكسيفر) الوحيد الحر فينا من الرجل الذي كان ينظر إليّ والذي كان يبدو زعيمًا لهم، وقال وهو ينحني في خوف: «قد وفيتُ بوعدي، اتركني أرحل، أرجوك».

نظر له الرجل باشمئزاز ثم أشار له برأسه، بمعنى: ارحل من هنا.

وأشار إلى بقية جنوده أن يتبعوه مع صيدهم الثمين.

نظرتُ إلى (سولي) الذي كان على مقربة مني، وقلتُ له: «هؤلاء هم الصُفر، أليس كذلك؟».

قال وقد بدا قَلِقًا: «لا، لقد كذب علينا (إكسيفر). لم يكن الصُفر هم من دمروا تلك السفينة ذلك اليوم، كنا نهرب من

خطر مختلف».

- «لماذا فعل ذلك؟».

- «حتى يدفعنا إلى المجيء هنا مختارين والوقوع في شباك هؤلاء».

نظرتُ إلى (إكسيفر) الذي ركض بعيدًا حتى لم أعد أتبينه، ثم إلى الرجال الذين كانوا يقتادوننا وسط دهشة الزوّار الأجانب، ولا مبالاة أهل الجزيرة، وسألت: «إذن من هؤلاء؟».

تنهّد وقال: «جنود معبد القوس».

جيرالد

كنت أحدق غير مصدق في جثة (إيليت) بجانبي، بينما اقترب منها (كروماز) بهدوء ونزع سكينه من عنقها، ومسحه في عباءتها ثم أغمض عينيها وقال وكأنه يودعها: «أرجو أن يكبر ابنك ليعيش حياة سعيدة يا سيدتي، أنا متأكد أنك كنتِ أمًّا رائعة». ثم رفع عينيه إليّ وقال هامسًا وكأنه قد أُحرِجَ لتوه من سوء أخلاقي: «(جيرالد)، ألن تقول شيئًا في حقها؟». تجاهلته وأخذت أنظر إلى (إيليت) لا أفكر إلا في نظرتها لي، لقد كانت على حق حين خاب أملها، كما كان أبي!

قام (كروماز) وقال ببطء وهو يدور حولي كعادته: «ماذا أخبرتك عن العبث؟ هل فهمتَ الآن؟ كان أمامكما الليل بطوله كي تهربا، ولكن لم تفعلا ذلك إلا في لحظة وصولي عائدًا من عزفي». ثم رفع الناي وقال: «لقد كان عزفي رائعًا هذه الليلة، اخترعت ألحانًا جديدة، كنت أتمنى لو كنتَ معي يا (جيرالد) لتسمعها، وها أنا ذا أعود لأجدك أمامي. هل تصدق؟».

ثم استند على جدار البوابة المعدنية من الخارج وقال: «أتعرف؟ أحيانًا أشعر وكأن الحياة تحترم أمانينا، حسنًا، ليس بالنسبة لـ (إيليت) بالطبع، لا أظن أنها كانت تتمنى أن تموت الليلة، وبطريقة بشعة كذلك، يا لها من مسكينة! الطريقة التي قضت بها عليها الحياة في لحظة سريعة. أمر مؤلم. كل الحياة مؤلمة».

ثم أردف: «كل الخوات...».

- «إياك أن تقولها».

صرختُ بها غاضبًا لأمنعه من ترديد شعاره المحبب، بدا وكأنه فزع من سماع صوتي العالي، وقال: «(جيرالد)، اهدأ قليلًا، نحن نتحدث بتحضر، لا داعي للصراخ».

لم أستطع كتمان غضبي، طرت عليه حتى أسقطته من الأرض ووجهتُ له لكمتين، دار حولي يعتليني فتغلبتُ عليه وجثمتُ فوقه قبل أن يمسك قبضتي ويرفعها بعيدًا عن وجهه بقوة لا تصدق من جسده النحيل ثم يزيحني جانبًا وقبل أن أسقط على الأرض عاجلني بلكمة كادت أن تحطم فكي.

تركني أستلقي على الأرض جانبه وأخذنا نعب الأنفاس ونتألم من جروح وجوهنا.

قلت وأنا أغمض عيني في سأم: «يمكنك أن تنهي الأمر الآن، أعدك أنني لن أقاوم».

قال وهو يعتدل على الأرض قاعدًا ويلتقط عويناته التي أسقطتُها على الأرض: «أوه! عزيزي (جيرالد) صدقني لو أردت قتلك لما قلقت من أمر... مقاومتك هذا. لماذا أريد أن أقتلك؟ أنت صديقي. أم تحسب أنني سأغضب لأنك حاولت التخلي عني أو... «. ثم تابع وهو يقوم ويفتح البوابة قليلًا وينظر إلى الداخل: «ماذا فعلت هنا؟ يا لـ (سوقار) المسكين، لم يكن يستحق منك ذلك». ثم أعاد النظر لي وقال: «لا يوجد ما يغضبني في كل ذلك، أنت كنت تفعل ما تراه صوابًا، لماذا عليّ أن أفترض أنه كان خاطئًا؟ لأنني لا أحبه؟ أنا رجل متواضع، لست فخورًا متكبرًا كهؤلاء المعاتيه الذين يريدون رسم طبيعة أخلاقية خاصة بهم».

وقال وهو يتقدم نحوي مشيرًا بنايه: «أنت كنت تحاول تهريب امرأة بريئة لا تستحق الموت، لعلك أحببتها أو اشتهيتها أو أردت فحسب أن ترضي غرورك الشخصي لتشعر أنك أفضل من الجميع، أنا لا أحكم على أحد هنا. (سوقار)؟ كان مجرد عائق أمامك لم يكن لديك خيار إما أنت وإما هو. هل يمكنك أن تلوم الذئب على قتله للأرنب؟ هل يمكنك أن تلوم الأفعى حين لدغت رضيعًا كان يود أن يلعب معها فحسب؟ هل يمكنك أن تلوم رجلًا سرق كل ما معك من المال وتركك لتحتضر على قارعة الطريق؟

الرجل أراد ذلك المال. كان يحتاج إليه مثلك تمامًا! عمل من أجله، حصل عليه، وخسرتَ أنت. لماذا يكون ذلك قاسيًا بينما لو أصابتك عاصفة فعلت فيك الشيء ذاته لمطت شفتيك باستسلام وقلت: هذه الأشياء تحدث؟».

ثم انحنى على جسد (إيليت) وقال وهو يمرر يديه على شعرها ببطء: «في رأيي أن هذه الأشياء أيضًا تحدث».

- «(كروماز) ماذا تريد؟».

- «أريد النوم فحسب يا عزيزي ولكني وجدتك في مزاج جيد للثرثرة، وشعرت أني سأكون وقحًا لو تركتك وانصرفت

الآن».

- «لا، (كروماز) ماذا تريد فعلًا؟ ماذا تريد أن تصنع بهذا؟» وأشرت إلى الثكنات من خلفي.

قام وقد بدا مندهشًا وقال: «تقصد ماذا؟ صراعنا مع الوكيل ووزرائه وهيئة ضبطه؟ لماذا لا تقول ذلك بشكل واضح؟ لماذا تتحدث بالألغاز يا (جيرالد)؟ الحياة أقصر من ذلك!».

ثم نزع عويناته وبدأ بمسحها من آثار التراب في طرف قميصه وقال: «أليس الأمر واضحًا؟ نحن نريد إثبات كذبة الكِميت، كما قال معلمي الأكبر (سولي تراك)، فلتتقدس روحه، إن كان له روح، أظن أن (سولي) له روح، أو على الأقل مات وهو يحسب ذلك، صحيح؟»

- «صرتَ الآن تتغنى بـ (سولي تراك)؟».

قال بسرعة: «(سولي) هو أستاذي في كل وقت وحين، هو فقط يتحدث بالترهات طوال الوقت، لم أجد هذا عيبًا فيه يومًا، أنا أحب الترهات. كل ما في الأمر أنه... أضعف من أن يقوم بما هو لازم كي تنتصر ترهاته. وأنا لا أحب الضعف.

(سولي) واهم، المشكلة لم تكن في الناس أبدًا، الناس قطيع، هم لا يرفضون أية فكرة، سيذهبون معك إلى أي مكان، هم فقط يخافون من الراعي».

ثم وضع عويناته وهو يقول بهدوء مفردًا بين كلماته: «أنا سوف أقتل الراعي».

- «هل تظن أن هذا كافٍ حقًّا؟ هل سيبدأ الناس في رفض الكِميت لمجرد أنك قتلت راعيهم؟».

قال وهو ينظر إلى الأرض بهدوء وكأنه يفكر في شرود: «الراعي قد سرق منهم مصدر تميزهم ثم محا كل سجلات سرقته! أنساهم أنه بدون التعالي الإنساني على الطبيعة، بدون هذا الشيء المتجاوز لقيمة الحياة، لا يمكن أن يعيش الناس في سلام معًا، لا يمكن أن يستعد أي شخص أن يضحي بأي شيء أو أن يتخلى عن أنانيته لأجل أي إنسان آخر. الراعي يجمّل لهم الحقيقة، يضع لهم قواعد للعيش، يخبرهم أن هذا صواب وهذا خطأ، عليك أن تثق فينا، نحن سنوفر لك لقمة عيشك ولكن استمع لما نقول، أرأيت؟ إنه حتى يعطي قطيعه سببًا للعيش، لقد زوّر لهم معنى للحياة، أعطاهم دافعًا كي يقوموا من فراشهم كل صباح، صار كل شيء مرتبًا بشكل ميكانيكي بديع، كل شيء على ما يرام..

سوف يفعل الراعي كل ذلك من خلال نظامه الخاص الذي سوف يظل دومًا فاسدًا. كل الأنظمة تجاهد لبقائها، فهل تظن أنها سوف تبقى للأبد بدون كذب؟».

وأخذ يسير في اتجاهي ببطء وهو يقول: «فقط، فقط عزيزي (جيرالد) حين ينهار كل شيء، حين تحترق كل المدن، حين يغرقون في الفوضى، سيعلمون أن الأمور لم تكن أبدًا على ما يرام، أنهم كانوا يعيشون في فوضى، ولكن محبوسة!

سوف أقدم خدمة جليلة إلى عرائس الماريونيت المربوطة على المسرح، سوف أقتل كل الأيادي الممسكة بهم، وحين تتساقط كل الخيوط بجانبهم، ويعلمون أنهم كانوا في الحقيقة أحرارًا طوال الوقت، لا تربطهم إلا خيوط زائفة من صنع أناس آخرين، لا كِميت، لا قواعد، لا نظام، لا غاية، لا معنى لحياتهم....».

ثم صار الآن يقف أمامي تمامًا يواجه وجهه وجهي، وقال ببطء: «حينها لو كانوا أذكياء حقًّا، فسيقتل كل واحد منهم نفسه!». ثم تركني وسار تجاه البوابة راحلًا، وقال وهو يفتحها: «حين يحدث ذلك، أعدك أن أدعك تفعل ما يشتهيه قلبك».

قلت: «وما هو؟». أجابني وهو يسير مبتعدًا: «قتلي»!

ميرون

كان بناءً فريدًا بحق، لم أرَ أجمل منه في حياتي، يقع على طرف الجزيرة البعيد عن الميناء، لقد سرنا قرابة نصف النهار حتى وصلنا هنا، أيادينا مكبلة بحبل ليفي غليظ ومن خلفنا الرجال عراة الصدر المدججين بالسلاح. توقعتُ أن ينجدنا أحد طوال الطريق ولكن كان الجميع في صمت تام، إما عن احترام أو عن رهبة لهؤلاء الذين يقتادوننا كالخراف. وعلى الأرجح كان مزيجًا من كليهما. وكلما مررنا بجانب مجموعة من العجائز كانوا يتمتمون بأشياء ويشيرون بأيديهم، وقدّرتُ أننا بصدد اعتقاد ما، وأن أهل الجزيرة يشاركون هؤلاء الرجال فيه.

كان باب معبد القوس مزدانًا بأعلاه بسبعة أحجار كريمة، كل حجر بلون مختلف. الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، السماوي، الأزرق، والبنفسجي. كنتُ أظن أن هذه الألوان اعتباطية ولكنها كانت تتكرر في كل شيء بالداخل، وأثناء ما كنا نمر على الحجر المرمري المرصوف به البهو الواسع بالداخل فكرتُ في أمر فملتُ على (سولي) أسأله: «هل القوس نسبةً إلى... قوس قزح؟!». هز رأسه أن نعم!

هل هذا ما كان ينقصنا؟ مجموعة من المخابيل يعبدون ألوانًا تظهر في السماء؟

قال (سولي) بصوت خفيض ونحن نعبر من البهو الرئيس: «هم لا يعبدون قوس قزح، هم يؤمنون أن هذه الألوان هي تجليات للقوى السبع المسؤولة عن كل شيء في العالم، تظهر هذه الألوان في كل شيء، في الزروع والأحجار الكريمة والأصباغ التي يضعها الناس على ملابسهم. يغرق البشر في هذه الألوان السبعة ودرجاتها طوال حياتهم. ثم تظهر معًا بعد المطر والرخاء على صفحة السماء أمامهم، كنوع من.. اتحاد قوى السماء!».

ضربنا أحدهم في كتفنا بطرف رمحه أنا و(سولي) ضربةً أوجعتنا، أتبعها بنظرة نارية وأصبع على فمه بمعنى: (اخرسوا). من الواضح أن الكلام هنا في معبدهم المقدس ليس مرحبًا به.

اقتادونا إلى ممر طويل، كان سقفُه عاليًا ولكنه مبنيّ ببراعة، وفي الوسط كانت أعمدة رخامية بديعة مزدانة بتماثيل وتصاوير لم أفهم مقصدها، بينما كانت الألوان السبعة تزين كل شيء من حولنا، اللوحات على الجدران، ألوان الأحجار الكريمة التي تزين حلي الكهنة الجالسين على الجانبين، والرسوم المعقدة المتداخلة التي تزين السقف. من رسم هذا؟ وكيف وصل إليها؟

توقفنا أمام باب ضخم، بدا مصنوعًا من الذهب الخالص، هذه قاعة الأسرار لو كان هناك شيء كهذا. ثم بدأ الجنود ينسحبون واحدًا وراء الآخر عائدين، وكأنه مكان أكثر قداسة من أن يلوثوه بدخولهم. فقط قام معنا أحد الكهنة ليدخلنا إلى القاعة. فتح الباب لنا، ودخلنا إلى القاعة الفسيحة التي كان كل شيء في المعبد فقيرًا قبيحًا بالمقارنة بها!

لم أستطع أن أخفي انبهاري، لا أنا ولا أحد غيري، فقط (سولي) لم يكن ينظر إلى الجدران والسقف مثلنا ولكن إلى وجه الرجل الذي كان يجلس على مقعد مهيب موضوع في آخر القاعة وكأنه عرش ملك.

في منتصف القاعة تمامًا كانت هناك كرة مرمرية جميلة الشكل وكبيرة الحجم، موضوعة على قاعدة من الذهب، وحولها سور حديدي ليمنع أي أحد من العبث بها أو مجرد لمسها.

وقفنا أمام الرجل الجالس على عرشه مزدانًا بكل أنواع الحلى الممكنة. كان رجلًا عجوزًا أبيض البشرة بهيّ الطلعة، يلبس ملابس بيضاء فضفاضة، وعلى وجهه علامات طيبة أعلم أنها غير حقيقية.

من خلفنا دخل الكهنة الذين كانوا يجلسون في القاعة الطويلة خلفنا. ثم أمر الكاهن الأكبر الحراس بإغلاق الباب خلفهم. كل شيء في هذا المعبد لا يمت بصلة للجزيرة البدائية الفقيرة، كما لو كانوا استقدموا أمهر البناة والنحاتين من كل أنحاء قارتي الشمال والجنوب للمساعدة لبناء هذا المعبد. من أين جاؤوا بالأموال الكافية؟!

كان (تومان) هو أول من تكلم صائحًا: «هل يتحدث أحدكم الدارجة؟».

نظر الكهان بعضهم إلى بعض وابتسموا بما يعني أن (تومان) أحمق. الجميع هنا يفهمون ما قال. أحد الأمثلة الكثيرة على أن هذا المعبد غريب عن بقية الجزيرة!

قال (تومان) ساخرًا: «حسنًا، ماذا تفعلون هنا؟ تلعبون بألوان الصبغات؟».

اقترب منه (هوسيرل)، وقال: «حذار يا سيد (تومان)، لا تسخر من معتقداتهم ونحن تحت رحمتهم».

تجاهله (تومان) وقال: «بأي حق اختطفتمونا؟».

تكلم الكاهن الأكبر لأول مرة بصوت حاد أجش: «بحق سادتنا السبعة».

قال (تومان) بامتعاض: «ومن هؤلاء السبعة؟».

لم يجبه أحد منهم.

تدخل (سولي) لأول مرة في الحديث مشيرًا إلى السقف من فوقنا، وقال: «هؤلاء السبعة». نظرنا إلى حيث يشير. كان السقف هو أروع ما رأيت في عمري، برسوم سميكة مجسمة تصوّر ملاحم لم يعرف عنها بشر، وقد تقسمت إلى سبع مناطق شبه متساوية، كل منطقة قد لُوّنت بدرجات مختلفة من أحد الألوان السبعة، وكانت الرسوم متفاوتة، بعضها يظهر رضيعًا يشرب اللبن من ثدي أمه، وبعضها يظهر محاربًا يصوب نبله على أحد الأعداء، وبعضها يظهر برقًا من السماء. كيف أبدع هذا الرسام كل هذه التفاصيل بدرجات لون واحد فقط؟!

أكمل (سولي) بينما كانت رقاب معظمنا مسلطة على السقف: «سيد الحياة صاحب اللون البنفسجي، وسيد الرحمة باللون الأزرق، وسيد الخير باللون السماوي، وسيد الخصوبة باللون الأخضر، وسيد العدل باللون الأصفر، وسيد الحرب باللون البرتقالي. أما الذي هناك في الركن، فهو سيد الموت صاحب اللون الأحمر!».

قال الكاهن الأكبر: «تبدو على علم بحكمتنا أيها العجوز».

قال (سولي): «لم أكن لأسميها حكمة تمامًا! هي أقرب لتصورات طفل ساذج عن عالم هو أوسع من إسقاطات نفسه الضيقة عليه».

اقترب منه (هوسيرل) بدوره وقال هامسًا: «أرجوك يا سيد (سولي) أن تأخذ الحذر أنت أيضًا».

تابع (سولي): «ما أسهل التنميط! وما أصعب أن تدرك بعد فوات الأوان أن أنماطك حصرت الحقيقة في فئاتها الضيقة. مظاهر الحياة أكبر من هذا بكثير، أكبر من مجرد سبعة، ومع ذلك أنت لا تحتاج إلى عشرات السادة لتفسيرها، يكفي سيد واحد، هذا سيفسر كل شيء آخر»!

قام الكاهن الأكبر من مقعده وسار تجاهنا، ثم قال: «أيكم قائد هذه المجموعة؟».

كان سؤالًا خطرًا. لا يمكنني أن أتخيل أنه يريد إهداء القائد بعض الذهب، على الأرجح سوف يبدأ به أيًّا كان ما سيفعله بنا.

نظر بعضنا إلى بعض، كانت (كالينا) تتفاخر علينا طوال الرحلة بأنها هي التي تقودنا فيها، فهل ستخرس الآن أخيرًا؟

تقدم (تومان) بخطوة إلى الأمام وهمّ بالحديث فالتفت له الكاهن بينما قالت (كالينا) بسرعة من خلفه: «أنا»!

نظر لها الكاهن ثم أومأ برأسه إلى الكهنة خلفنا تجاهها، على الفور تقدم أربعة منهم أمسكوها وجروها نحو الكرة المرمرية في منتصف القاعة، حاول (تومان) و(هوسيرل) أن يعترضوا ولكنهم مُنِعوا بقوة. نظرتُ خلفي إلى عدد الكهنة الموجودين وقدّرتُ عدد الحراس والجنود وفطنت إلى الحقيقة، لا مجال لأية مقاومة من أي نوع. سوف ننتظر فحسب ما يمكن أن يقوموا به تجاهنا.

قال الكاهن الأكبر وهو ينظر لنا نظرة من يلقي خطابًا بينما يحاول بقية الكهنة السيطرة على (كالينا) الغاضبة أمام الكرة المرمرية: «أنتم مذنبون. أنتم في طريقكم إلى حافة العالم، هذا مكان محرم على الملوثين من أمثالكم، لا يمكن السماح لمن لا يؤمن بأن يدخل على سادات السماء هناك».

تبادلنا النظرات الحيْرى، عم يتحدث؟!

قال (تومان) لنا بصوت خفيض: «على الأرجح هو يتحدث عن الألوان الشفقية في السماء عند الحافة. يظن الأحمق أنها المساكن التي يستأجرها سادته هناك!».

قالت (كالينا): «أنا متأكدة أنكم أخطأتم التفسير، نحن كنا نتجه فقط إلى....».

قال ببساطة: «لا يهم! لن يختلف الأمر، سوف تحصلون على العدالة في كل الأحوال».

ثم أشار إلى رجل كان في طرف القاعة بجوار رافعة لم يلاحظه أحدنا من قبل، استقبل الرجل إشارة كاهنه الأكبر وبدأ في تحريك الرافعة. سمعنا صوتًا من السقف ثم رأينا كوّة فيه تنفتح في منتصفه تمامًا، وشعاع الشمس يسقط تمامًا ليقع على الكرة المرمرية فلا يضيء إلا هي. هل موضع الكرة محسوب بحيث تسقط عليه أشعة الشمس عند فتح الكوة؟ كيف يحافظون على اتجاه شعاع الضوء مع حركة الشمس أثناء النهار إذن؟! نظرت إلى الأعلى وفطنت أن الأمر أعقد مما أظن، هناك أجهزة عدسات معقدة، وبكرات تدوير وأشياء شبيهة. لم أفهم منها شيئًا. ونظرت إلى (تومان) لعله يكون أفهم مني ولكن بدت على وجهه حيرة أكبر.

ثم تقدم كاهن آخر وفتح البوابة الصغيرة التي كانت تحيط بالكرة من أمام (كالينا). جلس الكاهن الأكبر على كرسيه ثم أشار لـ (كالينا) وقال: «تجبرنا التقاليد على البدء بالقائد دائمًا. هيا، تقدمي والمسي الكرة، واحصلي على عدالة السماء ولنر من الذي سيختارك له».

- «عفوًا، ماذا؟!».

- «افعلي ما قلتُ لكِ».

- «لا».

نظر لها الكاهن نظرة نارية، ثم دق ناقوسًا صغيرًا بجانبه.

انفتح الباب ودخل الحراس الذين أحاطوا بنا، ومن دون كلمة واحدة أشار الكاهن إلى (كالينا) فأخرج أحد الحرس قوسه فورًا وصوب سهمًا على صدر (كالينا) ثم أطلقه!

ومن دون أن يجد أحدنا الوقت الكافي كي يفهم كانت (كالينا) مكومة أمامنا على الأرض جثة هامدة!

سولي

انتفضتُ في ذعر، وصحت بصوت عالٍ: «هل يوجد أحد هنا؟».

لم يجبني ولكني رأيت عينيه تطرفان، لا شك في ذلك، هذا إنسان مختبئ هنا، كان يراقبني طوال الوقت. اتجهت إليه في بطء، زاحفًا على ركبتيّ واقتربت بحذر، سقط ضوء مصباحي على وجهه فأجفلتُ.

كان طفلًا في آخر سنين طفولته، قدّرت أن عمره ما بين العاشرة والثانية عشرة من عمره، كان وجهه جميلًا له ملامح هادئة وشعر أصفر وعينان عسليتان وتبدو ملامحه غريبة عن أهل مدينة (مافرسك)، على الأرجح هو غريب، ربما يكون قد جاء من الشمال مثلي.

كان يلبس قميصًا صوفيًّا وسروالًا، وقد بدت ملابسه المهترئة أصغر من مقاسه، بينما كان حوله أسفل المنضدة كسرة خبز وبقايا طائر مطهوّ بريشه! ومصباح مُطفَأ وغطاء صوفي ثقيل، والكثير جدًّا من الكتب.

صرت بمحاذاته تمامًا، كان قلبي يخفق بعنف. من أين جاء هذا الصبي؟

قلت: «أهلًا». لم يجبني.

سألته وأنا أمد له يدي ليخرج من أسفل المنضدة الخشبية الكبيرة: «من أنت؟». لا إجابة أيضًا. فقط نظرة طويلة إلى عيني بوجه هادئ تمامًا.

خرج من أسفل المنضدة ووقف، أشرت له بأن يجلس على أحد الصناديق التي كانت هناك وجلست على آخر.

- «على الأقل أخبرني باسمك».

تكلم لأول مرة، وقال: «ليمان».

- «حسنًا يا (ليمان)، أنا (سولي تراك)، سعدت بمعرفتك».

- «...».

- «ماذا تفعل هنا؟».

قال بصوت رفيع واضح المقاطع واثق النبرات دون أن يبعد نظره عن عينيّ: «هذا بيتي! ربما عليّ أنا أن أسألك ما تفعل هنا».

ماذا يقصد أنه بيته؟ من أين يدخل ويخرج؟ هل مسؤولو المكتبة على علم بوجوده هنا؟

قلت: «كنت أبحث عن بعض الكتب ليس أكثر».

صمتنا قليلًا ثم قلت: «أين والدتك يا (ليمان)؟».

- «ليست لي واحدة!».

- «كل الناس لهم أم».

- «ليس أنا».

- «حسنًا، أين والدك إذن؟».

- «مات».

شعرت بالأسى لحاله، وقلت: «مع من تعيش إذن؟».

قال: «مع (أوجين)».

نظرت حولي وأسفل بقية المناضد، ثم سألت: «وأين هو (أوجين)؟».

قال من دون أن يبدل وقفته أو يحرك عينيه عن عيني: «كان هنا منذ قليل، سيعود الآن».

أخذت أتلفّت حولي، هل توجد غرف أخرى هنا لم أرها؟

فكرت قليلًا ثم قلت: «(ليمان)، هل (أوجين) هذا... فأر؟!».

- «نعم».

شعرت بالرعب، هل هذا الطفل يعيش هنا بالفعل بمفرده؟

قلت له بعد تردد: «(ليمان)، لماذا لا تخرج معي ونبحث لك عن بيت أفضل؟».

قال وهو يشير إلى الخارج: «لقد كنتُ هناك. لا يوجد بيت أفضل من هنا».

قلت: «ألا تخشى الظلام؟».

بدا محتارًا عن صدق، وقال: «لا أفهم. لماذا يخيفني الظلام؟!».

قلت وقد استسلمت: «من أين تحصل على طعامك إذن؟».

لم يجب وبدا عليه كأنه لم يسمع السؤال. جميل أمر هذا الصبي يختار الحوار الذي يريد أن يشارك فيه.

تركته وقمت من مقعدي والتففت حول المنضدة التي هي بيته، وجدت كما توقعت آثار أقدامه الصغيرة وهي تقود إلى مكان ما، تبعت آثار أقدامه، قادتني إلى الحائط الخلفي للغرفة، هل ما أتوقعه صحيح؟ ركضت إلى موضع الحائط فوجدت ما كنت أفكر فيه صحيحًا. كانت الأحجار مزالة من مكانها وتم إعادتها مجددًا لتسد الجدار الذي صار كوّة. ومن بين فتحات أحجار القرميد كان يأتي تيار هواء منعش أشعل لي حماسي مجددًا.

التفتّ إلى حيث تركت (ليمان) فأجفلت إذ وجدته خلفي مباشرة! هذا الطفل يتحرك بخفة. قلت له: «إذن هذا هو سرك الصغير. أفترض أنك تسرق طعامك من هنا وهناك إذن».

قال بسرعة: «أنا لا أسرق شيئًا».

- «إذن أنت تعمل من أجله؟».

- «نعم».

ارتبكت وقلت: «ماذا؟ ما عملك؟».

قال بهدوء: «أختبئ حول الحوانيت كي لا يراني أحد، أختار ما أريده من الطعام، أخطفه وأجري سريعًا قبل أن يصل إليّ أحد، أدور حول المكتبة عدة دورات أتأكد ألا أحد يتبعني، أدخل إلى الزقاق المهجور، أطهوه في الخارج، وأصحبه إلى هنا».

انطلقت مني ضحكة برغمي، وقلت: «يا بني، هذه هي السرقة. أنت تأخذ ما هو ملك لغيرك».

قال بهدوء: «ومن أين تظن أنها وصلت لغيري، لقد أخذها من أحدهم، الذي كان قد أخذها من غيره، كانت ملكًا لغيري لأنها كانت عند غيري، لما صارت عندي صارت ملكًا لي، هذا الفروج الذي أكلته اليوم لم يكن ملكًا للبائع، كان ملكًا لأمه الدجاجة».

ثم أضاف بوجه عابس: «وأمه قد ماتت! هذا الفروج لم يعد ملكًا لأحد، هو لآكله».

لم أدرِ كيف أعلق، أشفقت على هذا اليتيم الذكيّ المسكين وسكتّ.

أعدتُ إلحاحي: «(ليمان)، أرجوك، لا يمكنني أن أتركك هنا. تعال معي لمكان آخر يكفلك. أنت في حاجة إلى الرعاية».

كنت أعلم أنه سيرفض، ولكني كنت أنوي بالعودة بالمزيد من الرجال لأخذه إلى ملجأ ملائم له، لا يمكنني أن أتركه للفئران تتولى نشأته! ولكن لدهشتي لم يسارع بالرفض، اتجه إلى مخبئه وتناول كتابًا كان في موضع وسادته، وعاد إليّ، فتح الكتاب الذي كان مليئًا بالرسوم وأشار إلى رسم منها وقال: «هل يمكنك أن تأخذني إلى هذا المكان؟».

كان رسمًا لمسرح قديم من مسارح اليور حين كان المهرجون يتصارعون ويرقصون وينشدون على خشبة عالية وسط السوق. لم تعد مثل هذه الأماكن موجودة الآن، يوجد ما هو أفضل منها بكثير! مسارح حقيقية.

قلت له: «سآخذك إلى ما هو أفضل من ذلك».

بدا عليه السرور، ولأول مرة منذ رأيته أشرق وجهه بابتسامة فرح طفولية، ومن دون أن أشعر كانت تسللت إلي بسمته.

سيرا

انكببتُ على جسد (كالينا) أصرخ وأبكي، بينما ارتبك أكثر الحاضرين، وبدا (تومان) وقد جَزِع ولا يدري كيف يتصرف، ثم أشار الرجل الذي كان يجلس على العرش الذهبي لجنوده، فجرّوا الجميع إلى سلم ملتوي على طرف الغرفة، كان أكثر الرجال يقاومون، بينما كان (هوسيرل) يسب الجميع وقد أظهر قرب الموت ما كَمُنَ من شجاعته.

حاول أحدهم أن يجرّني أنا أيضًا ولكني أخذت أركله في قدمه ورفضت أن أترك جثة (كالينا) حتى اضطر إلى حملنا معًا أنا وهو إلى السلم صعودًا حتى ألقونا جميعًا في زنزانة واسعة بقضبان حديدية واسعة الفتحات، تطل على ذات البهو من أسفلنا، وأغلقوها خلفنا ورحلوا.

ما إن تم إغلاق البوابة حتى هرع (ميرون) إليّ، أزاحني بعيدًا وبدأ يتفحص (كالينا)، وضع يده أسفل عنقها ثم نظر إلينا وقال: «ما زالت حية».

علت صيحات الفرح من البعض إلا أن وجه (ميرون) العابس أخبرني أن عليّ ألا أفرح ولو قليلًا، من الواضح أنها ما زالت حية... حتى الآن!

صاح (ميرون) في (هوسيرل): «بسرعة، ناولني وشاح عنقك».

خلعه (هوسيرل) له سريعًا، وناوله له، أخذه (ميرون) وربطه جيدًا حول كتف (كالينا) النازف، وأخذ يضغط عليه. وعلى الفور تحول الوشاح إلى اللون الأحمر القاتم. «نحتاج إلى الكيّ، لا بد من نار!». كذا صاح فينا ميرون بعصبية.

أمسك (تومان) بقضبان الزنزانة وصاح بصوتٍ عالٍ: «نحتاج إلى النار هنا، نريد إسعاف مصاب، أنتم هناك، نحتاج إلى النار».

أتى رجل قصير القامة تبدو ملامحه أنه ضعيف الحيلة، وقال: «أخفض صوتك، أنت قريب من قاعة الكهنة، لا تريد لمثل هذا أن يتكرر لأحدكم». وأشار إلى جسد (كالينا) النازف على الأرض.

قال له (تومان): «أرجوك، فقط قضيب من الحديد الساخن وأعدك أن أخرس بعدها».

قلَب الرجل النظر بيننا ثم بدا وقد استسلم لنداء العاطفة بداخله، غاب فترة ظللنا فيها صامتين لا ندري ما نفعل، بينما (ميرون) يحاول أن يسيطر على النزيف. ثم عاد الحارس ممسكًا بقضيب حديدي ساخن عن طريق كُلّاب يمسكه بقُفّاز قماشي سميك، ناوله لنا من خلال القضبان، هرع (ميرون) إليه وتناوله منه ثم أمرني أن أفك وشاح (هوسيرل) من فوق كتف كالينا. نزع قطعة الخشب المدسوسة بداخله من السهم المكسور بأصابعه التي غاصت حتى آخرها في لحم (كالينا) فاقدة الوعي، ثم همس في قلق: «سامحيني». ودفس القضيب عميقًا في جرحها.

صرخت (كالينا) واستفاقت من الألم، حاولت أنا و(ميرون) أن نسيطر عليها راقدة. بينما ارتفعت رائحة الشواء لتثير غثياننا جميعًا. بعد برهة نزع (ميرون) القضيب ثانيةً وحاول أن يهدئها بينما كانت تهذي هي: «تحت المنضدة، (ماندا)، (ماندا)، عدني.. تحت البحر هناك! هل تفهم؟». ثم غابت عن الوعي مجددًا.

أخذت أبكي بجانبها بينما صارحنا (ميرون): «بدون أدوية، سوف نفقدها بحلول الصباح».

قال (هوسيرل) بحذر مشيرًا إلى الخارج: «وهل سيبقينا هؤلاء أحياء حتى الصباح؟».

سؤال جيد يا (هوسيرل)، سؤال جيد!

صاح (تومان) غاضبًا ملوحًا بقبضة يده في تهديد أمام وجه (سولي تراك): «كل هذا خطؤك أنت، أنت من أخبرنا أن ننزل إلى الجزيرة، أنت من سبب لنا الوقوع في الفخ، دماء هذه المرأة في رقبتك أنت، هل تفهمني يا رجل؟».

بدا (سولي) حزينًا للغاية وفاقدًا لشغف الحياة ذاتها وهو ينظر إلى عينيه في ثبات ويقول: «لو كنتَ تريد أن تلوم رجلًا لم يعتد أن تُهرَق بسببه الكثير من الدماء من قبل، فقد اخترتَ الشخص الخاطئ!».

قال (ميرون) شيئًا مدافعًا عن (سولي)، فهب (تومان) فيه غاضبًا هو الآخر، بينما ارتفع صوت (هوسيرل) في محاولة تهدئته. أما أنا فكنتُ أنظر إلى شيء آخر.

صرختُ فيهم: «اخرسوا جميعًا»! ثم أشرتُ إلى حيث كنت أنظر، تراصوا جميعًا بجانبي على طرف الزنزانة ممسكين

بالقضبان يشاهدون ما يحدث في البهو الواسع أسفلنا في القاعة التي كنا فيها.

أصخنا السمع لنستمع بصعوبة إلى صوت الكاهن العجوز وهو جالس من بعيد على عرشه الذهبي مخاطبًا رجلًا من العامة من سكان الجزيرة: «ضع قربانك واسأل سادة السماء عما تشاء».

وضع الرجل يده في كيس قماشي وضعه حول عنقه وأخرج منها قبضة مليئة بالروكيّات الفضية ووضعها في الوعاء الرخامي أمام الكرة. تقدم أحد الكهان وفتح له البوابة المعدنية، تقدم الرجل في هيبة، رفع يديه في وجل ثم وضعها على جانبي الكرة ملامسًا لها، على الفور سمعنا صريرًا عاليًا، رفعنا رؤوسنا إلى الأعلى ورأينا كوة السقف تنفتح، وتدخل منها أشعة الشمس الصفراء الباهتة والتي تشي بأننا قد اقتربنا من الغروب. أعدنا النظر إلى الكرة التي صارت سماوية تمامًا وقد استنارت بضوء سماوي سقط من كوة السماء. رفعتُ رأسي مجددًا أبحث عن الخدعة، لا شيء! لا توجد أية ألواح معتمة تعطي ضوء الشمس لونه السماوي، الفتحة شفافة تمامًا أمام أعيننا. كيف يحدث ذلك؟!

بدا الرجل سعيدًا إلى أقصى درجة، وأخذ يتقافز فرحًا بينما ضحك الكاهن العجوز في هدوء، وقال: «إنه (جالين) يباركك بنفسه، سيد الخير والنِعَم. امضِ إلى سفرك يا رجل، لا تخشَ شيئًا، سوف يأتيك رزق واسع». ركع الرجل أمام الكاهن وظل يشكره بحفاوة وخرج.

أغلقوا باب القاعة خلفه، وأغلقوا كوة السماء، وأغلقوا البوابة حول الكرة، ثم قام الكاهن من مقعده واتجه إلى باب جانبي، واختفى.

نظرتُ إلى (سولي) وقلتُ له: «ما معنى هذا؟ ماذا يفعل هؤلاء المخابيل؟».

ظل صامتًا فترة، وقال: «يفعلون ما يجيد كل إنسان فعله... بعض التجارة الناجحة»!

جيرالد

كانت خطبة حماسية تلك التي أشعل بها (كروماز) أجواء الثكنات بعد حرق جثة (سوقار) وتأبينه. إن (كروماز) يعرف كيف يلقي خطبًا جيدة حين يتطلب الأمر، يجب علينا أن نرد بقوة مقتل أخينا كما قال، يجب أن نذيق الكِميتيين جزاء ما فعلته (إيليت)!

ثم قام (كروماز) وأعلن وسط الجموع الحزينة الغاضبة أنه يريد أن يشكر أحدهم.

قام (كروماز) من منضدته في وسط مدخل البهو العظيم، مقطبًا جبينه ناظرًا إلى الأرض في أسى عاقدًا كفيه أمام خصره، وقال: «أود أن أتقدم بالشكر إلى السيد (جيرالد)». على الفور صاح الجموع بهمهمات مدحي، وربّت أحدهم على كتفي من الخلف، تابع (كروماز): «كان السيد جيرالد أول من استجاب لصيحات (سوقار) لما هب لنجدته في منتصف الليل دون أن يعرف حتى حجم الخطر الذي يواجهه». ثم سكت قليلًا ليسمح للجموع بإعادة همهمات استحسانهم. ثم قال: «لقد انتقم مبكرًا لأخيه من المرأة الهاربة التي ذبحته، كنتُ هناك عائدًا بالصدفة من الخارج لما رأيتُ (جيرالد) يقذف سكينه في الهواء ببراعة ليستقر في عنق المرأة».

ثم رفع (كروماز) كأس نبيذه عاليًا، ففعل الجميع مثله، ونظر في عينيّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة، وقال: «إلى (سوقار) الوفي و(جيرالد) الشجاع». ردد الجميع خلفه ثم شربوا نخبهم.

ربّت العديد منهم على كتفي بينما كنت أحاول أنا الرحيل بعد أن شعرت بغثيان داخل معدتي، كنت عبوسًا في وجه الجميع وقد فهموا أن ذلك حزنًا لرحيل (سوقار).

اقترب مني (كاي)، وجلس يشرب نبيذه بجانبي. ويثرثر وهو ثَمِل.

- «يا له من رجل مسكين، (سوقار) أن يموت على يد امرأة تافهة».

- «..».

- «لا أتخيل أن تكون نهايتي كذلك، ويتحدث الناس في النهاية أن امرأة هي من قتلتني، هل تفهمني يا (جيرالد)، إنه أمر.. مهين نوعًا، على الأقل أحتاج إلى أن يكون رجلًا قويًّا هو الذي يضع حدًّا لحياتي، أو.. أو انفجار كبير كذلك الذي قمنا به في ليبنتس.. آه لقد كانت ليلة طيبة. هل تذكر وجه تلك الطبيبة التي سلختُ جلد ذراعها وهي حية؟ كيف كانت تتلوى من الألم».

- «...»

- «نعم، نعم، أعرف أنك لا تحب أساليبي العنيفة، ولكنها كانت تستحق يا رجل، المرأة كانت تغرق الأطفال أحياء في بركة ماء آسن لترى إن كان إخوتهم التوائم سوف يشعرون بشيء أثناء احتضارهم. لقد كانت امرأة سافلة، استحقت كل جزء من عذابي. مثل تلك المرأة السافلة التي قتلت (سوقار)».

ثم أغلق عينيه وصمت فترة وقد بدا وقد غفل قليلًا، قلت له: «لم تفعل».

أفاق من غفوته وقال بلسان ثقيل: «هل كنتَ تكلمني؟».

- «كنت أقول لك إن المرأة لم تفعل. أنا من قتل (سوقار) في تلك الليلة. ذبحتُه بنفسي وحين كانت مديتي تمر على عنقه شعرت بنفسي تتمزق معه، لقد كان أخي وأنا خنته. لقد كانت هذه آخر فكرة يفكر فيها، من قتلني كان أحد إخوتي!».

نظر لي (كاي) بعينيه الحمراوين فاتحًا فاه في بلاهة وجسده مرتخٍ على مقعده، ثم ابتسم في ود، وأحاط عنقي بذراعه وقال: «نعم، هذا أفضل، (سوقار) يستحق ذلك منك، لنردد ذلك جميعًا، من قتل (سوقار) كان رجلًا شديدًا مثلك، ولم تكن تلك المرأة الضعيفة السافلة. أنت رجل طيب يا (جيرالد)، تشرف (سوقار) بكلماتك حتى بعد موته». ثم تجشأ قائلًا: «ليرقد في سلام، كان رجلًا شديدًا». ثم أغمض عينيه وغفا ثانيةً.

كانت عيناي مثبتتين على (كروماز) الذي كان جالسًا يعزف لحنًا حزينًا بنايه أمام الجرة التي احتفظنا فيها برماد سوقار بعد حرقه، ووضعناها في خزانة الجرار المشابهة، كانت هذه مقبرتنا الخاصة لإخوتنا الذين سقطوا في الحرب.

تسللتُ إلى غرفتي، وجلستُ فيها متحفزًا على طرف سريري مسترقًا السمع من الباب الخشبي الرفيع حيث يقود ممر قصير منه إلى البهو مباشرة. كنتُ أنتظر رحيل (كروماز)، وأنا أعلم أنه سيفعل. الليل له دائمًا، لا يقضي معنا المساء إلا نادرًا.

بعد فترة سمعتُ صوت البوابة يُفتَح، وحارس البوابة الجديد بعد (سوقار) يحيي (كروماز) بصوت عالٍ. فتحتُ باب غرفتي وتلفتُّ حولي، ثم خطوت إلى الخارج مجتازًا البهو الذي كنا فيه.

مررتُ على قاعة الاجتماع، وبجانب المطبخ حتى وصلت إلى سلم الدور العلوي، أعدتُ النظر خلفي لأتأكد ألا أحد يتبعني، ثم توجهتُ مباشرةً إلى جناح (كروماز)، أخرجتُ من جيبي مديتي الرفيعة، وعبثتُ بها في قفل بابه كما كان علمني (كاي) قديمًا، حتى انفتح.

نظرتُ خلفي في حذر، ثم دخلت.

هارول

أيقظني الخادم هذه الليلة بطرقات خفيفة على باب غرفتي.

منذ رحيل (سولي) وأنا أسمح للخدم بالدخول إلى البيت مجددًا، في الحقيقة كنت قريبًا من أن أطلب منهم ذلك بإلحاح، ولولا الوقار لأمرتهم بالنوم في غرفته! لا أحتمل تلك الوحدة القاسية، وتلك الوحشة التي تتسلل إلى قلبي في ظلمة الليل.

قمت من سريري أتخبط في الظلام بين دوار رأسي حين أقوم فجأة وبين خمول النوم، فتحتُ الباب غاضبًا، فقال لي الخادم بوجه خائف: «أعتذر لك بشدة يا سيد (هارول)، لقد أصر على لقائك الآن، وأخبرني أنك لو علمتَ في الصباح أنه قد جاء ورحل دون إخبارك فسوف تعاقبني، لذلك لم أجد بدًّا م...».

قاطعته في سأم: «من؟».

قال: «رجل اسمه (دال)».

(دال)! ماذا يريد؟ وفي هذه الساعة!

قلت له وأنا أمط عضلات كتفي في تعب: «أدخله إلى قاعة الضيوف وأعدّ لنا بعض المارين الساخن».

بدأ في التلعثم والتردد، قلت له: «ما الأمر؟».

- «سيدي، لا أظن أنه من الملائم أن أدخله إلى البيت».

- «ولماذا؟».

- «إنه مغطىً بالكامل بالدماء!».

شعرت بالقلق، ماذا يحدث؟

أمرت الخادم أن يسبقني حتى أبدل ملابسي، ارتديت المعطف الثقيل وقبعة الرأس، ولا أدري لماذا قدّرتُ بشكل ما أني سوف أحتاج إلى الذهاب في الخارج.

لما رأيتُ (دال) على عتبة الباب خارج الحديقة الداخلية علمتُ أنه على ما يرام، كانت عباءته مغطاة بالدماء بالكامل بالفعل ولكنها لم تكن دماءه على الأرجح، لم تكن هناك جروح ولا خروق في ملابسه.

قال وقد بدا قَلِقًا بدون سلام ولا تحية: «هناك أمر يجب أن تراه».

نظرتُ حولي متلفتًا باحثًا عن آخرين، فلم أجد. أشار هو إلى عربتي التي كانت خيولها تغفو في مربضها، وقال: «يجب علينا أن نرحل الآن».

- «كف عن اللهفة، انضج قليلًا. أنا لن أتحرك قبل أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون».

- «ثق بي».

- «لا أجد سببًا كي أفعل».

قال هامسًا وهو يقترب مني: «إنه بخصوص (كروماز)»!

نظرتُ له قليلًا في تردد، ثم فكرتُ برهة، وفي النهاية التفتُّ للخادم وقلت له: «أيقظ الأخوين، وأعدّ العربة للرحيل».

ثم قلت موجهًا كلامي لـ (دال): «لو كان هذا فخًّا، فأنت لن تنالني بسهولة، هل تعلم ذلك؟ إن الأخوين يجيدون استخدام البارود والمُدَى».

هز رأسه في عصبية بمعنى: (لننتهِ من هذا سريعًا).

كان المكان الذي أخذنا له (دال) هو وكر صغير قذر في أحد الأحياء الفقيرة، كان البيت مغلقًا بإحكام، ومفتاحه كان مع (دال)، التفت إلينا قبل أن يفتح الباب وقال: «يجب أن أحذركم، ما سترونه ربما يكون... شديدًا»!

أشرتُ إلى (دال) أن يفتح، ولما فتح علمتُ أنه كان على صواب!

كانت الدماء في كل مكان. أعني في كل مكان فعلًا. على الحوائط والأبواب والأسقف. لم تكن دماءً فقط، بل هناك أحشاء أيضًا عالقة على الحوائط والسقف! الذي فعل هذا لا بد أنه وحش كاسر، لا يمكن أن يكون إنسانًا. وفوق كل ذلك كانت الرائحة فظيعة.

- «هل (كروماز) مسؤول عن هذا؟!».

- «هل تتوقع إجابة تريحك؟».

صمتُّ، هو على صواب مجددًا. لا أتوقع إجابة تريحني.

قال (دال) وهو يشير إلى إحدى الجثث: «هذا ابن أخي، اعتدتُ أن أمر عليه كل يوم والآخر، لأنني... يمكنك القول إنه تاجر وأنا أشتري منه شيئًا».

نظرتُ له في ريبة، تجاهل ذلك وأكمل: «اليوم جئتُ إليه وطرقتُ الباب فلم يجبني أحد. فتحت الباب بنسخة المفتاح الاحتياطية التي يضعها تحت عتبة الباب فوجدت هذا. كان ابن أخي لم يمت بعد، كان يحتضر، قال لي كلامًا كثيرًا. تحدث عن الزائر الليلي أشقر الشعر الذي يلبس العوينات والذي جاء مع آخرين. تحدث عن المدى، والحبال المجدولة، ومقاليع الأظافر».

ثم دفن وجهه بين كفيه وقال: «لقد كان الأمر فظيعًا، لقد قتلهم جميعًا».

- «ولماذا يفعل ذلك؟ هل هم من رجال الضبط؟».

- «لا».

ثم توقف عن الكلام وكأنه يحاول أن يزن خطر ما سيقوله، في النهاية قال: «أصدقاء ابن خالي هؤلاء كانوا..».

قلت بنفاد صبر: «مهما كانت فظاعتهم فأظن أنهم قد نالوا جزاءهم بما يكفي، يمكنك أن تتحدث».

قال: «كانوا تجار أطفال».

امتعضتُ، وألقيت نظرة على الجثث الممزقة في اشمئزاز، يبدو أنهم لم ينالوا جزاءهم كفاية.

تابع (دال): «أعني، أنت تعلم، هناك من الأثرياء من يشتهون أجس-...»

قاطعته بسرعة: «لا داعي للمزيد من التفاصيل يا (دال)».

قال بسرعة: «ابن أخي هذا لم يكن كذلك، كان يتاجر في العقاقير فحسب. بعض الأعشاب من جزر الخط الغربي كانت تقوم مقام مائة كأس من الخمر. ولكني أظن أن (كروماز) لم يصدقه في صرخاته الأخيرة أنه لم يكن يمتهن نفس مهنتهم، كانوا يتشاركون مكان العمل ليس إلا».

نظرت إلى (دال) بنظرة ذات معنى، فقال وهو ينظر إلى الأرض في خجل: «على كل حال، قد نال جزاءه هو أيضًا».

قلتُ وأنا أتقلب وسط الجثث الأربعة، محاذرًا أن يتلطخ ثوبي بالدماء التي كانت في كل مكان: «ومن أخبرك أن هذا كان (كروماز)؟».

دمعت عيناه وقال: «هذا هو الجزء المريض في الأمر».

ثم جلس على مقعد غارق في الدماء دون أن يبالي، وأشار إلى الباب الخشبي، نظرتُ إلى حيث أشار، لم أفهم في بادئ الأمر، ثم تبين لي الأمر ببطء، كان هناك نُشَّابًا معلقًا على الباب من الداخل ومشدودًا بحبل متراخٍ على الأرض.

تابع (دال) بصوت متحشرج: «لقد قيده إلى المقعد الثقيل وجعله مواجهًا للباب، أمام هذا. وانتظر حتى أمر عليه، كي أفتح الباب، فينطلق السهم القاتل». ثم أجهش في البكاء وقال: «لقد قتل الجميع، إلا ابن أخي، تركني أنا كي أقتله»!

تركته وِشأنه كي يفرغ من بكائه ولأول مرة أشعر بالشفقة تجاهه، ثم قلت له: «لماذا فعل ذلك؟».

رفع وجهه من بين كفيه وقال: «لأنه ترك معه رسالة، وأخبره أن يخبرني إياها حين ينتهي كل شيء. رسالة لي، ولك!».

شعرت بالقلق يسري في جسدي كله، وقلت: «أي رسالة؟».

قال (دال): «يقول لنا (كروماز): عملي على وشك الانتهاء، استعدوا»!

تومان

لا يمكن القول إني استيقظت من النوم لأني أشك في أنني قد نمت شيئًا منذ بداية الليلة.

ليلتنا الأولى في تلك الزنزانة الكئيبة، حيث غط الجميع في النوم من التعب، وكانت (كالينا) جريحة بين الحياة والموت وقد أصابتها الحمى. وفي سري سخرت من نفسي: لا تبدو هذه بأروع بعثة علمية في العالم!

زحفتُ على ركبتي حتى وصلت إلى الموضع الذي ترقد فيه (كالينا) من الضوء الشحيح الذي يأتي من النافذة لقمر أحدب. كانت (كالينا) محمومة وقد غطيناها بكل الأغطية التي معنا، وسهر (ميرون) عليها بما يكفي يسقيها من الأعشاب التي ناولنا إياها الحارس المتعاطف النحيل.

جلستُ بجوار رأسها، ومددت يدي في وجل أملس على شعرها، لا أحد يستحق أن يموت هنا، ولهذا السبب. حاولت أن أجفف من عرقها البارد. إنها مسكينة، لا شك في ذلك. خلف ملامح المرأة القوية التي لا تهاب شيئًا تقبع هذه المرأة الهشة، جميعنا هنا له قريب أو صديق، أنا لديّ (سيرا)، و(سولي) لديه (ميرون) الأبله الذي يتبع أي مجنون في أي مكان، و(هوسيرل) الصموت لم يفتقد يومًا إلى رفيق. بينما (كالينا) كانت وحيدة، تهذي عن فتاة اسمها (ماندا) لا بد أنها تفتقدها، لا بد أن وحدتها مضاعفة.

- «هل ستكون بخير؟».

أجفلتُ وارتبكت ونظرت إلى مصدر الصوت، فإذا هو (سولي) الذي كان جالسًا مستندًا بظهره على الجدار في وضع أشبه بالنوم، كنت أظنه نائمًا، وهو كان مستيقظًا طوال الوقت! سحبتُ يدي من شعر كالينا ببطء وحاولت أن أدّعي أنه لم يرَ شيئًا ليس من المفترض أن يراه، وقلت: «لا أعلم».

ثم زحفتُ بركبتي حتى صرت بجانبه، وقلت: «لماذا أنت مستيقظ؟».

لم يجبني ولكنه لم يرفع بصره عن (كالينا). إذن هو الذنب ما منعه من النوم.

صمتنا فترة ثم قلت: «لماذا وضعونا في هذه الزنزانة؟ لماذا لم يقتلونا؟».

تنهّد وقال: «قوانينهم تمنعهم من ذلك. هم لا يطلقون الأحكام على الناس، هم ينفذون الأحكام التي يظنون أنها تأتيهم من السماء».

أشرت إلى (كالينا) وقلت له: «وهذه؟ لقد أطلقوا ما هو أكثر من مجرد أحكام عليها».

قال: «لأنها عصت أمر الكاهن الأكبر، هذا جعل دماءها محللة هنا!».

فكرتُ قليلًا، ثم قلت: «إذن هم ينتظرون أن نوافق على أن نضع أيادينا على هذه الكرة القذرة. وماذا لو رفضنا؟».

مط شفتيه بمعنى أنه لا يعلم.

قلت أنا: «بل ماذا لو قبلنا؟ ما الوضع؟ افترض أني وضعت يدي وأضاءت الكرة بلون أحمر من السماء، أفترض أن هذا يعني أن أعيش».

- «بل الأحمر هو ضوء سيد الموت».

قلت وأنا أقلب عيني إلى الأعلى: «إذن افترض أن اللون الذي أضاء الكرة كان لون سيد الحرب هذا؟ هل سيرغموننا على القتال مثلًا؟ وماذا لو كان سيد الخصوبة؟ لا أريد أن أفكر ما سيؤول إليه الأمر حينها».

قال غير عابئ بسخريتي، وما زال نظره مثبتًا على (كالينا): «ليس الأمر كذلك، من يحاكمك هو الكاهن، ولكن بناء على أحكام السيد الذي يختارك».

نظرتُ له في غير فهم، فقال: «تخيل أن هناك سبعة كتب، كل كتاب له قوانينه الخاصة، ما تفعله الكرة هو أن تحدد أي كتاب سوف تتم محاكمتك على أساسه».

هززت رأسي بعد أن فهمت، ثم قلت: «وأين هذه الكتب؟ أين القوانين الخاصة بكل (سيد) من هؤلاء؟».

- «ليست عند أحد، هي من أسرار الكهانة».

- «تعني أنه في النهاية سيحكم بما يشاء ولن يستطيع أحد أن يحاسبه».

- «نعم، هذا هو ما أقصده تمامًا».

عبستُ وأنا أشعر بالغضب يتجدد في داخلي، هل هذه هي النهاية؟ وعلى يد هؤلاء؟!

قلت بامتعاض وتقزز: «أعني، ماذا يفعلون؟ لماذا يفعلون ذلك؟ ما الذي يدفع الناس لاختلاق كل هذه الكذبات، وكل هذه الأساطير لتفسير شيء بهذه البساطة والوضوح؟».

- «لأنه في حقيقته ليس بالبساطة التي تظن. ربما نحن اعتدنا على وجودها في حياتنا فحسب، ولكن حاول أن تخرج من وعيك الذي حصرك في داخل عالمه وحاصرك، ولو قليلًا، حاول أن تنظر إلى هذا العالم من موضع خارجه، وقل لي وقتها إن كان معنى الحياة والوجود ذاته بالنسبة إليك يسيرًا على فهمك. أن توجد أنت، لا غيرك، أنت بالذات، مجرد وجودك، هل يبدو لك شيئًا بسيطًا؟!»

لم أرد، فتابع: «أن تموت، أن تختفي بعد أن كنت ملء السمع والبصر، أن يُكتَب على كل شيء أن يكون مصيره إلى الفناء والعدم، كقانون شامل عام لا يحابي أحدًا، قاطع كالسيف. هل هذا في رأيك أمر عادي؟

هل التكاثر والإنجاب والخصوبة وقدرتك على صنع إنسان آخر دون أن تدري كيف صنعته ولا لماذا جاء، وشعورك حين تفعل ذلك بالحب الجارف غير المشروط للكائن الصغير الذي أتى العالم بسببك، ولكنك تشعر أنك أنت من أتيتَ إليه بسببه. هل كل هذا يبدو أمرًا تافهًا؟

وكذا الحرب، الحب، الفنون، والخير. كلها أمور غير عادية. في رأيي ما فعلوه كان غريبًا ولكنه مفهوم!».

قلتُ له ناظرًا إلى جانب وجهه: «وماذا تؤمن أنت؟».

صمت قليلًا ثم قال: «أن كل هذه الأشياء وغيرها لها تفسير واحد».

قلتُ: «أنت تؤمن أن هناك سيدًا يظهر أيضًا في السماء؟».

قال وهو شارد تمامًا: «لا. أنا أؤمن أن هناك سيدًا يأبى أن يظهر في أي مكان»!

هممتُ بأن أرد عليه ولكن صدرت تأوهات من (كالينا) فهرعنا أنا وهو إلى حيث ترقد، كانت قد فتحت عينيها، وبدت في حال أفضل، أشارت إلى إبريق الماء القريب وطلبت أن تشرب. ناولتها الماء فرشفت منه قليلًا ثم عادت إلى الاستلقاء متأملة.

وقبل أن تخلد إلى النوم مجددًا، نظرت إليّ بطرف عينيها وقالت مداعبة: «كان يجب أن أتركك أنت تقود السفينة اللعينة يا (تومان)».

ضحكتُ برغمي ومددتُ يدي أربّت على كفها، لعلك تصبحين على خير من هذا يا (كالينا)!

جيرالد

لم تكن غرفة، كانت مكتبة! كان (كروماز) يسكن في مكتبة. كانت الكتب متناثرة في كل مكان، على الفراش، وعلى الأرض، وفوق منضدة الطعام الصغيرة، وعلى الأرفف المثبتة على الحائط.

أخذتُ أتلفّت حولي في الغرفة التي بدت عادية جدًّا، حتى حانت مني التفاتة إلى الجدار المقابل فأجفلت. كان الجدار مكتوبًا عليه بالكامل بالحبر الدائم، اقتربت من اللوحة المزدحمة وحاولت القراءة، كان عليها ستة عشر اسمًا، لم أعرف معظمهم. متى كتب كل هذا؟ من المفترض أن هذه الثكنات قد تم بناؤها حديثًا!

كانت الأسماء تشكل دائرة، بينما كانت هناك كلمة واحدة مكتوبة في وسط هذه الدائرة، كلمة بلغة غريبة لا أعرفها، وكانت هناك خطوط متداخلة تصل بين كل اسم من هذه الأسماء ببعضها، بعض الأسماء كان لا يكوّن إلا صلة واحدة مع أحدهم، والبعض كانت تخرج من اسمه عدة خطوط تصل بينه وبين معظم المجموعة.

شعرتُ بالرهبة، كل هذا لا نعرف نحن عنه شيئًا! إنه أشبه بمشروع (كروماز) السري الذي يخفيه عنا ويقوم بتنفيذه بمفرده. شعرتُ بأهمية الأمر، فأخرجتُ من جيبي قطعة من الورق كنت كتبت عليها بعض مستلزمات الثكنات من المؤن والأطعمة، قلبتها على ظهرها وتناولت قلمًا كان موضوعًا على منضدة الطعام أمامي، ونقشت كل هذا في ورقتي دون أن أفهمه حقًّا.

انتهيت ولكن قبل أن أخرج من الغرفة شعرت بفضول أخير. كنتُ أتحرك بحذر، لا أريد أن أترك أي أثر يدل على دخولي هنا. ولكني لم أستطع مقاومة إغراء فضولي لمعرفة ما كان يقرأ فيه (كروماز) هذه الليلة بالذات. تناولتُ الكتاب المقلوب على ظهره على وسادة سريره، لا بد أن هذا الذي كان يقرأ فيه قبل الخلود إلى النوم. ولدهشتي، لم يكن كتابًا، كان مفكرة!

قرأت آخر صفحة، والتي كانت مكتوبة بخط كروماز الدقيق: [شعر أنه يريد إلقاء نظرة أكثر قربًا على غرفته، تسلل في الليل إلى الطابق العلوي، ودلف إلى الحجرة ليتفاجأ بكل هذه الفوضى، كل هذه الكتب، ثم نقش الخطوط والأسماء المكتوبة على الحائط. وقبل أن يخرج قرر أن يلقي نظرة أخيرة على الكتاب الذي كان يقرؤه، ولكن ما هذا؟ هذه مفكرة، مكتوب فيها ما قمتُ به أنا بالفعل! كذا فكر، وقد شعر بالرعب، قرر أن يخرج الآن من الباب].

شعرتُ بالخوف، بالغرابة. هل كان ينتظرني؟ قمت بسرعة وفتحت باب الغرفة كي أخرج، وجدتُ (كروماز) أمامي وهو يبتسم، نزع عويناته وبدأ في تنظيفها وهو يقول: «ثم تفاجأ به يقف على عتبة الباب».

ثم ضحك بهدوء، وقال بعدها: «مرحبًا يا (جيرالد)، هيا لقد تأخرنا، لدينا موعد هام». ثم أشار لي بأن أتبعه ومضى.

سولي

في الأيام التالية كان (ليمان) قد اعتاد عليّ واعتدت عليه. بعد أن خرج من مخزن المكتبة أخذته إلى المزيّن حيث اغتسل وصفف شعره وابتعت له بعض الملابس الجديدة مع وجبة طعام زكيّة تعوضه عن السنين العجاف. بعدها كان من المفترض أن أتركه، وعرفت في قرارة نفسي أني لن أفعل!

كانت لدي رحلة بحث تنتظرني ولم يكن لدي من أموال (أفيري) ما يكفي لكل هذا البذخ، ولكني لم أكن أفكر في ذلك الآن. كانت السعادة الخجول التي ترتسم على وجه (ليمان) الصموت تأسرني بحق. أمسكت نفسي أكثر من مرة وأنا أحدق فيه مبتسمًا في شرود. غريبٌ كيف يمكن للحياة أن تعيد شغفك بها في أغرب الأوقات الممكنة.

لم يتغير (ليمان) كثيرًا، كان وما زال يراقب الحياة حوله بنظرة جامدة، هازئة قليلًا، ثابتة، ومحايدة! وكأن الحياة لا تعنيه في شيء. وكأنه يعلم كل ما سيتم فيها لاحقًا!

لم يتغير كثيرًا، ولكنه بدا وقد أدخلني إلى عالمه، لم أعد من الآخرين، مع الوقت صرت في مرتبة وسطى بينه وبين العالم، لا يخبرني بما يجول في خاطره، لا يجيب عن أغلب أسئلتي فيما يخصه، ولكنه في وقت النوم، وحين كنا نأوي إلى أحد أنزال الطريق للمبيت، كان يتقلب في نومه ويصحو في منتصف الليل ليراني ساهرًا أقرأ في أحد الكتب الكثيرة التي أخذتها من مخزن المافرسك، فيتبسم في طمأنينة ثم يعود إلى النوم مجددًا.

لم أكن أعلم إلى أين سأذهب بعد ذلك، ولكني قدرتُ أن علي الانتهاء من قراءة كل هذه الكتب بدقة، ربما شيء بداخلها سوف يدلني على طرف خيط جديد، ومن آن لآخر كنت أخرج الرقاقة التي كُتِبَ عليها الكميت توبو لأقرأها من جديد، لعلي أفهم المزيد.

كان (ليمان) يقرأ أيضًا طوال الوقت، تعود أن هذه تسليته الوحيدة، كان يقرأ القصص والمسرحيات بشراهة، سألته ذات ليلة: «لماذا تثير القصص شغفك أكثر من... الحياة نفسها؟».

قال رافعًا عينيه من الكتاب الذي كان يلتهمه ناظرًا إليّ بينما كان منبطحًا على سرير غرفة الحانة: «الحياة التي أخلقها في رأسي أفضل منها».

قلت: «تقصد الحياة التي يخلقها كتاب هذه القصص».

قال وهو يهز رأسه ناظرًا في كتابه ومشيرًا إلى رأسه: «أنا أغيّر كل هذه القصص هنا إلى أخرى أفضل منها».

صمتنا قليلًا ثم قلت مستغلًا أنه صار يتكلم: «(ليمان)، كيف مات والدك؟».

قال لي: «ليس كذلك».

- «ما هو الذي ليس كذلك؟».

- «ليس هذا هو السؤال الأمثل لمعرفة ما تود معرفته عني».

ابتسمت بركن فمي ساخرًا من نفسي ومن هذا الصبي الذي يفوقني ذكاءً، وقلت: «وما هو السؤال الأمثل لذلك؟».

رفع ناظره عن الكتاب وجلس معتدلًا وطوى كتابه وقال ناظرًا في عينيّ: «أن تسألني إن كان موت أبي هي قصة الحياة أم قصتي التي هي أفضل»!

طويت بدوري الكتاب الذي كنت أقرأ فيه وقلت له: «(ليمان)، هل تعتبرني صديقك؟». ظل ناظرًا إليّ ولم يرد. قلت: «إن كنت تعتبرني كذلك، هل يمكنك أن تحكي لي ما أود معرفته عنك؟».

- «كم تريد أن تعرف؟».

- «أنت تعلم أني أريد أن أعرف كل شيء».

حدّق في عينيّ لفترة، ثم أشاح بوجهه عني ناظرًا إلى الأرض، ولأول مرة يفضل الكلام دون أن ينظر في عيني محدثه، ثم قال: «وُلدتُ من غير أم. أعرف أن هذا مستحيل، هذا ما عرفته بعد ذلك. ولكني حين كنت صغيرًا لم أكن أفهم أي شيء عن حقيقة الدنيا فعلًا.

كنت أنا وأبي، وكان أبي وأنا، فقط. لا يوجد غيرنا في هذا العالم، على جزيرة صغيرة لا يوجد فيها سوانا ترعرعت. وحين صرت أعرب عن لساني علمني أبي أن هذه الدنيا، تلك الدنيا الصغيرة، الجزيرة الصغيرة، القردة والأسماك والنمل، والسماء والقمر والنجوم والبحر وبعض الشجر، هذا هو كل ما هناك! هذا هو كل العالم! لا يوجد فيه غيرنا».

اندهشت وقلت: «لماذا فعل ذلك؟».

تجاهل سؤالي وكأنه لم يكن وأكمل: «كان أبي يصطاد السمك ويقطف المانجو ويشعل النيران ويتحدث معي حتى يعلمني الكلام، ومن آن لآخر كانت تلوح سفينة في الأفق فكان يخبرني أبي أنها زعنفة سمكة كبيرة وألا داعي من الخوف منها، فهي لن تؤذيني.

علمني أبي كيف أعيش الحياة كما عاشها، علمني كيف أرسم بأصباغ الأشجار على جبهتي علامات الحظ حين نحاول اقتناص غزالة، كيف نتراقص حول النيران لنجلب المطر، كيف نجلس أمام البحر بالساعات نتأمل لاجتذاب الحكمة وسمو النفس.

حين وصلت السادسة كان أول حلم أتذكره، أذكر أني استيقظت من النوم في فزع، ركضت إلى أبي: أبي، استيقظ. صاح مفزوعًا فقلت له: رأيت أبًا غيرك! لم يفهم، قلت له، رأيت أبًا غيرك وأنا نائم، ورأيت أنا آخر، لم يكن كشكلي في صفحة المياه.

ظل يفكر قليلًا وبدا وقد استوعب ببطء أن طفله قد رأى حلمًا فيه أناس آخرون، طفله الذي لم يكن يعرف أن هناك أناسًا آخرين في هذه الحياة!

طمأنني وقال لي، إن كل هذا في عقلي، إن عقلي يخلق عالمًا آخر مثل ما نحن فيه. سعدت بذلك، صار عقلي يخلق كل ليلة عالمًا آخر، كنت أتمنى لو كان بإمكاني ألا أصحو من النوم. لو كان بإمكاني أن أحتفظ بخلائقي التي صنعتها في رأسي إلى الأبد، أن آتي بها بطريقة ما إلى عالمي أنا.

حين وصلت السابعة سألت أبي السؤال الذي غير كل شيء».

ثم توقف (ليمان) عن الكلام. سألته: «ما كان هذا السؤال؟».

تنهّد وكأنه يتذكر ذكرى مؤلمة وقال: «سألته من أين جئتُ إلى هذا العالم يا أبي؟ أجابني ببساطة: أنا أنجبتك.

لم أفهم، ماذا كان يقصد؟ هل كنتُ خيالًا في عقله؟ في أحلامه؟ ثم بطريقة ما نجح في أن يحتفظ بي للأبد كما أحاول أن أفعل أنا بخلائقي؟

سألته: ومن أين جئت أنت؟ قال وقد تلعثم: لقد كنتُ دائمًا هناك!

كان أبي ساذجًا. كان يظن أني سأتوقف بتفكيري عند هذا الحد. ولكني لم أفعل. سرعان ما أدنته بالكذب في وجدان ضميري، لم يكن أبي دائمًا هناك. لقد جاء بطريقة ما إلى هنا كما جئت أنا.

كان التفسير واضحًا أمامي، ذلك التفسير الذي يشرح كل شيء. لقد كنتُ أنا، وأبي، وهذا القرد، وتلك الشجرة، جميعنا مجرد خلائق في عقل أحدهم، ربما أب آخر، أو ابن آخر على جزيرة أخرى.

وبدون أن يعلم أبي صارت هذه عقيدتي نحو هذي الحياة.

لما وصلت إلى السابعة جاءت صدمتي الأولى، اقتربت منا إحدى زعانف الأسماك الضخمة ورست على الجزيرة، لأرى كذبة أخرى من كذبات أبي وهي تنكشف، نزل من الزعنفة التي لم تكن كذلك أناس آخرون، رجال ونساء وبعض الأطفال أيضًا، كنت مبهورًا، مرتاعًا، مصدومًا، لا أفهم أي شيء، احتميت بذيل ثوب أبي وهو يحميني وراء ظهره، بينما يقترب منا هؤلاء ويصطفون حولنا وكأنهم يشاهدون مهرجًا يرقص على خشبة المسرح.

نظرت إلى وجه أبي، وجدت الخوف، وجدت الحذر، ولكني لم أجد الدهشة. عرفت حينها أنه كان يكذب في كل ما قاله لي. لم يكن أبي كِميتيًّا، كان يعتقد في الأرواح وطقوس الصيد وتمائم الحظ والأساطير. وحين ماتت أمي وهي تلدني آمن أن لعنة الكِميت المادية المقيتة قد حلّت على عائلته. بدا له أنه يستطيع أن يعيش مع ابنه في العراء بعيدًا عن دنس العالم.

حين عرفوا أن أبي مواطن من الجنوب أعادونا إلى مدينته. حكموا علينا بالفراق! لم يكن أبي (مؤهلًا) لتربيتي وفق أفكاره

الظلامية كما رأى القاضي، أدخلوني إلى مدرسة داخلية في المافرسك لتعلم أصول الرياضيات والعلوم والكِميت. وألحقوا أبي بإصلاحية الفنون».

كنت قد سمعت عن إصلاحية الفنون هذه من قبل.. إنها الحيلة التي لجأ إليها الكِميتيون لاجتثاث كل الأفكار غير المادية، إصلاح الفنون كما قالوا، وكأن كل هذا نوع من الفنون العليلة، تحتاج إلى إرشاد بسيط، أحيانًا يكون هذا الإرشاد عمرًا كاملًا لإنسان في بناء شاهق يدّعي أنه ليس قلعة سجن، أحيانًا يموت صاحب هذه الفنون العليلة في السجن الأنيق، كمدًا أو مرضًا أو قتلًا أو يموت بالشيخوخة، لا يهم. الكِميتيون محقون بشأن واحد. الموت في حقيقته واحد، وطريقته لا تهم.

قلت لـ (ليمان) أتوقع بقية القصة: «هل مات والدك هناك؟ هل هذا هو سبب عيشك وحيدًا؟ هل هربتَ من المدرسة بعد أن أتاك خبر وفاة والدك؟».

هز رأسه أن نعم.

انتظرتُ قليلًا احترامًا لذكرى والده، ثم قلت: «بعد أن وجدت الحياة على اتساعها، هل احتفظت بإيمانك؟».

نظر لي ولم يرد، أكملتُ أنا: «إيمانك بأننا جميعًا خلائق في عقل أحدهم؟».

هز رأسه نافيًا وقال: «لقد تعلمتُ شيئًا واحدًا. كل العقائد خاطئة!».

ثم عاد يستلقي على السرير ولكن على ظهره هذه المرة، ورفع كتابه إلى مستوى عينيه ووضع ساقه اليسرى على ركبته، في إشارة واضحة لنهاية الكلام. تأملته قليلًا وفكرت أني لو كنت أنجبتُ من (ناجيلي) كان ابني ليكون في سنه. وانتبهتُ لخاطر أفزعني، لم أفكر في (ناجيلي) كثيرًا منذ أن عثرت على (ليمان)!

عدتُ أنا الآخر لكتابي أقرؤه فقال (ليمان) وهو يقرأ: «لم تسألني السؤال الأمثل أيضًا هذه المرة».

قلت وأنا أضحك مستمتعًا من جديد: «وما كان هو السؤال الأمثل؟».

- «أن تسألني إن كانت هذه هي قصة الحياة كما حدثت فعلًا أم هي قصتي الخاصة التي هي أفضل»!

ميرون

قالت (كالينا) المتأوهة لـ (سولي) في صرامة: «أنا أعلم ذلك لأني أعلم ذلك».

ابتسم في لطف واكتفى بالصمت.

كانا يتجادلان حول (نوبير)، كانت (كالينا) ترى أنه سيرسل من ينقذهم حال يرسل إليه (ليفاي) يعلمه بحقيقة ما حدث لها ولهم. بينما كان (سولي) يحاول أن يتشكك في الأمر.

قالت (كالينا) بتحدٍّ بصوتها المتعب وسط تأوهاتها الخافتة: «لماذا تتحدث عن السيد (نوبير) بكل هذه الثقة، وكأنك تعرفه أكثر مني؟».

قال (سولي): «صدقيني يا بنيّتي، لو كان أحد منا يعرف (نوبير) فعلًا، فهو لا يقوم بعمله جيدًا».

قالت: « دعني أذكرك أني أحد أهم مديري أعماله».

قال (سولي): «فيمَ يتاجر (نوبير)؟».

- «في كل شيء تقريبًا، ولكن في التوابل بشكل أخص».

- «هل له اهتمامات سياسية؟».

- «نعم، وهذا لا يخفى على أحد».

- «لماذا لم يدخل أي انتخابات إذن؟».

تلعثمت قليلًا، فبادرها (سولي): «ألا يضمن بأمواله وشهرته وصحفه الخاصة أن يكسب في أي واحدة منها لو أراد؟».

قالت في ضيق: «ربما هناك سبب لا نعلمه».

بادرها (سولي) بسؤال آخر: «لماذا موّل هذه البعثة؟».

قالت (كالينا) وهي تشير إلى (تومان): «لأنه يؤمن بهذا الرجل».

قال (سولي): «والسبب الآخر الذي كنتِ لتقوليه لو لم يكن (تومان) موجودًا معنا؟».

- «لأنه يريد سرقة نجاح هذا الرجل لنفسه»!

- «وهل كان هذا يتطلب أن يرسل أكفأ موظفيه معه في هذه الرحلة الخطرة؟».

- «ربما كان خائفًا من فشل البعثة».

- «أو كان خائفًا من نجاحها»!

اعتدلت (كالينا) وتأوهت في ألم، وقالت: «ماذا تقصد؟».

تجاهل (سولي) سؤالها، ثم قال: «يا بنيتي، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن (نوبير) بالفعل ولا عن أمثاله، هو لن يرسل أحدًا لإنقاذنا، لقد صارت الحملة إلى نهايتها المثالية بالنسبة إليه».

تدخل (تومان) في الحوار، وقال: «وما هي نهايتها المثالية له؟».

أجاب (سولي): «أن لم يبقَ منهم في النهاية أي أحد، وبأنظف الطرق الممكنة»!

قالت (كالينا) في تحدٍّ: «حسنًا، ما رأيك أنت؟ من (نوبير) بالنسبة إليك؟».

سكت (سولي) فترة ثم قال: «هناك أشياء في هذا العالم أكبر مني بكثير! أشياء علمني أحدهم ماذا عليّ أن أصبح حتى أستطيع مجابهتها»!

خيّم الصمت على الزنزانة بعد جواب (سولي) الغامض، لم يقطعه إلا صوت خطوات الحارس النحيل خارج الزنزانة والذي أمدني بالعقاقير التي طببت بها (كالينا) ليلة أمس، ومن قبلها بالقضيب الساخن لكيّها. ناديتُ عليه وذهبتُ

لألتصق بالقضبان، وقلت له: «أنت، ما اسمك؟».

قال في لطف حقيقي غير مصطنع: «إيدن».

- «مرحبًا يا (إيدن)، أنا (ميرون) طبيب من مكان بعيد عن هنا، ولكن دعني أخبرك أنك رائع، هل تعلم ذلك؟ العقاقير التي جئتني بها بالأمس أبقت صديقتي هناك على قيد الحياة».

تنحنحت (كالينا) وهي لا تزال مستيقظة وصاحت: «شكرًا لك يا (إيدن)، أنا مدينة لك بحياتي».

تابعتُ أنا: «من أين أتيت بهذه العقاقير؟ أنا مهتم بجمع الأدوية الفعالة».

قال في سعادة: «هل تعرف زهرة الـقبعة الزرقاء؟».

قلت بحماس: «بالطبع، لقد كنت أزرعها في حديقة منزلي».

قال: «هي أوراق هذه الزهرة بعد تجفيفها وطحنها تعطيك العقار الذي أخذتَه بالأمس. إنه عشب رائع يا سيدي، حتى إنه يشفي من كثير من الأمراض الأخرى. جربناه مع مرض النمر، ووباء الوحمة، والبقعة السوداء».

شعرت برجفة رعب تسري بداخلي، وقلت: «ماذا قلت؟».

- «البقعة السوداء».

- «لا، قبلها».

- «وباء الوحمة».

- «هل... هل يشفي هذا العشب من وباء الوحمة؟!».

- «بالتأكيد! كل الأطفال لدينا قد شفوا برشفات يسيرة من هذا العشب بعد نقعه. أتعرف؟ ذات يوم جاءنا رجل من قارة الشمال بابنته بعد أن أصيبت به، كان الرجل قد يئس من طول ما استبد بها من مرض، ولكنه أخذ العشب لها وأتعلم ما حدث؟».

- «...».

- «شُفِيَت تمامًا يا رجل».

لم أكن أسمع كلامه. كنتُ لا أرى شيئًا. لقد قتلتُ (ألفن) بدلًا من أن أنقذه! كانت هناك وسيلة. كان من الممكن أن يكون معي الآن. لقد قتلته بالسم، بعد أن سممني اليأس.

بعد فترة علم (إيدن) أنني لم أعد أتكلم معه، أحسست بأحدهم يضع يده على ظهري، التفتُّ فكان (سولي) وهو يواسيني بعلامات حزن ارتسمت على وجهه، هل فهمتَ أنت أيضًا يا (سولي)؟؟ هل فهمتَ كم كانت قاسية تلك اللعبة التي لعبتها معي الحياة؟ كم كنتُ غبيًّا أنا؟

نظرتُ إلى (تومان) بعين ذاهلة، لم يكن يفهم ما يحدث، ولكنه شعر أن أمرًا ما بشأني ليس على ما يرام. لا يوجد شيء على غير ما يرام، كل شيء سليم وفي موضعه، كل شيء في موضعه!

التفتُّ إلى (إيدن) وقلت له همسًا: «أريد أن يحاكمني سادة السماء السبعة».

لم يسمعني، أو لم يفهمني، فصحت فيه بصوت أعلى: «أخبر كهنتك أن أحد المسجونين يريد أن يُحاكَم».

حاول (سولي) أن يجذبني مبتعدًا، بينما كان يصيح (تومان) في اعتراض من خلفي وهو لا يفهم ما حل بي من جنون، لم أعبأ بأي منهما، جاءت (سيرا) أيضًا، تحاول أن تمنعني ولكني لم ألتفت إليها، كنتُ أحدق في الفراغ وفي وجداني أصدرتُ الحكم على نفسي، ولم يكن هناك من مخلوق على الأرض قادرًا على منعي من إنفاذه.

عاد (إيدن) بعد أن أخبر الكهنة بقراري ومعه بعض من جنود المعبد، فتح الزنزانة وأخرجوني منها وسط صرخات (تومان) و(سيرا) وقبضات (سولي) المتشبثة بي. وبينما أخرج من الزنزانة جاءني صوت متحشرج: «يا بني!». التفتُّ إلى

(سولي) الذي كان يبكي وهو يقول: «لا يغلبنك يأسٌ مرتين!».

قلت له وأنا أنظر له بعينين لا تريان: «ما الجدوى؟». ثم كررتُ همسًا وهم يجذبونني بعيدًا عنهم: «ما الجدوى؟».

نزلتُ درجات السلم إلى البهو الرئيس، وهناك كان الكاهن الأكبر في انتظاري ومن خلفي كهنة آخرون، حدث كل شيء بسرعة، أو أنا كان الزمن متوقفًا بي فلم ألحظ مروره، تقدم أحدهم ففتح كوة السماء، ثم تقدم آخر ليفتح السياج الحديدي، ويدعوني للتقدم نحو الكرة.

قال الكاهن الأكبر: «ضع يدك على الكرة المقدسة، وانظر من يختارك من سادة السماء».

وضعت يدي، ثم سقط من السماء ضوء، أنار الكرة باللون الأحمر.

لون سيد الموت. لقد حكمت عليّ الكوّة بالموت. لربما كان في كل هذا شيء من الحقيقة رغم كل شيء. هذا هو ما أستحقه، ولا شيء سواه.

صرخات (تومان)، بكاء (سيرا)، إشارة الكاهن، اقتراب الجنود، صليل السيوف، أحدهم يقتادني إلى المذبح أمام الكرسي الذهبي، أنحني على ركبتي، أحني لهم رقبتي، الكاهن يتلو صلواته، السيّاف يرفع سيفه في الهواء، ثم يخفضه.

(ألفن).. اجعل الألم ينتهي.

جيرالد

- «سيد (نوبير)، سيد (نوبير)، استيقظ من فضلك».

فتح الرجل الأشيب الوقور عينيه ليتفاجأ بـ (كروماز) جالسًا على طرف سريره الواسع، بينما أنا أقف بجواره في ظلام الغرفة الفارهة التي تلوّث سجادها بطين أحذيتنا.

استغرق الأمر من (نوبير) عدة ثوانٍ حتى يستوعب الأمر، ثم بدأت عيناه تعتاد الظلام ليرى تفاصيل أكثر. بعض التفاصيل المهمة، مثل المدية الكبيرة في يد (كروماز)!

استيقظت امرأته بدورها بجانبه، فشهقت في جزع.

سار إليها (كروماز) بهدوء ووضع معطفه على كتفيها يغطيها، وقال لها: «معذرةً سيدتي على دخولنا بهذه الطريقة، السيد (نوبير) مشغول كما تعلمين دائمًا لم يكن ليوافق على مقابلتنا في مكتبه». ثم أشار إليها كي تقوم معه واقتادها إلى باب دورة المياه الأنيقة الملحقة وهي ترتجف خوفًا وتكتم صرخاتها. أدخلها إليه ثم أغلق الباب وسده بمقعد ثقيل يضمن لها ألا تقاطع ما ينوي عمله بنوبير.

اعتدل (نوبير) في جلسته على ظهر السرير وقال بوقار من لا يهاب الموت: «رجالي بالأسفل، هل قتلتَهم جميعًا؟».

قال (كروماز) وهو يتحسس بطنه: «لا أدري يا سيد (نوبير)، أشعر بوعكة خفيفة في معدتي منذ يومين بعد ليلة قتل حافلة، شعرتُ بعدها أني لست على ما يرام. لقد تماديتُ فيها كثيرًا، وأظن أني لم أعد شابًّا مثلما كنت في الماضي، صارت معدتي أضعف كثيرًا. لذلك قررت أن أتوقف لفترة، يمكنك أن تعتبر رجالك محظوظين أني أعاني من هذه الوعكة».

ثم جلس على المقعد الخشبي المبطن بنسيج حريري ناعم، ووضع ساقًا على ساق مرتاحًا، وقال: «أما رجالي بالأسفل، فلا أظنهم يعانون من أية وعكة».

- «ماذا تريد؟».

- «كل ما أريده منك حصلت عليه قبل لقائك بالفعل».

- «لماذا جئتَ إذن؟».

- «ظننتُ أنك ستحب دفع الحساب، معروف عن السيد (نوبير) أنه لا يتأخر في سداد فواتيره أبدًا».

- «كان يمكنك أن تقتلني وأنا نائم، لماذا أيقظتني».

ضحك (كروماز) بهدوء، وقال: «ولماذا أفعل ذلك؟ وأضيّع على نفسي متعة ذلك الحديث الجميل؟ لا. إنها الأشياء الصغيرة الجميلة في هذه الحياة».

ثم تابع: «غير أني سأكون ممتنًّا، لو عرفتُ منك من الذي سيتولى الكونوراد بعد موتك».

نظر له في جمود ولم يتكلم، بينما تابع (كروماز) وكأنما استدرك على نفسه شيئًا: «عذرًا، لقد كانت وقاحة مني أن أصارحك بحقيقة موتك الليلة، على الأقل كان يمكن أن أخبرك بذلك بشكل ألطف قليلًا، أرجو أن تعذرني».

قال (نوبير) في ضيق: «يمكنك أن تقتلني سريعًا وتوفر عليّ نكاتك يا سيد (كروماز)».

ثم تابع: «أنا أنتظرك منذ قُتِل (شيبارل)، ومن بعده (ميلوود)، إذن أنت تعرف عن الرابطة وقررت تصفيتهم جميعًا، تهانينا».

الكونوراد؟ الرابطة؟ عم يتحدث؟ نظرت إلى (كروماز) الذي كان يستمع إلى (نوبير) في استمتاع وهو مرتاح تمامًا على كرسيه الخاص وكأنه لديه كل الوقت في العالم، وبالأسفل، تعالت أصوات معركة رجالنا مع رجال (نوبير) التي لم تنتهِ بعد. ولكننا نعلم كيف ستنتهي، (كروماز) يأتي بذخيرة كافية دائمًا!

قال (نوبير) وهو يحدق في عيني (كروماز): «ولكن دعني أعلمك شيئًا أيها الرجل الذكي، لا أحد يقضي على الرابطة فعلًا. لا أنت ولا الوكيل ذلك الطفل الأحمق، ولا أي أحد آخر، نحن جئنا إلى هذا العالم لنبقى».

هز (كروماز) رأسه موافقًا ومبديًا إعجابه بالكلام، ثم قام من مقعده ببطء واتجه إلى سرير (نوبير) وجلس بجانبه، بينما كان هذا الأخير ينظر لي ثم له بقلق حاول أن يخفيه.

أمسك (كروماز) بيد العجوز ووضعها بين كفيه، وقال ناظرًا إليها: «أنت رجل طيب يا (نوبير)، لا ذنب لك. نعم، لا ذنب لك فعلًا، أنت جئت إلى هذا العالم سليل عائلتك الغنية لترث منصبك في الرابطة من عمك».

ثم نظر لي (كروماز) وقال: «أكنتَ تعلم يا (جيرالد) أن عمه ذاك قام ببناء أول مصنع نبيذ في البلاد؟ كان رجلًا عظيمًا بحق، عليك أن تتذوق نبيذهم، ذكرني حين نعود إلى الثكنات».

ثم تابع كلامه لـ (نوبير): «ستموت أنت بعد ذلك ويرث منصبك أحد أبنائك، تحتم قوانين الرابطة عليكم تسمية ولي عهدكم في وصية مكتوبة. لذلك لا يمكن إنهاء الرابطة أبدًا، إنها أقرب لفكرة، والفكرة لا تموت. أليس كذلك؟ أليس كذلك يا سيد (نوبير)؟».

نظر (نوبير) له في جمود وتوجس، فقال (كروماز): «نعم، ليس الأمر كذلك! بالطبع كل الأفكار تموت. من أين تأتي الأفكار الجديدة إذن؟».

ثم نظر إلى (نوبير) في تحدٍّ وقال ببطء: «كل شيء يموت، كل شيء».

وقام يتجول في الغرفة قليلًا ناظرًا إلى الأرض شارحًا بيده وكأنه يتكلم مع نفسه وقال: «ماذا يا سيد (نوبير) لو... لا أدري، لنقل إن كل أعضاء الرابطة ماتوا، ثم تم جمع كل أولياء عهدهم وقتلوا في وقت واحد! أعني... أنا أقول فقط إن هذا سوف يقلل من احتمالية عودة الرابطة. ولكن يجب أن أضع احتمالية لخطئي، أنا أحمق وأرتجل طوال الوقت ولست حكيمًا كصديقي (جيرالد) هنا.

لذلك دعنا نقل إننا وكي نصبح متيقنين فقط، سوف نقتل أيضًا جميع الأطفال الذين يمكن أن يحلوا محلهم. جميع الورثة».

ثم توقف عن التجول ونظر لـ (نوبير) قائلًا: «أظن يا سيد (نوبير) أنك قد سميت ابنك الأوسط، هو ابنك المحبب دائمًا، ولكن لماذا نخاطر، سوف أقتل الثلاثة، وأبناء أخيك أيضًا، أعني.. كي أكون متيقنًا فحسب، هل تفهمني؟».

انتفخت عروق (نوبير) غضبًا، واحمرّ وجهه.

أسرع (كروماز) ليقف بجانبي وقال لي همسًا وهو يبتسم: «انظر، انظر، هذا تأثير سم الأفعى التي لدغته وهو نائم، لقد اشتريتها الليلة فقط، وجدت أنها ستكون طريقة طريفة للقتل. لقد فقد القدرة على الكلام تمامًا. يا له من أمر رائع!».

قال (نوبير) صارخًا: «أيها اللعين. ماذا تريد؟».

اختفت ابتسامة (كروماز) وقال لي: «ما هذا؟ لم يبدأ سم الأفعى بعد، يبدو أنه كان غاضبًا فحسب، لا عليك».

ثم أشار لي (كروماز) أن حان الوقت للرحيل.

خرجنا من غرفة (نوبير) الذي خفت صوت سبابه وثورته، ونزلنا درجات سلم قصره حيث كانت آثار المعركة الدامية في كل مكان. اجتمعنا مع من تبقى من رجالنا الذين انتصروا بعد عناء.

توجه (كروماز) إلى (كاي) وأشار إلى الأعلى، وقال: «تأكد من موت العجوز، واحرص على أخذ كل كورون وكل روكية وكل ما له قيمة من هذا البيت الجميل، سوف نحتاج إلى الكثير من المرتزقة والذخيرة في الفترة القادمة».

أومأ (كاي) موافقًا وأشار إلى رجاله ليجمعوا أمامه، بينما جذبت أنا ذراعه بعنف، وقلت: «المرأة في دورة المياه، لا تمسها بسوء!».

نظر (كاي) إلى (كروماز) فضحك بهدوء وأشار برأسه له موافقًا.

ثم ركبنا عربات الخيول وقفلنا عائدين.

ما إن بدأنا طريق العودة حتى تكلمت: «أنت كنتَ تكذب بشأن قتل هؤلاء الأطفال، أليس كذلك؟ أنت لن تقتل الأطفال بالطبع. أليس كذلك يا (كروماز)؟!».

بدا عليه التقزز وقال: «أحيانًا أحسبك لم تعرفني قط. بالطبع كنت أكذب يا صديقي، من تحسبني؟ هل أبدو لك وحشًا كاسرًا بلا رحمة؟ لم يبقَ لي إذن إلا أن أدخل بيوت الناس وأبقر بطونهم وأقذف بأحشائهم على السقف والحوائط وكأني بربري غير متحضر»!

ابتلعت كل ما وددت قوله في صمت وقلت: «(كروماز)، من أين عرفت أني سوف أدخل غرفتك هذه الليلة بالذات؟».

قال ناظرًا إلى الشارع من شباك عربة الطماجن: «لأنك تفكر كثيرًا، وتخطط لكل شيء، وتحسب كل خطوة، أنت تظن أن هذا يجعلك أسرع من الآخرين، ولكن الحقيقة أن هذا يسمح للآخرين برؤيتك، بفهمك وانتظارك».

ثم قطّب جبينه ونظر لي في حدة وقال: «الحياة نكتة سخيفة، وأنت تصر على معاملتها بجدية أكبر من حجمها».

سيرا

ثلاث ليالٍ مرت منذ رحيل (ميرون) لم يذق فيها (تومان) الطعام ولا جميل طعم الحياة ذاتها، ازداد غضبه تجاه كل شيء، وحين مر علينا أحد جنود المعبد يخبرنا أن علينا أن نخضع لحكم السماء وإلا سوف نظل مسجونين إلى الأبد بصق في وجهه، ولكن لم يبدُ أنه قد تضايق من هذا على كل حال. ربما يكون البصاق لديهم ليس بإهانة.

كنت أتحاشى (تومان) منذ ذلك اليوم على ظهر السفينة، حين واجهتُ أسوأ مخاوفي، لم يكن يومًا سيئًا كما يحسب، ربما يكون قد جعلني أقوى، ربما يكون قد جعلني لا أبالي بأن أكون أقوى، في كل الأحوال فأنا قد تغيرت، ولكن موت (ميرون) كسر بعض الحواجز والكثير من الأنا.

كان (تومان) يوقن أن (سولي) يعرف الكثير فيما يخص سبب إقدام (ميرون) على فعله، ولكن (سولي) التزم الصمت التام، لم يفلح أحدنا في إخراج كلمة منه منذ موت (ميرون) وقدرتُ أنه من هؤلاء الذين يسهل إصابتهم بالصدمات العاطفية. وأشفقت على من كان كذلك أن يتحمل كل تلك الفوضى والدماء السائلة في البلاد بسببه، ففي النهاية كما كانوا يقولون هناك في الوطن، لولا (سولي) ما وُجِدَ (كروماز) قط!

تغير (هوسيرل) معي منذ أن رآني أنتحب بعد موت (ميرون)، قلّت مشاكساته لي وزاد لطفه، بينما كانت (كالينا) تكافح إصابتها بنفسها بعد أن رحل طبيبها.

ثلاث ليال مرت منذ وفاة (ميرون) ثم أتت الصناديق!

كان يقودها أحد الكهنة، ومن خلفه اثنان من العامة يحملان مجموعة من الصناديق الصغيرة. لما رآهم (تومان) هز رأسه في عنف وقال: «لا، لا، لا، لم تقوموا بذلك أيها الأوغاد».

قام الرجال بوضع الصناديق الخمسة أمام القضبان المعدنية للزنزانة، بينما تكلم الكاهن قائلًا: «هذا يكلف في العادة عشرين روكية، ولكننا نقوم بتكريم الميت غير المقتدر على نفقة المعبد».

كان (تومان) يبكي ويسبهم من بين زفراته ودموعه، بينما أكمل الكاهن: «لحسن حظكم فعددكم قليل، فنلتم أفضل الأجزاء قاطبةً، عادة ينال هذه الأجزاء الدرجة الأولى من أقاربه وعائلته، ولكننا لا نعلم أهلًا له غيركم، فحرقنا باقي الجثة ونثرنا الرماد مع تلاوة الصلوات اللازمة».

ثم دفع بقدمه الصناديق الخمسة إلى داخل الزنزانة من بين فتحات القضبان، وقال: «ستجدون هنا القلب والوجه والعينين والكفين"!

ثم قال قبل أن ينصرف: «أنا لا أعلم ما كان قد فعله كي يستحق أن يرد عليه سيد الموت بذاته، ولكنه قد نال عدالته كاملة، ومات طاهرًا من الذنب». ثم انصرف.

ظللنا صامتين نتبادل النظرات وننظر في وجل إلى الصناديق الخمسة، ثم تناول (تومان) إحداها ببطء. اقتربتُ منه ووضعت يدي على كفه بحزم، وقلت: «أرجوك لا تفعل».

نظر لي ورقاقة خفيفة من الدمع فوق عينيه، ثم أبعد يدي عن يديه بلطف، وعالج الرباط الذي كان يربط الصندوق الصغير ثم فتحه.

كان وجه (ميرون) مقطوعًا ببراعة طبية تشريحية واضحة ومحفوظًا في مادة شمعية صفراء راقية تشبه الكهرمان. وتنبعث من الصندوق رائحة ذكية. وبرغم أنه كان وجهًا بلا عينين إلا أنه كان يبدو مسالمًا مقطوعًا عن هذا العالم.

انهار (تومان) في البكاء مجددًا، ثم نظر إلى السقف وصرخ غاضبًا، وفجأة قام من مقعده واتجه نحو (سولي) الذي كان يجلس حزينًا في حاله، ثم جذبه من طوق عباءته بعنف وأخذ يرجّ العجوز بشدة ويصرخ فيه: «أين سيدك الذي لا يظهر؟ أين كان حين سمح لسادة آخرين بقتل صديقي؟».

تركه (سولي) حتى أفلته هو ثم رد بهدوء: «صدقني، أعلم ما تمر به، لو كانت لي من نصيحة فهي أن توفر طاقة غضبك، سوف تحتاج إلى أن تقتات عليها ببطء بقية عمرك».

قال (تومان) وقد بدا مصرًا: «أخبرني من الذي يسمح لهذا أن يحدث؟ من الذي يترك (ألفن) يحتضر أمام أبيه ببطء من

الألم حتى يحطمه؟ أخبرني أيها العجوز المجنون، ألم تشعر بالغضب لما ماتت زوجتك واحتضرت أمامك ببطء من الألم؟ ألم تشعر بالظلم لما حُرِمتَ منها إلى الأبد؟».

ثم تركه وجلس بجانبه وقد هدأ قليلًا واستند إلى الجدار بينما كان شعره المتناثر يغطي وجهه بالكامل، مغمضًا عينيه ودموعه تتساقط ببطء، وقال بصوت خفيض: «لا يوجد سادة للسماء، لا يوجد أحد يبالي، نحن وحدنا، لو كان من سلوى وحيدة في كل ما يحدث في هذا العالم اللعين فهي أنه لم يظلمك فيه أحد. كل الأمور تتساوى، كل الأمور عبث"!

قال (سولي): «أعرف رجلًا كان يقول مثل كلامك هذا، أتدري ما فعل حينها؟ حمل مدية وبعض البارود ومضى يقتل الناس بلا كلل. هو رجل مألوف لديكم، اسمه (كروماز)».

ثم التفت له (سولي) وقال: «لماذا لا تفعل مثله إذن؟ لا أراك تكون جيشًا من المرتزقة وتذهب لتفجر الأشياء. لو كانت الحياة عابثة، لو كنا في هذا العالم وحدنا، جئنا كي نتعذب ثم نموت، فلربما كان (كروماز) هو العاقل الوحيد، لربما علينا جميعًا أن ننضم إليه"!

ثم عاد إلى وضعه المفضل المعتاد، ظهره مستند إلى الجدار ورجله ممدودة أمامه، وهو يقول: «لقد عشت فترة من الغضب بعد موت (ناجيلي)، لم أكن قد فكرت في وجود صاحب لهذا العالم، ومع ذلك كنت غاضبًا، طوال الوقت، وخلف قناع وجهي الهادئ الشارد كنت أكن نفسًا قلقة، تتساءل طوال اليوم سؤالًا واحدًا: لِمَ كان كل هذا إذن؟ لِمَ قابلت (ناجيلي) ولِمَ فارقتها؟

لما فكرتُ أول مرة أن ربما كنا هنا بسبب أحد ما، ربما كان هناك من يرعى ويدبر كل شيء، وجدتُ أن كل هذا سليم تمامًا، إنه الغراء الذي جمع كل قطع اللغز المتناثرة، وفهمت حينها كل شيء. واختفت جميع الألغاز العصيّة على التفسير، وصار كل شيء ذا معنى، اختفت كل التساؤلات التي كانت تدور في ذهني، حول النشأة، الوجود، التناغم، ونظرة حب إلى طفل صغير، ولحظة إيثار فضل لعابر سبيل، وعبرة ذكرى أليمة في ليلة شتاء جاءت في منتصف خريف العمر.

كل شيء صار ينطق بالحقيقة، حينها فكرتُ كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟ كيف اختبأنا عن هذه الحقيقة طوال الوقت؟

ومع الوقت اختفى الغضب، كنت أفكر في العالم الذي سلبني زوجتي، صرتُ أفكر في سيد الخير الذي وهبني إياها في البداية!

اختفت كل التساؤلات إلا سؤالًا واحدًا، ذلك السؤال الذي استوحشني ولم يتركني منذ ودعتُ نول (ناجيلي) وتركت بلدتي ورحلت، لِمَ كان كل هذا؟ ما معنى البداية وما تفسير النهاية؟ أو تدري ما هو جواب سؤالي؟ ذلك الجواب الذي لا أجد غيره، ذلك التفسير الجديد الذي سوف يضم كل قطع لغزي ثانية».

سكت (تومان) قليلًا، ثم قال وهو ما زال مغمضًا جفنيه: «ما هو؟».

قال (سولي) مشيرًا بيده بحركة دائرية: «أن كل هذا مجرد بداية! أن الإنسان مصنوع بما يؤهله لما هو أكبر. أن قصته أعقد من أن تنتهي بعبثية الموت».

سكتنا جميعًا بعدما صمت (سولي) احترامًا لحزن (تومان) أو لعلنا كنا نتفكر في خجل فيما قاله العجوز، ثم قالت (كالينا) بعد فترة صمت وهي لا تزال مستلقية على حشيتها: «عفوًا، ولكنك قلتَ إن ذلك السفاح (كروماز) لا يؤمن بما تؤمن به أنت. فـ احم.. لماذا هو من كبار المتشيئين إذن؟ لماذا يحارب الكِميت؟ ألا تجد ذلك غريبًا؟».

قال (سولي) مبتسمًا بحزن: «لا، هو يؤمن برب العالم الذي أؤمن به».

ثم قال همسًا بصوت بدا يؤمّل ألا يسمعه أحد: «ولكنه لم يحبه قط!».

جيرالد

في غرفة الاجتماعات كان (كروماز) يراجع مع (كاي) قائمة اغتيال الليلة، من المفترض أن يتم التنفيذ جميعًا في وقت واحد، وهو ما كان يحتاج من (كروماز) أن يقوم بشيء لطالما كان ينهانا من أن نفعله: التخطيط.

قال (كاي) موجهًا كلامه لي: «هل أنت متأكد أنك لا تريد المشاركة؟ ستكون ليلة حافلة، والأمور كلها سهلة، كأنك تصيد البط! سوف تندم».

قلت بوجه جامد: «اذهب يا (كاي)».

لما رحل وبقينا أنا و(كروماز) بمفردنا، سألته السؤال الذي يدور بخلدي منذ الأمس: «لماذا الآن؟».

نظر لي متسائلًا، فقلت: «لماذا قررت أن تعجل بنهاية عملك الآن؟».

أخذني من يده وقام وقمت معه، صعد السلم الجانبي إلى جناحه الخاص، أدار المفتاح في فتحة قفله ونظر لي مبتسمًا وقال: «عمل جيد منك بالأمس بالمناسبة لما استطعت فتح هذا الباب بمديتك، لقد حاولت هذا الصباح أن أفعل مثلك ولكني لم أقدر».

ثم قال وهو يفتح الباب: «أظن أن بعض الناس لم يولدوا للإجرام بطبيعتهم»!

دخلنا الغرفة وأغلق بابها خلفي، ثم أشار إلى الحائط أمامه، ذلك الذي رسم عليه الأسماء والخيوط، ثم قال: «هاك، هذه إجابة سؤالك، قل لي ماذا ترى؟».

نظرت إلى المخطط غير المهندم بنظرة تختلف عن نظرة أمس بعد لقائنا بـ (نوبير) بدا كل شيء أكثر منطقية. كان (نوبير) يتوسط المخطط، ومن فوقه خيوط تربطه بمن فوقه، وخيوط من أسفله تربطه بمن تحته، كان كل شيء مترابطًا، ولكن بدا أن (نوبير) أكثر ترابطًا بهم من غيره.

قلت لـ (كروماز): «هل كان (نوبير) هذا هو رئيس الرابطة؟».

قال: «لا، ولكنه حلقة الوصل التي تربط بين الجميع، الجميع غيره اختفى في الظلال، (نوبير) كان بطاقتهم المحروقة».

ثم تابع: «لا يعني هذا أن التعرف عليه كان سهلًا».

ثم اقترب من عمله على الحائط وقال معطيًا ظهره لي متأملًا في مخططه الخاص: «لقد كان (نوبير) هو القطعة المفقودة التي أحتاج إليها لحل اللغز المتداخل الذي ظللت أنقب عنه لسنين». ونظر لي وقال: «أتعرف ما فضحه؟».

هززت رأسي أن لا، فقال: «شيء صغير جدًّا، دائمًا أهم التفاصيل هي أصغرها». وأضاف مبتسمًا: «تلك البعثة التي تولى تمويلها لرجل الأبحاث العلمية، اسمه (تومان نيقه)، لقد بحثت عنه جيدًا، الرجل لا يملك أية فكرة لاكتشاف ما وراء الحافة فعلًا، لقد فكر أننا سوف نذهب إلى هناك ونرى ما يمكننا فعله. ولكنه أجاد التسويق لنفسه جيدًا. يعرف كيف يتحدث كثيرًا حتى ينسى الناس أن يسألوه! بينما في أوساطه الخاصة في مكان عمله كانوا يعرفون الحقيقة.

والآن هل تظن أن (نوبير) ينفق أمواله من دون أن يتأكد من خبر كهذا؟ هل تظن أني أذكى منه مثلًا، أو أكثر حذرًا؟!».

- «إذن لماذا فعل ذلك؟».

- «هذا هو السؤال يا عزيزي، لماذا فعل ذلك بالفعل؟ كان هذا هو بداية خيط فك اللغز عندي، أتعلم؟ كل الأمور غير المفهومة في هذه الحياة يمكنك حلها باعتبار شيء واحد.. البحث عن الدوافع البشرية!».

وقال وهو يجلس على طرف سريره: «البشر أعقد من أن يستطيعوا فهم أنفسهم، ولكنهم دائمًا أبسط من الفكرة التي يحملها بقية البشر عنهم. في النهاية لا نريد إلا قائمة صغيرة من الأشياء. وقائمة (نوبير) هذا لم تكن تحوي الكثير. المال والقوة، الثنائي التقليدي الجميل الذي حرّك التاريخ للأمام».

- «هل (نوبير) يبحث عن القوة هناك عند الحافة؟».

- «بل يبحث عن طريقة للاحتفاظ بها!».

بدت على وجهي علامات الحيرة فقال: «تخيل أنك كنت عضوًا في رابطة تسعى لحماية الكِميتية، أنت تحافظ على نظرة الناس إلى الإنسان على أنه ركام مادة. لا يمكنك أن تتحمل اكتشاف أي شيء يغير من هذه الحقيقة. سرعان ما ستفقد وظيفتك لدى رؤسائك، تلك الوظيفة التي تجعلك بكل هذه القوة، بكل هذا الثراء.

والآن تخيل أن هناك من يخبرك أني سأذهب إلى حافة العالم لأرى ما هناك. هو على الأرجح أحمق، لن يستطيع الوصول للحافة فعلًا، ولكن ماذا لو وصل. أية أشياء يمكن اكتشافها هناك تصنع ذلك الشرخ في الصرح المتكامل الذي بنيتموه لسنين؟ أية أفكار جديدة قد تبدأ في تحريك الأحجار على الرقعة؟ هل يمكنك المخاطرة بأن يحدث كل ذلك بعيدًا عن ناظريك؟».

هززت رأسي بالإيجاب متفهمًا، فأكمل هو ناظرًا إلى خريطته بابتسامة غامضة: «حين وضعت احتمالًا أن ربما كان (نوبير) أحد من أبحث عنهم، بدأت أبحث عنه أكثر، سرعان ما ظهرت كل الخيوط، ومع الوقت اكتملت خريطة أسمائي جيدًا..

والآن، وبعد عمل بضعة شهور، وصلت إلى ذروتي، حان الوقت لإنهاء بقية الأمور العالقة».

سألته: «أية أمور عالقة؟».

لم يرد، وفهمت أن المحادثة انتهت عند هذا الحد، ولكن أحدهم طرق باب (كروماز)، قام من مجلسه واتجه للباب وفتحه ناظرًا إلى الطارق مستفهمًا، كان أحد الحراس يقول لـ (كروماز): «هناك رجل اسمه (دال) اقترب من بوابة الثكنات، قبضنا عليه ولكنه قال إنه يريد أن يقابلك».

(دال) عاد إلى هنا؟!

ضحك (كروماز) وكأنه كان يتوقعه وقال: «أنا قادم».

ثم أشار لي أن أنضم إليه. نزلنا حتى وصلنا إلى القاعة التي كنا فيها، حيث كان (دال) مقيدًا بحبال تضم كفيه أمامه جالسًا على المنضدة مجبرًا بحارسين يقفان فوق رأسه.

قلت له محييًا: «مرحبًا يا أخي».

نظر لي وابتسم بحزن وقال: «مرحبًا يا (جيرالد)».

- «ظننتَ أنك لن تعود أبدًا».

- «لم أعد، لقد خرجتُ من هنا إلى الأبد، جئتُ بناء على استدعاء!».

- «أي استدعاء؟!».

أشار إلى (كروماز) الذي كان يقف بجوارنا صامتًا، فنظر هذا الأخير إليه وقال: «مرحبًا يا (دال)، جميل أن تشاركنا لحظة انتصارنا الليلة بالذات. بالمناسبة، كيف حال ابن أخيك؟».

نظرتُ إلى (كروماز) مستفهمًا، عم يتحدث؟! بينما نظر له (دال) في كراهية بالغة مع بعض التحفز.

قال (كروماز) رافعًا يديه إلى الأعلى: «يا رجل، لماذا تنظر لي بكل هذه الكراهية، أنا لم أمسسه بسوء. أقسم لك».

قال (دال): «فقط أريد أن أعرف لماذا؟».

جذب (كروماز) مقعده وقال بعد أن جلس عاقدًا ذراعيه أمامه وكأنه في مدرسة، وقال: «أتعلم يا (دال) كم قرأت؟»، ورفع وجهه للسقف وكأنه يحاول العد والتذكر: «لا أقدر على ذكر عدد ما، ولكني قرأت كثيرًا في الحقيقة».

ثم عاد ينظر إليه وقال: «أنت تعرف، تلك الكتب التقليدية، طيب وشرير، وطيب بداخله شر، وشرير بداخله طيبة، وهكذا. أتدري؟ كثير من الأشرار قتلوا، سرقوا، خانوا، كذبوا. ثم كنتَ قادرًا على حبه في النهاية..

كان الكتاب يتسامحون مع خطايا أبطال قصصهم باستمرار ويعلمون ذلك للقراء، أتعرف الخطيئة الوحيدة التي لم أجد أحدًا يتسامح معها؟ الاغتصاب! هل سبق لك أن رأيت شيئًا من ذلك يا (دال)؟».

هم (دال) بأن يقول شيئًا، ولكن (كروماز) أكمل قائلًا وهو يشير بيده في الهواء: «لا أدري السبب، مع أنه أمر طبيعي

تمامًا، أنت تريد مضاجعة امرأة لا تريد هي ذلك، أي خيار آخر تركته لك؟! لماذا عرض المرأة يكتسب تلك القدسية الخاصة لدينا؟».

ثم هز رأسه بأسى مصطنع وقال: «فما بالك لو كانت فتاة صغيرة؟».

قال (دال) منفعلًا: «لم يكن لابن أخي أي دور في هذا».

قال (كروماز) ناظرًا إلى السقف: «نعم، أنت على حق، لقد قال شيئًا كذلك بالفعل، أنا أتذكر الآن، ولكني لم أكن أسمعه، كان صوت صراخ الآخرين عاليًا».

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال: «ليست لديك فكرة، لقد كان الأمر سيئًا جدًّا. ما زلت أشعر بوعكة في معدتي منذ يومها، حتى اسأل (جيرالد)» وأشار إليّ من خلفه.

هم (دال) بالهجوم عليه ولكن الحراس من خلفه أمسكوا به بينما كان يصرخ هذا الأخير، أخذ (كروماز) ينظر إليه بهدوء حتى همد، قال (دال) في النهاية: «ظننتُ أن الأخلاق لا تعني لك شيئًا! لماذا تبالي بما كان يفعله ابن أخي ورفاقه؟».

- «أنا أفرض ما أشاء من أخلاقي أنا على من أرغب. العنف هو طريقتي لذلك! بدون العنف، أخبرني ما الذي سيخاف منه السافل حين يريد أن يفعل ما يريد فعله؟ (سولي) الساذج يظن أن العنف ضد مبادئه، لا يدري كم من مبادئه سوف يتحقق لو بدأ الناس يخافون من كسرها».

- «ماذا تريد مني أنا و(هارول)؟».

قال بجمود: «أريد لكل شيء أن يتوقف! لا مزيد من نشاطاتك الخاصة بقفز الناس من فوق الأبنية كالأغبياء، لا مزيد من أعمال (هارول) بمحاولات عقد السلام. لا مزيد من مجموعات المتشيئين في أي مكان».

نظر له (دال) ثم لي وقد بدا متعجبًا، فتابع (كروماز): «كل هذا كان جزءًا من لعبة (سولي)، وقد تسلينا بها جيدًا، حتى الآن! حان الوقت للعبتي الخاصة».

نظر (دال) إلى الأرض في تؤدة، ثم قام من مقعده بهدوء وهم بالانصراف، قال (كروماز): «هناك أمر آخر».

أجبر الحراس (دال) على الجلوس مجددًا، بينما تابع (كروماز): «لماذا زارك (هارول) في بيت تروّحك الخاص؟».

ارتبك (دال) وقال: «لا شيء، مجرد تبادل أخبار».

ضحك (كروماز) كثيرًا وقال: «يا عزيزي (دال)، سوف نحظى معًا بالكثير من المرح»!

هارول

استيقظتُ على صوت خطوات خارج باب غرفتي، ارتبكت وقمت من سريري بسرعة، أسرعت إلى الدولاب حيث أخبّئ فأسي الصغيرة، ولكن ما إن التفتُّ حتى اقتحم غرفتي ثلاثة أشخاص. رفعت الفأس عاليًا فقام ضخم الجثة منهم بثني ذراعي خلفي حتى سقط الفأس رغمًا عني، ثم أجلسني في عنف على المقعد بجوار النافذة، بينما أشعل أحدهم مصباحًا زيتيًّا كان هناك، وبدأت أتبين ملامح الزائرين.

- «لقد زرتُ الكثير من غرف النوم مؤخرًا، أصبح الأمر مرهقًا».

قلت ممتعضًا وأنا أنظر إلى الرجل الأربعيني ذي العوينات: «(كروماز)».

انحنى بحركة مسرحية بمعنى: (أنا هو).

ثم قال وهو يخلع قفازاته ومعطفه وكأنه قد وصل إلى بيته: «لا تقلق، رجالك بالأسفل كلهم بخير». ثم أشار إلى الرجل الثالث الذي كان طويل القامة مفتول العضلات حاد الملامح ذا شعر بني يميل إلى الحمرة: «صديقي (جيرالد) يملك حسًّا مرهفًا، لقد منعني من أن أمس أحدهم بسوء».

ثم تابع وهو يحلس: «مرحبًا يا (هارول)، لم أرك منذ سنين».

- «هل حان الوقت لقتلي؟».

- «أتعلم كيف أراك فعلًا يا (هارول)؟ أراك عملة قديمة من زمان اليور، لم تعد لها قيمة بذاتها، لا أحد سيرضى بها بدلًا لرغيف من الخبز اليابس، ولكن قيمتها في ما تمثله من زمن. أنت تذكرني بالزمان الطيب يا (هارول)، حين كان (سولي) على قيد الحياة ويصحبك في كل مكان، كل مكان إلا مكاني بالفعل، لم يقابلني (سولي) قط، ولكني لطالما أردت أن أفعل».

نظرتُ إلى طويل القامة الصموت بجانبه والذي كانت تشي عيناه بذكاء لا شك فيه، ثم إلى ضخم الجثة الآخر الذي أذكره من لقاءاتي بـ (كروماز) من قبل، كان اسمه (كاي) على ما أذكر، ويقولون إنه لم يشتبك في عراك مع رجل ثم بقي على قيد الحياة. ثم باغتني (كروماز) بسؤاله: «أنتَ أرسلتَ متسللًا إلى سفينة (نوبير). طبيب متقاعد اسمه (ميرون). أحتاج من فضلك إلى بعض التفاصيل عن ذلك الأمر! ولنبدأ من الجزء الخاص بسبب اهتمامك بهذه البعثة بالذات؟».

ابتسمت هازئًا منه وقلت: «ماذا يمكنك أن تهددني به؟ بالموت؟ أنت تعلم أننا جميعًا لا نهاب الموت. أم بالألم؟ أظن أن هذا سبب إحضارك لـ (كاي) الكبير هذا هناك إذن. ولكن هل حقًّا تظن أني مثل الكِميتيين، سوف أقول أي شيء للفرار من الألم؟».

- «نعم، نعم. أعلم أنك... صاحب (قضية). تتفاخر بأنك تعيش في الدنيا لهدف تحيا من أجله، تزهد في التمتع بما معك من مال وتخبر نفسك أن في هذا نوع.. أناقة لروحك أظن؟! ولكنك رجل ساذج، مسكين ساذج. أقنعك (سولي) قبل أن يرحل أن هناك سيدًا لهذا العالم يبالي بالفعل بك. يا عزيزي (هارول) لقد كانت هذه كذبة!».

- «ليست كذلك».

انفعل وقام من مقعده ولوح في وجهي بمدية وقال: «ألا ترى ما أقوم به بمديتي؟ أنا أعبث هنا ليس لي هدف حقيقي، فقط أريد أن أرى ما الذي سيحدث إن حركت هذا مكان ذاك، وجئت بهذه مكان تلك. أخبرني.. لو لم يكن سيد السماء عابثًا مثلي، هل كان سيحدث كل ذلك؟ هل كان سيتركني أقلد خطاه؟ كل هذا العالم المريض لا يخبرك بحقيقة مراده منا بالفعل؟».

ثم أعاد مديته إلى غمده وقال: «لو كان ثمة فرق بيني وبينه فهو أني أبالي حقًّا ببعض الأشياء، أحيانًا أسمع صوت أحدهم يناديني فأجيبه بالفعل، لا يحدث ذلك في كل يوم ولكن ما زال أكثر بكثير مما يفعل هو، هل تعلم لماذا أفعل ذلك؟ لأني أهيم حبًّا بالإنسان، ذلك الكائن البديع القادر على فعل كل شيء يريده، لا تدري لكم تمنيت أن أكون أنا خالقه!».

واقترب مني حتى صار وجهي أمام وجهه وأخذ يملّس على خصلات شعري ويرفعها عن عيني: «لا تدري لكم أقدّس ذلك العقل البشري، إنه شيء عظيم، مليء بالهراء ولكنه جميل، الألحان التي يعزفها، القصص التي يرويها، الرغبات التي تتصارع بداخله، العالم الذي يتشكل ببطء داخل وعيه ثم يصبغه على عالمنا الأصم فيصير لكل شيء في ذهنه معنى. أرأيت؟ لقد خلقنا في عالم ماسخ تمامًا بلا معنى، ولكنه لم يتركنا لنعاني فيه وحدنا. تركنا مع تلك الأداة الجميلة، وقال لنا: اصنعوا المعنى الذي تحبونه. أروني ما أنتم قادرون عليه! هل هذا يجعلك تحبه يا (هارول)؟ هل يبدو لك هذا عملًا نبيلًا؟ ربما. لكني أراه مزيدًا من العذاب. أكثر أنواع العذابات جمالًا. شيء رفيع المستوى، قطعة خالصة من الفن! كما قلت لك.. كنت أتمنى لو كنت أنا خالقك!».

ثم بدا وكأنما أفاق من أفكاره الخاصة، والتفت حوله وقال: «تبدو ليلة جميلة للحديث. لسوء الحظ، لا أملك الكثير من الوقت لها. أحتاج إلى أن تجيب على سؤالي سريعًا حتى أرحل».

نظرتُ له في تحدٍّ ولم أجبه، فأشار إلى (كاي) الذي حملني بعنف فوق ذراعيه وفتح النافذة ليضعني على الإفريز مهددًا بإلقائي، بينما أتى (كروماز) من خلفي ووقف بجوار النافذة ينظر إلى أرض الحديقة بالأسفل، وقال: «من هذا الارتفاع فإنك لن تموت، ولكن الألم سيكون كبيرًا بما يكفي، لا أدري إن كنتَ جربتَ أن تكسر أحد عظامك أم لا، ولكني أؤكد لك أنه ليس أمرًا محبـ...»

ثم توقف عن الحديث فجأة، نظرتُ له وأنا منكفئ على وجهي عند الإفريز بينما ذراعاي منعقدتان خلفي بعنف بين يدي (كاي)، كان (كروماز) يحدق في شيء بالأسفل في الحديقة المضاءة بأعمدة النور المتراقص من فتيل الزيت المتطاير بهواء الليل. نظرتُ إلى حيث ينظر فلم أفهم ما أثار اهتمامه إلى هذه الدرجة. ولكنه اعتدل وأشار إلى رجليه أن يتبعوه، وخرج من الغرفة.

حملني (كاي) بين ذراعيه وخرج مع (جيرالد) خلفه، حيث نزل درجات سلم بيتي، وعند باب البيت وجدت رئيس الخدم مع ثلاثة من مرؤوسيه وسائق عربتي والأخوين مقيدين ومُكمّمين بجوار المدخل ينظرون لي في رعب، بينما ثلاثة من جنود (كروماز) يقفون وراءهم ممسكين ببواريدهم.

فتح (كروماز) باب البيت وخرج إلى الحديقة، إلى حيث الموضع الذي كان يحدق فيه.

وضعني (كاي) على الأرض أمامه، بينما ذهب (كروماز) إلى نبتة حمراء اللون في ركن حديقتي واقتطف منها غصنًا، ثم التفت لي بحماس جَزِل وقال: «نبتة الذئبة القرمزية».

شعرت بالرعب بينما أكمل هو: «أعرف رجلًا كان يعشق هذه النبتة النادرة، كان يرسل لشرائها من أماكن بعيدة وينفق فيها الكثير من المال، كانت تذكره بزوجته التي كانت تزرعها في حديقة منزله أسفل وادي الرمال».

ثم اشتم الغصن واتسعت ابتسامته، وقال: «(سولي) لا يزال حيًّا، لم يكن (ميرون) هو المتسلل الوحيد لسفينة (نوبير)، أليس كذلك يا عزيزي (هارول)؟!».

سولي

كان وجه (لِيمان) جامدًا وهو ينظر إلى الممثلين يتحاورون، يتصارعون، ويتقافزون على خشبة المسرح حين أخذته إليه أخيرًا بارًّا بوعدي الذي قطعته له ونحن في مخزن المافرسك. لم أكن أعلم إن كان مستمتعًا بالعرض أم محبطًا، كان وجه (لِيمان) هادئًا دائمًا بشكل يثير العجب.

لما انتهى العرض سألته: «ما رأيك؟».

قال: «لم أحب حكاية الملك».

تعجبت من أن تكون أول تجربة له في مشاهدة المسرح بالتعليق على قصته لا أداء الممثلين أو إكسسورات العرض، قلت: «كانت لا بأس بها في رأيي».

- «كانت سخيفة، لماذا يجب علي أن أهتم بحياة الملك؟».

- «لا بد دائمًا من ملك»!

- «ولماذا ذلك؟».

قلت ونحن نتأهب للرحيل من مبنى المسرح الضخم وسط الجموع المترنحة الذين كان النعاس قد غلب معظمهم: «المسرح غير الكتب التي تقرؤها. المسرح يخاطب عموم الناس، الفنون تخاطب الجانب الداخلي للإنسان، إنها قادرة دائمًا على إشعاره بقيمته، ومن الخطر أن يشعر الناس بشكل خفي بتلك العلامات التي تثير الريبة والحذر حول الكِميت! لا يجب أن يشعر أحد بتلك المكانة المزعومة للإنسان في الوجود.

لذلك فهناك رقابة قوية. شيء شبيه بإصلاحية الفنون التي حكيتَ عنها هناك في الجنوب. رقابة تحرص ألا يحكي المسرح عن العالم الثري الذي نحمله في أنفسنا. من الممكن أن تقرأ كتابًا عن كاتب خان الكِميت بداخله وحكى لك حكايةً الخادم هو بطلها بينما كانت قصة الملك فيه على هامش أحداث حياة خادمه! بينما في المسرح تحت الرقابة لا بد من أن يكون الملك هو البطل، والخادم هو الخادم، لا يجب أن تختلف الحكاية الداخلية عن المظهر الخارجي. هكذا يجب أن يظل الإنسان. مجرد إناء خارجي لا يحوي شيئًا بداخله، مثله مثل أي إناء آخر، ليست له غاية، ليس له تفسير، ليس له وجود مستقل».

قال (لِيمان) بشكل مفاجئ: «ماذا تعني كلمة كِميت توبو؟».

قلت بسرعة: «من أين عرفت هذه الكلمة؟».

قال: «قرأت اللفافة التي تحملها في جيبك دائمًا حين كنتَ نائمًا، لم أفهم من لغتها شيئًا».

شعرت بالخجل وقلت: «هي كلمة بلغة اليور القديمة، هي لغتي الأم، نحن نتحدث لغة شبيهة بها، تعتبر الصورة المحرفة منها هناك أسفل وادي الرمال. هذه اللفافة أخذتها من أحدهم، رجل عجوز أحكم مني التقيت به سويعات قليلة. كميت توبو تعني: أن الكِميت يكذب، أظنك توافقني على هذا يا (ليمان)، أليس كذلك؟».

تجاهل سؤالي وقال شابكًا يديه خلف ظهره: «قد حكيتُ لك ما أردتَ معرفته عني، فماذا عنك أنت يا سولي؟ هل الكِميت توبو هو القصة التي رسمها عقلك للحياة؟ هل أنت من كتب هذه اللفافة؟».

تجاهلتُ سؤاله بدوري وقلت: «الكِميت يخبرنا عن عالم يختلف عن العالم الذي أشعر به! عالم كل ما هو قاسٍ فيه حقيقي تمامًا، ربما إلى حد مخيف، حد مبالغ. الوحدة تامة الاكتمال، والوحشة تلمسك على حين غرة، والألم يعتصر جسدك أو فؤادك أو روحك، لا يهم، دائمًا هناك ألم، لا يفلت منه أحد، وأما الفراق فهو دائمًا في انتظارك، وحتى تصل إليه تكون أنت في انتظاره! ما الفارق إذن أن تنتظر الانتهاء أو ينتظرك؟ سيأخذ هذا وذاك من جمال أيامك.

أما الجميل في هذه الحياة يا (ليمان) فهو في نظر الكِميت مجرد أوهام، مجرد خيالات تعشش في أذهاننا حتى نتمكن من البقاء. الحب مجرد خدعة تدفعنا للتناسل، الوفاء وسيلة أخرى لبقاء المنفعة، والصداقة نوع من تكافل الحماية بين طرفين. الرحمة علامة ضعف، والشفقة رثاء وداع، والحياء خجل من داعر مستتر!

الكِميت يتحدث عن إنسان مادة، وأنا رأيت الإنسان ورأيت المادة، صدقني يا (ليمان)، لو كان الإنسان مادة لاستراح! هل تعلم لماذا أعلم أن اللفافة حقيقية؟ أن الكِميت يكذب؟ لأني لو كتبت تاريخًا للإنسان في الأرض لكان تاريخ معاناته وشقاء روحه».

قال (ليمان): «إذن ماذا تعتقد أنت؟».

قلت: «إن هناك نظامًا آخر لهذا العالم لا نعلم عنه شيئًا». ثم قلت بتردد: «يوم أن عثرت عليك قرأت في كتب التاريخ البائد أن بعض القبائل في الجنوب كانت تعتقد قديمًا بوجود صاحب للعالم في مكان ما، أتى به، ونظّمه، ثم... ثم يعود إليه».

التفت لي بوجهه الجامد وانفتح ثغره ببسمة خفيفة، وقال: «ما معنى يعود إليه؟».

قلت: «لا أدري، ربما.. أنت تعلم.. لا أحد يعلم في الواقع إلى أين يذهب الأموات»!

ضحك (ليمان) قليلًا، ثم قال: «من هو؟»

- «من تقصد؟».

- «ذلك الذي قد مات ففطر فؤادك، فأخذتَ تفتش في كتب مخازن المكتبة علك تجد أملًا في لقائه مجددًا».

شعرت بالحرج وعدم الارتياح، وضممت معطفي حول عباءتي من برد الطريق وقلت: «ألا تذكرك عقيدة قبائل أهل الجنوب بشيء؟ بطفل كان على جزيرة جرداء فآمن أن كل هذا العالم لربما كان حلمًا في عقل أحدهم»!

توقف عن السير والتفت إليّ فتوقفتُ أنا أيضًا وقلت له: «ألا تجد كبير تشابه بين هذا وبين فكرة نشأت في عقلك الصغير لما شعرت أنه لا بد من سبب لوجودك، لا بد من سبب لوجود كل شيء؟».

صمت (ليمان) لفترة لا بأس بها، وأنا لا أدري ما يدور في خلده الصغير، ثم قال في النهاية: «قلت لك يا سولي، كل العقائد خاطئة!».

خيّم الصمت علينا، ثم أكملنا طريقنا وسط عربات الخيول والطماجن، كان (ليمان) نحيلًا، وبدا وهو يسير بجانبي وكأن الهواء سيقذف به يمينًا ويسارًا، كانت يدي تتحرك بانعكاسات سريعة تجاهه في كل مرة يمر بجانبنا فرس راكض.

دخلنا إلى زقاق جانبي ثم ما إن اجتزنا أوله حتى توقفنا! نظرتُ إلى الكلب الممدد على حجارة الشارع الباردة وتجمدت مكاني. كان الكلب يعوي بصوت ضعيف يقطع نياط القلوب، كائن هزيل تمامًا وكأن فروه التصق بجلده والتحم بعظمه من غير لحم ولا شحم. يرتجف بهواء الليل البارد وقد انحنت رقبته من الضعف فسقط رأسه على الأرض ويفتح عينيه بصعوبة.

أشرت إلى (ليمان) أن يتوقف. ثم انحنيت بجانب المسكين الصغير. التقطته فأنّ أكثر، تركته مخافة أن أؤلمه.

- «(ليمان)، أريدك أن تبحث لي عن صندوق قديم في مقلب القمامة».

غاب بعض الوقت ثم جاء بصندوق مليء بالثقوب ولكنه كان مؤديًا للغرض، وضعت فيه الكلب المسكين، وحملته برفق عائدًا إلى النُزُل الذي نستأجر فيه غرفتنا.

قال (ليمان): «أنت تعرف أنه سيموت، أليس كذلك؟ لا يوجد ما تستطيع عمله إلا مزيدًا من الشقاء لنفسك».

لم أرد عليه. في الطريق توقفت عند أحد الباعة حيث كان يشوي اللحم، وابتعت قطعة من اللحم الطريّ مع بعض الماء، أدخلت الكلب المحتضر إلى المطعم، صاح البائع معترضًا ولكني تجاهلته، حاولتُ تدفئته وناولته الطعام فلم يأكله! ناولته الشراب فلم يشرب. أُسقِطَ في يدي، يبدو أن مرضه شديد.

عدت أحمله من جديد وذهبت بسرعة أكبر إلى حانوت صحة قريب، كل هذا و(ليمان) يسير خلفي ببطء وينظر لي بركن عينيه ولا يتكلم.

على مدخل حانوت الصحة تذكرت (ناجيلي)، هذه المرة كانت الذكرى مؤلمة أكثر من المعتاد، وقد ضعف في هذه الليلة أملي في أن أراها مجددًا أكثر من أي ليلة أخرى منذ عدت من الحافة، فطردت ذكراها سريعًا، وطلبت من الحكيم أن

يصف لي دواءً للكلب فبدا مندهشًا، مثله مثل بائع اللحم، مثل (ليمان)، جميعهم لم يفهموا ما المهم والمميز في هذا الكلب العابر. أنتم لا تفهمون، المشكلة أنه كلب تافه غير مهم! المشكلة أن جميع الناس ستعبر من جانبه، لم يكن لهذا الكلب أحد يحنو عليه، صهرتني هذه الفكرة حتى النخاع. لا أحد يستحق ألا يكون له أحد!

وصف لي الحكيم على مضض بعض الأعشاب المطهرة للمعدة مع بعض الشراب المسكّن، وأوصاني أن أناوله له بجرعات يسيرة. وها أنا ذا جالس على الأرض في النُزُل الصغير، بعد أن هرّبت الصندوق القذر إلى غرفتي مدّعيًا أنها بعض الملابس القديمة، وبجواري (ليمان) وقد جلس على سريره صامتًا لا يتكلم، منشغلًا عني بكتابه الذي يقرأ فيه، بينما أحاول أن أدس الدواء في فم الكلب المسكين الذي لم يكف عن أنينه الضعيف وارتجافة قدمه النحيلة.

في اليوم التالي كان يحتضر وأنا أعلم ذلك، لا شيء يفلح معه، الدواء لم يحسّن من شهيته أو يسكّن من ألمه، والهزال يزداد والضعف يتمكن منه، لم أستطع إنقاذه كما لم أستطع أن أنقذ (ناجيلي)، وحين ذهبت لتفقده مساءً في ركن الغرفة الذي أعددته له بكل هذه الأغطية المنصوبة حوله لتدفئته كان قد مات.

وقفت بجواره حزينًا، شعرت بغصة في حلقي، شعرت بخرق في عالمي، في نسيج روحي بداخلي هناك حيث لم يكن ينظر أحد!

اقترب مني (ليمان) ونظر إلى الكلب وفهم أنه قد مات. قال بصوت متقطّع: «مثير للشفقة، أليس كذلك؟».

ظننتُه يتحدث عن الكلب فأومأت برأسي ولم أرد.

تابع هو، وهو ينظر إلي المسكين الميت في جمود: «أن تجد شيئًا في طريق عودتك إلى مسكنك الهادئ يخبرك أن الحياة ليست بهذا النظام الذي تظنه، وأن من المعاناة ما ليس له تفسير، فتحاول جاهدًا أن ترمّم الخروق في تلك الفكرة التي صنعها عقلك عن العالم، ثم تقف في الظلام تحدّق في نتيجة فشلك القاسي...».

ثم ولّى معطيًا ظهره لي وقال: «نعم، هذا مثير للشفقة بالفعل!».

كالينا

اليوم يوافق ذكرى الشهر الأول لدخولنا إلى هذه الزنزانة القبيحة، صار الأمل شحيحًا حتى قارب على النفاد. أتممتُ شفائي على خير وصرت أحرك ذراعي بألم طفيف وتوقفت عن جميع العقاقير، عاد (تومان) لطبيعته شيئًا فشيئًا بعد مرور الكثير من الأيام على موت صديقه أمام عينيه، مع الوقت صار كل شيء طبيعيًّا واعتدنا على المكان الذي نحن فيه، باستثناء أننا مساجين، وأننا صرنا خمسة بعد أن كنا ستة.

في الأسبوع الأول لوفاة (ميرون) دارت الكثير من المشاجرات بيننا، كان (هوسيرل) يرى أن علينا أخذ المخاطرة وتجربة محاكمة الكرة المرمرية، الاحتمالات تقف معنا، احتمالات النجاة ومعها الحرية أكبر من احتمالات الموت أو التنكيل، لكن (تومان) رفض بصرامة، وأقسم على أن يلكم أول من يطلب المحاكمة منا في وجهه، رجلًا كان أو امرأة. بعدها توقفنا عن الشجار، أن نبقى هنا خير من الموت بهذه الطريقة، اتفقنا جميعًا على ذلك. ولكن إلى متى؟!

بعد وفاة طبيبي، كان (تومان) هو من يطببني، يسهر معي حين تعود إليّ الحمى ويضع الماء البارد على رأسي المشتعلة ثم يجفف شعري وينظّف جرحي المتقيح ويسقيني دوائي. هل من الغريب أني لم أعد أكرهه إلى هذا الحد بعد كل هذا؟

من حين لآخر كنت أنظر إلى (سيرا) نظرات اعتذار مبطنة بالخجل، لقد كنتِ على حق يا صغيرة. ربما بالفعل، يسهل تحول أحدهما إلى الآخر!

في تلك الليلة أصابني الأرق، اعتدلتُ في حَشيَّتي بجوار (سيرا) في طرف الزنزانة الذي أعددناه للفتيات، بينما احتل الرجال الثلاثة الطرف الآخر، نظرتُ إلى حيث يرقد (سولي) العجوز والذي كان نائمًا على غير عادته ليلًا، كان عادةً ما يكون قلِقَ النوم قليله. ولكنه في تلك الليلة كان يغط في النوم.

تسللتُ من فراشي إلى حيث يرقد (تومان)، أصابني هوس بأن أراه نائمًا، على ما في ذلك من الخطر، لو استيقظ أحدهم ليراني أتطلع إلى الرجل النائم لأرقت آخر قطرة ماء من وجهي.

وبينما أتطلع إليه فكرت أنه كان بهيّ الطلعة بالفعل، على أن ما يجعل وجهه جذابًا لم يكن جمال وجهه قدر تلك العزيمة التي تظهر على ملامحه متقدة، شيء ما في تعابير وجهه يوحي بالصلابة، يوحي بالتحدي. هل هي مفاجأة؟ أن يكون هذا هو أكثر ما يجذبني في الرجال؟

كان قميصه مفتوحًا في أعلاه فرأيت حول عنقه قلادة حمراء غير جميلة الشكل، لم ألاحظ هذه القلادة من قبل! لم تكن تتسق مع جمال ذوق (تومان) في اختيار ملابسه. هل كان يلبسها طوال الوقت ويخفيها تحت ملابسه؟ لا أدري، ولكن....

ثم قطع حبل أفكاري أسوأ كوابيسي، (تومان) يفتح عينيه فجأة ليراني أحدق فيه في ظلام منتصف ليلة لا نور فيها إلا من مصابيح شحيحة في الممر خارج الزنزانة. سمعتُ أن بعض الناس يشعرون من يحدق في وجوههم أثناء نومهم، وكأنها عين ثالثة. وعين (تومان) الثالثة قضت على ما تبقى من كرامتي.

ارتبكت وتراجعت وابتسمت بخجل، بينما قام هو وفرك عينيه محاولًا فهم ما يحدث. وقال بصوت ناعس كالفحيح: «هل توجد مشكلة؟ هل أنتِ بخير؟». هززتُ رأسي أن نعم، ثم قلت بسرعة مشيرة إلى الركن الصغير الذي أعددناه قضاء الحاجة: «كنت في طريقي إلى المرحاض فحسب، وظننت أني سمعت صوتًا.. آآه، لا أدري. لعلي كنت واهمة».

اعتدل في جلسته وقال بحرج مشيرًا إليه: «تفضلي».

لما عدت من المرحاض وجدته وقد هندم من ملابسه وصب كوبين من الماء البارد وأعد على طرف الزنزانة المواجه للقضبان حشية نظيفة، وعليها بعض رقائق الخبز الجاف والجبن اليابس المتبقي منذ أمس. ثم قال: «لن أستطيع النوم مجددًا دون أن أتناول عشاءً آخر!».

ضحكتُ وقلت بصوت خفيض وأنا متجهة إليه مارة بالقرب من (سيرا): «هل تسمي هذا عشاءً؟». قال: «نعم، وهذا ليس ماءً، هو نبيذ كرْمي فاخر». ثم أشار إلى رأسه وقال: «كل الأمور يمكن أن يُعاد اعتبارها.. هنا».

جلستُ بجواره، وتناولت شطيرة الجبن اليابس ولدهشتي، كانت لذيذة حقًّا.

- «هل لي أن أسألك شيئًا؟».

- «أرجوكِ أن تفعلي».

- «ماذا يعني ذلك الرمز الأحمر في قلادتك؟».

توقف عن المضغ ولمس تلقائيًّا طوق قميصه ودارى القلادة ثم سكت.

- «أنا آسفة، لو كان الأمر خاصًّا ولم ت...».

- «لا، لا. ليس بشيء».

ثم طال صمتنا معًا، أخذ ينظر لي ثم ينظر إلى الأرض في حرج، كان مترددًا بشدة بشأن أمر ما، في النهاية ابتسم بحرج وحك شعر مؤخرة رأسه وقال: «حسنًا، سوف أخبرك، لقد كنتُ مرتاحًا ألا أحد يعلم سري سوى شخص واحد، ولكن على كل حال، لقد مات هذا الشخص الآن».

ثم قال: «هذه القلادة مصنوعة من العقيق الأحمر، ربما أكبر قطعة من الحجر عرفتها جمهورية الكرم، يمكنك القول إنها لا تقدر بثمن. كانت ملكًا لأبي، ولجدي من قبله، ولجد أبي من قبلهما، وهكذا.. لا أعلم بالظبط متى بدأت في عائلتنا ولكني أعلم أنها قديمة بما يكفي، لأني خرجت إلى هذا العالم لأجد الناس تتحدث عن عائلة (نيقه) التي أخرجت العديد من العلماء، وعن قلادتهم الحمراء التي يتوارثونها جيلًا من بعد جيل.

كان أبي هو (إندل نيقه) عالم رياضيات بارع في بلاد الكرم، وجدي كان (تومان نيقه) الأكبر، كان فلكيًّا مشهورًا. اخترتُ أنا أن أدرس الطب، ولكن.. لا أعلم، ربما عقلي ليس بعقل طبيب، لم أبرع فيه قط!

وفي أول جراحة شاركتُ فيها كان من المفترض أن أبتر قدم مريض بالتعفّن، تسرّعت فأصبت منه عرقًا، أخذ ينزف بعدها حتى... مات!».

اتسعت عيني في دهشة، الكثير من الأمور كي تعلمها عن شخص في ليلة واحدة!

تابع (تومان): «انتشر الخبر في المدينة كالهشيم، سليل عائلة (نيقه) العريقة أثبت أنه لا يستحق أن يحمل اسم عائلته. غضب أبي من كلامهم، ولكنه كان غاضبًا مني أكثر! توقف عن نصحي وتشجيعي وانخرط في عمله وتركني أتخبط في الطب من فشل إلى عجز. حتى أتى يوم تقاعده، تقضي تقاليد عائلتنا أن يمنح قلادته، تلك القلادة التي اكتسبت قيمتها بين أفراد العائلة بما تعنيه وليس بقيمتها فقط، أن يمنحها لابنه البكر في يوم تقاعده، ما لم يمت قبل ذلك بالطبع، وهو ما كان حدث لجدي الأكبر، فتم توريثها لابنه البكر تلقائيًّا.

ولكن أبي لم يفعل! لم يعطني القلادة! أعطاها لأخي الأصغر، وفي وسط دهشة وهمسات الجموع الذين كانوا يحضرون حفل يوم تقاعده، ما زلت أذكر وقتها ذلك الشعور الذي طغى على قلبي حينها، شعرت بأني لم أعد أريد العيش مجددًا!».

ثم رفع رأسه من الأرض ونظر لي قائلًا: «هل هذا أمر معتاد؟ هل هذا من الطبيعي أن يحدث؟ أن يفقد المرء شغفه بالحياة من أجل جزء صغير فيها كهذا؟ هل.. هل هذا هو ما نريده حقًّا في نهاية المطاف؟ خلف رغباتنا في الطعام والمال والشهوة تختبئ رغبة وحيدة في إشباع ذلك الشيء الصارخ بداخلنا، إسكات ذلك الصوت المزعج الذي يقول لنا: اترك بصمتك في هذه الحياة، اجعل من خلفك يتذكرونك، احفر بأصابعك حافة التل الذي ينهار تحتك ببطء ويجرك نحو الفناء الواعد، حاول أن تنقش اسمك على كل حجر وتكتبه على كل ورقة شجر تجدها بين يديك. حتى إذا متَّ في النهاية شعرتَ بأن نهايتك قد أتت درامية ملحمية كأبطال القصص الأسطورية، وليست تلك النهاية المبتورة التي ينالها معظم الناس. تلك النهاية الـ.. العابثة»!

ثم نظر بدون سبب إلى (سولي) النائم بجانبنا، نظرتُ أنا أيضًا إليه وابتسمت وقد فهمت ما يعنيه.

قلت: «كيف حصلتَ على القلادة إذن؟».

قال: «سرقتها»! ثم ابتسم بحزن. أم هل يبتسم بفخر؟!

تابع (تومان): «هذه القلادة ملكي أنا، إرثي أنا، مجدي أنا، لم أكن قد استحققتها بعد، أعلم ذلك، ولكني أقمست أن أفعل! وفي تلك الليلة التي هربت فيها من بيتي ومن مدينتي حاملًا القلادة الثمينة المأخوذة من خزانة أخي إلى جمهورية التوك، عاهدتُ نفسي ألا أرتديها إلا بعدما أحكم على نفسي أني قد استحققتها. وهو ما فعلت بعدما فهمت أن عقلي

تناسبه الرياضيات ورصد قواعد الطبيعة أكثر مما كان يفعل الطب».

لم أستطع أن أحدد مشاعري تجاه ما فعل، اكتفيت بالصمت، بعد قليل سألته بحذر عن النقطة التي أثارت روعي في قصته: «ألا تشعر بالشوق لعائلتك؟!».

- «في كل يوم أفعل».

- «إذن، هل شعرت بالندم لرحيلك؟».

- «لا. من المؤلم أني لن أراهم ثانية، ولكنه ألم محتمل. أما ألم أن أسقط من هاوية الحياة بعد أن تشبثت بجرف هارٍ فهو ما لا أحتمله أبدًا».

ابتسمتُ في حزن وأنا أنظر إلى الأرض في خجل.

قال (تومان) بابتسامة مشابهة: «ما الذي أضحكك؟».

قلت له: «لأني فهمتُ لماذا لم نطق بعضنا في البداية أنا وأنت؟».

قال بخبث: «في البداية؟».

نظرت إليه بنظرة معناها: (كف عن هذا الهراء)، وقلت: «السبب أننا متشابهان، ربما إلى حد التطابق، كل منا كره ما رآه في الآخر، لأننا جميعًا في حقيقة دواخلنا نكره ذواتنا حقًّا، أليس كذلك؟».

تجاهل سؤالي وقال: «متشابهان كيف؟».

قلت ببساطة: «أنا أيضًا تركت عائلتي كي لا أسقط من الجرف الهار»!

رفع حاجبيه متعجبًا، ثم قال: «أنا سوف أحتاج قطعًا إلى المزيد من التفاصيل».

قصصتُ عليه قصتي مع (بيدرا) و(ماندا)، وقدرتُ بيني وبين نفسي أنه لن يكرهني بأكثر مما أكره به نفسي. ولكنه بدا لم يفعل. كان متفهمًا ما فعلت، ربما أكثر مما تفهمتُ أنا نفسي قط.

ثم قال (تومان): «السؤال الحقيقي في النهاية هو ماذا تريدين حقًّا أن تفعلي وقد ظهر لكِ أنكِ ستضطرين إلى الاختيار مجددًا، بين ترك كل شيء والعودة لابنتك، وبين الاستمرار فيما أنتِ فيه، ماذا ستختارين؟».

قلت وأنا أزن كلماتي ببطء: «لو سألتَني قبل هذه الرحلة لكان جوابي محسومًا ببعض الأسى والكثير من بغض الذات».

ثم تابعت: «أما الآن، وبعد كل شيء، فأظن أني فهمتُ شيئًا لم أكن لأفهمه أبدًا».

- «وما هو؟».

- «ليست بصمات الحياة تتعلق جميعًا بآثارنا التي نضعها في الخارج. أهم بصماتها تلك التي نتركها بداخل أنفسنا نحن».

ثم قلت وأنا أنظر إلى الكرة المرمرية وأتذكر (ميرون): «أظن أن خير ما يمكن أن تقوم به في هذه الدنيا أن ترحل عنها وكل شيء في داخلك منسجم متناغم أنيق».

وعدت أنظر إليه وقلت: «وأنا لا يمكنني أن أتخيل أي أناقة لنفسي بدون (ماندا) إلى جانبي».

هز رأسه متفهمًا ببطء، ثم أصبنا بالذعر على صوت شيء يتحرك تجاهنا، التفتنا فإذا هي (سيرا)، وقد قامت من مرقدها وسارت بسرعة إلى حيث نجلس. شعرت بالخجل وفكرت أن أقول لها شيئًا، إلا أنها لم تبدُ مهتمة بما يحدث.

قال (تومان): «(سيرا)، ما أيقظك؟».

قالت بصوت ناعس وهي لا تزال تشعر بدوار، بينما إحدي عينيها ما زالت مغلقة: «لقد راودني حلم غريب، حلم بشيء أعرفه منذ زمن ولكني كنت نسيته تمامًا».

ثم نظرت إلى (تومان) ذاهلة وقالت: «سيد (تومان)، أظن أني أعرف الطريقة التي تعمل بها الكرة المرمرية»!

تومان

تحضّر البهو لمحاكمتي، الكاهن الأكبر على عرشه الذهبي، والكهّان قد تجمعوا في مؤخرة القاعة، بينما جرني أحد الجنود من الزنزانة إلى موضع المحاكمة أمام الكرة، ووقف كاهن آخر بجانب رافعة كوة السماء منتظرًا لإشارة الكاهن الأكبر.

نظرتُ إلى (هوسيرل) الذي كان يشبّ على أطراف أصابعه خلف قضبان الزنزانة كي يراني، سألتُه بطرف عيني، فهز رأسه رافضًا. تبًّا! عليّ أن أعطلهم.

قلت للكاهن الأكبر مدركًا إياه قبل أن يعطي شارة بدئه: «لحظة!».

نظر لي متسائلًا، قلت: «أحتاج إلى تلاوة الصلوات أولًا».

- «أنت؟ أنت تريد الصلاة لسادة السماء؟».

- «نعم، لقد آآآ.. لقد غيرتني هذه الأيام السابقة، بدأ النور يتسلل إلى قلبي، أحتاج الآن إلى الابتهال لسيد الخير أو سيد الحياة، وربما سيد الخصوبة كذلك. أيًّا يكن، أي سيد من الأسياد يخرجني من هنا برأس كاملة».

لحسن الخظ لم يلحظ سخريتي، وأشار لي راضيًا أن أبدأ صلاتي.

نظرتُ إلى (هوسيرل) الذي كان ملتفتًا بعيدًا عني، وهم يظنون أني أتلو صلواتي.

طال الأمر حتى ارتابوا، نظرتُ مجددًا إلى (هوسيرل) وجدته يشير بعنف برأسه لي أن الآن.

قلت للكاهن الأكبر: «أنا مستعد».

أشار إلى الكاهن بجوار الرافعة، ففتح كوة السماء وقبل أن تُنار الكرة رفعت يدي وذراعيّ بسرعة إلى الأعلى كاشفًا عن قطعة الصفيح البراقة التي لففتها حول عضدي وأخفيتها تحت ملابسي، حركت يدي بسرعة ورأيت الانعكاس المميز. لقد كانت (سيرا) على صواب!

قال الكاهن الأكبر: «ضع يديك على الكرة».

قلت معتذرًا وأنا أنحني باحترام مبالغ فيه: «أرجو المعذرة يا سيدي، لا أظن أني فرغت من صلواتي بالفعل، أنا خائف، أحتاج إلى المزيد من التفكير، سوف أتراجع!».

نظر لي نظرة نارية، ثم أشار إلى جنود المعبد، اقتادوني بعيدًا، ثم توالى أربعة منهم على ضربي، وجروني حتى أعادوني إلى الزنزانة بكدمات تغطي جسدي كله، وقال لي أحدهم وهو يرحل: «هذه لتذكيرك بأن تستعد جيدًا قبل أن تطلب المحاكمة في المرة القادمة».

انحنت عليّ (سيرا) بسرعة تحاول تطبيبي ببعض الماء البارد، بينما سألت (كالينا) في اهتمام: «هل أنت على ما يرام». هززتُ رأسي بمعنى (نعم)، رغم الألم إلا أن الأمر سار بشكل أفضل مما توقعت. كنت أنتظر سهمًا كالذي أصاب كالينا.

نظرتُ إلى (سيرا) وقلت لها: «عزيزتي، أنتِ عبقرية»!

- «إذن الأمر صحيح، أليس كذلك؟».

- «بلى، هذا هو التفسير الأقرب».

كانت (سيرا) قد تذكرت شيئًا، أمرًا قرأت عنه منذ فترة، عن العالم الذي اكتشف شيئًا في قارة الجنوب سبق به علماء قارة الشمال بكل شهرتهم وأكاديميات علومهم. شيئًا صغيرًا ولكن يمكن بالكثير من التعديل صنع شيء معقد بهذا الشكل منه.

اكتشف العالم عن طريق الصدفة حين أمسك قطعة زجاجية أمام ضوء الشمس أنه قد حصل على قوس قزح من الناحية المقابلة. تمامًا كالذي نراه في السماء بعد المطر، كانت قطعة الزجاج ذات أبعاد مميزة، لها شكل شبيه بالهرم مع وجهين متماثلين وقاعدة. هذا هو الموشور، لم يسمع أغلب علماء الشمال عنه، ولم يكن يعرف أحد لماذا يحدث ذلك، أحد علماء قارة الجنوب أكمل بحث العالم الراحل، ووضع نظرية تتحدث عن أن ضوء الشمس يحوي جميع ألوان طيف قوس

قزح. ولا تنفصل عن بعضها إلا بمرورها في وسط زجاجي كذلك.

قالت (سيرا) وهي تشرح لنا بالأمس: «تخيلوا لو طوّر أحدهم مجموعة من العدسات بحيث تجمّع أشعة الشمس ثم تفصله إلى درجات ألوانه، مع تلك المسافة، وباستخدام عدسات التكبير المناسبة، مع... لا أدري، ربما بكرة أيضًا تدور عشوائيًّا مع فتح كوة السماء.. يمكننا أن نحصل حينها على آلة تحوّل ضوء الشمس إلى أحد الألوان السبعة بشكل عشوائي. دون الحاجة لاستخدام أية صبغات أو أوساط ملونة معتمة.

كنا نحتاج إلى التأكد من صحة فكرة (سيرا)، كان عليّ الذهاب أسفل هذه العدسات وانتظار شعاع الضوء المنعكس من ذلك الذي وجهته (سيرا) و(هوسيرل) من أشعة شمس نافذتهم باستخدام قطعة صفيح مماثلة.

الآن تأكدنا، في المكان الذي تنفتح فيه كوة السماء توجد عدسات مخبأة، على الأرجح مع بعض المواشير اللازمة لإسقاط أضواء سادة السماء المزعومة.

قال (هوسيرل) بعد أن احتفلنا قليلًا بذكائنا: «كل هذا جميل، لكننا ما زلنا لا نعلم أي شيء عن طريقة خروجنا من هنا»!

قطّبتُ جبيني حين صارحنا بالحقيقة التي كنا نتحاشاها منذ الأمس، بينما تكلم (سولي) لأول مرة قائلًا: «يمكن لـ(ليفاي) أن يساعدنا في ذلك»!

التفتنا له في عجب، عم يتحدث العجوز، قلت له: «هل (ليفاي) هذا لا يزال حيًّا أصلًا؟ هل لا يزال هنا معنا على ذات الجزيرة؟ لم نسمع عنه شيئًا منذ أسرنا».

قال: «ولكنه ما زال هنا، ولم ينسنا قط، اسألوا (كالينا)، لقد كان يتواصل معها طوال الوقت»!

نظرنا إلى (كالينا) التي كانت تنظر إلى (سولي) في عجب، بينما تابع الأخير مفسرًا: «كان الصبيان يأتون لنا بالطعام كل يوم في أطباق خزفية وردية وطبق وحيد أصفر، كنتِ يا بُنيّتي تسارعين إليه في كل مرة، برغم أن الطعام متشابه في جميع الأطباق. إما أنكِ تكرهين اللون الوردي إلى هذا الحد، وإما أنكِ كنت تحصلين على رسائل خبأها لكِ أحدهم فيه».

أعدنا النظر إلى (كالينا) مجددًا، والتي نظرت للأرض في خجل، وقالت: «لم أكن أخبئ عنكم أمرًا ذا بال، فقط المزيد من خيبة الأمل. أشفقتُ عليكم أن تتعلقوا بأمل كاذب مثلما فعلت، الأمل أقوى أنواع الإدمان، وهو أسوؤها إن كان بلا جدوى»!

قلت لها وأنا أضع خرقة من القماش مغمورة في الماء البارد على كدمة فوق عيني: «عم تتحدثين؟».

قالت: «لقد أرسل (ليفاي) إلى (نوبير) ولكنه لم يتلق أي رد. أرسل إلى حكومة الوكيل فلم يتلق أي رد. أرسل إلى اتحاد تنظيم رحلات الزوار إلى جزيرة (إلي) فلم يتلق أي رد. لقد كان (سولي) على صواب. نحن وحدنا هنا في معبد محاط بالجنود من كل جهة، ومحصنة أبوابه وسط جزيرة كاملة يؤمن أغلب سكانها بمعتقدهم ويحترمون أحكامهم».

ثم قالت: «أي فرق سوف يحدثه (ليفاي) مع بضعة نفر من بحارته النحول؟!».

قال (سولي): «إلى أية درجة هم نحول؟».

نظرت له (كالينا) بحدة وقالت: «هل تمزح؟».

قال: «لا يا ابنتي أبدًا، فقط إذا كان أحدهم نحيلًا كفاية، فسيكفي لضمان خروجنا من هنا»!

سولي

على ذلك المكتب الصغير في تلك البناية المهترئة لافتة مكتوب عليها: (بخمس روكيّات يمكنكِ توفير مائة)! كان هذا هو المكتب الثالث الذي نمر عليه، بنفس الشعار يتكرر فوق كل منها! بينما كان يدخل ويخرج من المكتب نسوة صغيرات السن، بعضهن حوامل.

قال (لِيمان) مشيرًا إلى المكتب الصغير: «ما هذا؟».

ابتسمت بحزن وتذكرت دهشتي من هذه اللافتة أول ما أتيت هنا، واغتممت لعودة تلك الذكرى المؤلمة إليّ. كانت هذه ثاني زيارة لي لمدينة (سيرانتي) والأولى لـ (ليمان) وفي سري تمنيت أن تكون هذه الأخيرة لكل منا.

قلت له: «علاقات الزقاق، والغابات، وبيوت المجون، والمواعدات العابرة تأتي ببعض الهدايا أحيانًا، لا ترغب المرأة في هذه الهدية في معظم الأحيان. من الذي يريد طفلًا أتى في وقت خاطئ من رجل لا يبالي بها ولا تعلم إلى أين ذهب؟

لذلك يوفر لها ذاك الطبيب الحل، بخمس روكيات يمكنها شراء قارورة من برادة القين، بضعة شربات وساعات من الألم المريع وينتهي كل شيء. يمكنها أن تقوم بذلك الآن وتتخلص من الضيف الثقيل الذي يكبر في رحمها، أو يمكنها أن تنتظر حتى تتم حملها وتضع الوليد الصغير، وتركض به هنا وهناك باحثة عن لقمة عيشه بعد أن يرفض أبوها كفالة طفل رجل آخر، أو يرفض قوّادها أن تدخل رضيعها إلى مكان عملها السابق، هنا عليها أن تعمل لتوفير تسعين روكيّة، يقولون إن تسعين روكية هو ما يحتاجه الوليد الصغير من مال طعام ولباس حتى يتم عامين».

قال (ليمان) الذي كان يستمع باهتمام: «ولماذا عامان؟».

قلت: «لأن هذا هو الحد الأدنى من السنين الذي يطلبه متجر (الأمل) لشراء الطفل منها!».

ثم نظرتُ إلى وجهه لمراقبة أثر الصدمة عليه ولكنه لم يهتز. بينما تابعت أنا: «من اللحظة الأولى التي تلد فيها وليدها تدرك أنها لن تستطيع أن تكمل في هذه الحياة بمفردها مع مسؤولية كتلك. لن يتزوجها أحد لينفق على طفل ليس له، لن تقبل المصانع تعيين أم تكفل رضيعًا، لا يوجد لها غير الجوع، والفقر، والمرض، والعراء. تعد الأيام تمر حتى يصل الطفل إلى عمر عامين، هنا يفتح لها متجر (الأمل) أبوابه، يمكنها أن تبيع الطفل الصغير إليه بشرط أن ترحل إلى الأبد ولا تسأل عنه ثانية!

يأخذ المتجر الطفل ليقيّمه ويقدر سعره الجديد، بعد فحص مدى جماله، واتساق جسده، ومدى ذكائه البادي في سرعة تعلمه للكلمات الجديدة. ثم يعرضونه للبيع لراغبي التبنّي، للعاقر الذي يبحث عن أمل جديد».

صمت (ليمان) قليلًا، ثم قال: «تسعون روكية تتحدث عنها سوف تنفقها الأم على وليدها حتى تبيعه للأمل، ولكن اللافتة تقول مائة، ماذا عن العشرة روكيات الأخرى».

هززت رأسي راضيًا عن قوة ذاكرته وقلت له: «العشرة روكيات الأخرى ستشتري بها قارورتين من برادة القين، تكفيان لقتلها وإراحتها هي من آلام الندم بعد أن تشتاق لصغيرها الذي باعته بعد أيام قلائل»!

ثم أشرت إلى بيت آخر في آخر الشارع وقلت: «هذا هو ما حدث لـ (جوسيا)، المسكينة التي كانت تعمل في بيت للمجون هنا منذ سبعة أعوام. من وقتها تعلمت النسوة الدرس، لا مزيد من المكابرة بانتظار غد أفضل، لا مزيد من توقع أمل لا يأتي، سوف يدفعن عن طيب خاطر خمس روكيّات لتوفير مائة بعد ذلك»!

أكملنا بقية طريقنا في صمت، مررنا على بيت المجون الذي كنت أشير إليه لـ (ليمان)، التفت (ليمان) إلى مدخله حيث كانت تقف بضع فتيات لاجتذاب المارة، أكبرهن في سن (ليمان) نفسه. أشرت إليه أن يصرف بصره عنهن، ولكن إحداهن أخذت تتبعنا: «سيدي، سيدي، توجد تخفيضات اليوم، سيدي أرجوك انظر إليّ على الأقل..»!

أخذتُ أسرع الخطى ممسكًا بيد (ليمان) معي والذي لم يحب ذلك كثيرًا، تلامس الأيدي كان بالنسبة إليه دائمًا سببًا لعدم الارتياح. لقد أتممت قرابة العامين برفقة (ليمان)! الذي صار الآن يافعًا بعد أن ازداد طوله وبدأت رجولته. ربما لم يكن خيارًا جيدًا أن نمر من هنا على كل حال!

أفلت (ليمان) يده من يدي والتفت ينظر إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تعرض نفسها على المارة بعد أن مررنا بجانبها وكأننا لم نكن، قال: «عندنا في المافرسك سن أدنى لممارسة العُهر، لا أظن أن هذه الفتاة قد بلغت العاشرة حتى».

توقفت بدوري ونظرت إليها بأسى، وقلت: «نحن بعيدون عن المافرسك صاحبة القناع الأجمل وسط مدن الكِميت. هنا لا تهتم هذه المدينة بنفس الأقنعة التي تخفي بها المافرسك وجه الكِميت القبيح! هنا لا مزيد من القوانين المسنونة التي تسمح للناس بالشعور بأن هناك من الرقابة ما يوفر لهم مظلة حماية من شرور إنسان قد قرر أنه مجرد حيوان آخر».

- «تقصد أن كل شيء مباح هنا؟».

- «ليس كل شيء، فقط الأشياء التي تقدر على فعلها. لا يمكنك أن تقتل رجلًا ذا عشيرة أقوى منك، لا يمكنك أن تسرق من رجل يحمي نقوده جيدًا. يمكنك أن تذهب بعيدًا، ولكن فقط بالقدر الذي تسمح لك الحياة به، والحياة لن تسمح للجميع بنفس القدر. أرأيت؟ إذا فعل الجميع ما يشتهي لن يكونوا متساوين أبدًا، سوف ترتبهم الطبيعة إلى ضحية وجلاد، خراف وأسود، لن يشعر أيٌّ منهما أن هناك شيئًا على غير ما يرام».

- «حتى متى؟».

- «حتى يأتي راعٍ جديد»!

ابتسم بركن فمه وبدا كما لو كان يفكر، شددته من ذراعه جاذبًا انتباهه وقلت: «(ليمان)، هيا بنا، لا نريد أن نتأخر».

ذهبنا حتى وصلنا إلى مبنى كبير فخم إلى حد كبير، معلقة عليه لافتة كبيرة كُتِبَ عليها: (حياة جديدة)، وبأسفلها بخط أصغر: (هل تبحث عن لماذا؟)!

تأملت وجه (ليمان) الذي فهم بذكائه الحاد كل شيء من الوهلة الأولى، وقال: «طريقة ذكية لتحويل المعاناة إلى بعض الروكيّات الفضية»!

هززتُ رأسي موافقًا ودخلنا معًا إلى المبنى، كان (ليمان) يلبس سروالًا قماشيًّا وقميصًا ومعطفًا بينما كنتُ ألبس أنا عباءاتي المزدوجة، وقد بدا منظرنا غريبًا، غريبان عن المدينة يبدوان غريبين عن بعضهما البعض، يدخلان إلى شركة صنعت لمساعدة يائسي أهل مدينة سيرانتي!

استقبلنا موظف على مكتب كبير وقال بلهجة عملية: «كيف يمكنني خدمتكما؟».

- «نريد التحدث مع السيد (تيبا-بولت)».

- «لو كانت هذه أول زيارة لشركتنا فأقترح التحدث مع أحد...».

- «شكرًا لك، ولكنا نريد السيد (تيبا-بولت)».

نظر لي قليلًا محاولًا أن يزن أهميتي وعما إن كان الأمر يستحق عناء قيامه من مكتبه، وفي النهاية قرر على ما يبدو ألا داعي للمخاطرة، قام واتجه إلى المكتب المقابل المغلق بباب خشبي مزيّن بقطع من الزجاج الملون، طرق الباب ثم دخل.

كانت القاعة ذات أرضية رخامية وعلى السقف فوقنا ارتسمت رسوم بهيجة تظهر سماءً ذات شمس مشرقة، وعلى الحوائط الأربعة المزدانة بلوحات فنية بديعة ومجسمات متقنة كانت تنتشر عدة لوحات مكتوبة بخط زخرفي جميل.

اقترب (ليمان) من أحد اللوحات يقرؤها فاقتربت معه، كان عنوانها يقول: (لا مزيد من جنون يوم الإجازة). وبخط أصغر مكتوب تحتها: (هل أنت عامل بأحد المصانع أو المخازن الضخمة؟ هل تشعر بالقلق مع كل دقيقة تمر من يوم الإجازة حتى موعد العمل في اليوم التالي معلنة انتهاء يوم عطلتك الأسبوعية والعودة إلى العناء؟ هل فكرتَ ذات مرة أنك قد مللتَ من كل هذا العناء؟ هل تشعر بالحيرة من كونك لم تعد تعلم إن كنتَ تعمل لتعيش أم تعيش لتعمل؟ لا مزيد من العُصاب، (حياة جديدة) تفتح عينيك على ما يفوتك منها. احصل على هدف للحياة الآن!).

اللافتة التالية كانت تقول (أحزان يوم الميلاد!)، وبأسفل هذه اللافتة كُتِبَ: (ليس من المفترض أن يكون يوم ميلادك يومًا حزينًا، أليس كذلك؟ هل تشعر بالغم مع كل سنة جديدة تمر من حياتك متسائلًا عمّا حققتَه فيها؟ هل تحتاج إلى حلم جديد؟ هل تبحث عن الشغف؟ (حياة جديدة) توفر لك كل هذا. اسأل لدى موظفينا عن برنامج يوم الميلاد).

اللافتة الثالثة كانت أوضحها وأقصرها جميعًا، وبخط كبير كُتِبَ عليها فقط: (ارسم معالمك الأخلاقية، واستشعر معنا النقاء).

التفت (ليمان) إليّ وقال: «هل تسمح دساتير الكِميت بهذا؟!».

قلت مبتسمًا: «بالطبع لا، ولكن تذكر، سيرانتي سقطت من ذاكرة التاريخ الحديث. سيرانتي لا تعترف بأية قوانين، ولا حتى بقوانين الكِميت! هنا يفتضح كل شيء».

عاد إلينا موظف الاستقبال وبصوت عالٍ نادى علينا: «يمكنكم الدخول إلى السيد (تيبا-بولت) الآن».

كان مكتب السيد (تيبا-بولت) عمليًّا بسيطًا على عكس البهو الفاخر من خلفنا، ومن علامات وجهه الممتقع فهمتُ أنه لم يعتد استقبال أية زبائن هنا، وبخاصة الغرباء الذين يعرفون اسمه ويطلبونه عينًا!

كان رجلًا كبير السن حليق شعر الوجه وإحدى عينيه كانت بيضاء، يرتدي معطفًا طويلًا وسروالًا من نفس اللون، ويجلس بتؤدة خلف مكتب خشبي ومن خلفه رفان من الكتب المغبّرة التي لم يفتحها أحد منذ زمن. بغرض الزينة لا أكثر.

جلستُ أنا و(ليمان) من دون دعوة، وارتحت بظهري على مقعدي بثقة، بينما لم ينبس هو ببنت شفة، كان على ما يبدو متوجسًا يريد سماع ما لدينا أولًا.

- «سيد (تيبا)، واسمح لي أن أناديك باسمك المختصر، سوف أوفر عليك الكثير من الوقت».

- «سيُقابَل ذلك بترحاب كبير مني».

- «أنت محتال».

- «عفوًا».

- «أقول إنك محتال، وأنت تعلم ذلك، أنت لا تؤمن حقًّا بأي من الكلمات التي تبيعها للناس!

أنتَ كنتَ عضوًا صغير الشأن في جماعة معينة، جماعة ذات شأن كبير وعمل سرّي، تسمونها بالـ (رابطة)، يتمركز عملها هناك في مدينة بعيدة من جمهورية أخرى، مدينة (أورارا) في جمهورية التوك، أليس كذلك؟».

كان وجهه يحتقن ببطء وهو يستمع إلى كلامي، ومن حين لآخر ينقّل بصره متوترًا بيني وبين (ليمان) الشاب الصغير الذي كان يرمقه في ثبات دون أن يحرك عينيه عنه لحظة، أعلم أن تأثير هذا غير مريح وقد جربته في أيام معرفتي الأولى به. بينما أكملتُ كلامي.

- «عضو كبير آخر في الرابطة قد كبر سنه، أحالوه للتقاعد ولكنه ولسبب ما قد قرر الاختفاء، اصطحب معه مساعده المخلص إلى مدينة صغيرة في جمهورية الكرم تمتاز بشيء واحد، شيء لم يكن يومًا نعمة في حق ساكنيها، ولكنه نادر الوجود بشكل لا يعلمونه».

ثم سكتُّ طمعًا في أن يتكلم ولكنه لم يفعل، ظل عاقدًا يديه أمام ذقنه بهدوء مصطنع منتظرًا أن يعرف كل ما في جعبتي.

«لا قوانين، لا سلطة، لا حدود ولا تقييدات كما في أي مكان آخر في العالم حسب دساتير الكِميت. هنا فقط يمكنك حتى أن تدشّن لطقوس وتدعو لعقائد وتبني معابد كما تشاء! مدينة وكأنها خارج حدود العالم. ولكن أهلها لا يعلمون ذلك، لا يعلمون أن بوسعهم عدم الاعتقاد في الكِميت لو شاؤوا، ما زالوا يلتزمون بنظرة الكِميت المادية للعالم».

قمتُ من على مقعدي واتجهت إلى اللوحة المعلقة على الحائط خلف ظهري والمكتوب عليها: (ابحث عن نفسك!). وقلتُ واضعًا يديّ على اللوحة متأملًا: «جئتما إلى هنا لبيع العقار الوحيد الذي تعرفان كل شيء عن أسراره، في أكثر بقعة على الأرض تحتاج إليه، وهو المكان الوحيد الذي لن يمنعكم أحد من بيعه فيه! ستكونان البائع الحصري للدواء الوحيد في أكثر الأماكن وباءً، هذا قدر لا بأس به أبدًا من المال!».

ثم التفتُّ إليه وقلت مشيرًا إلى اللوحة خلفي: «أنت ورئيسك تعلمان جيدًا أن المرء يمكنه أن يبيع قوت أولاده في سبيل حفنة من هذا المخدّر الجميل: أن يجد معنًى لذاته في عالم بلا معنى!

لا يمكن أن تبيع للناس شيئًا لو كنتَ تبيع للناس بضاعة الكِميت البائسة، أليس كذلك؟ لن تحدّث الناس عن إنجاب

ذرية أفضل، أو المساهمة في تقدم الجنس البشري أو الحصول على حياة بدون ألم. لن يقنع أحد بهذا الهراء!

أنت تبيع أشياء أخرى، أنت تسرق من تراث أمم التاريخ البائد، رؤًى فوقية ومنظومات أخلاقية ومعنًى للوجود، باختصار: كل ما نهى الكِميت عنه».

ثم اقتربت منه وقلت ضاغطًا على كلماتي: «ماذا برأيك سيحدث لك حين تصل برقية إلى مكان عملك القديم في (أورارا) بحقيقة ما تفعله. والأهم، كيف تفعله؟ إلى أي مدى سيجن أعضاء الرابطة عالية النفوذ حين تعلم أن أسرارها ليست فقط مهددة للانكشاف، بل ويتم استخدام....».

قاطعني بعصبية لأول مرة: «كم تريد؟».

ضحكتُ بهدوء وقلت له: «لا يتعلق كل شيء بالمال، أنت دونًا عن غيرك تعلم هذا جيدًا».

قال وقد بدا خائفًا بالفعل: «ماذا تريد إذن؟».

عدتُ إلى مقعدي مرتاحًا وقلت بعد لحظة صمت طويلة: «أريد الرجل الآخر».

سيرا

اتجهت إلى (سولي) واستغللت أنه كان بعيدًا عن بقية رفاق الزنزانة، كان مغمضًا عينيه في تعب ولكنه متيقظ، ترددت وفكرت أنها كانت فكرة غبية، فعدت أدراجي وهممت بالرحيل. ولكنه صاح: «تعالي، قولي ما عندك».

نظرت إليه فوجدته يبتسم إليّ في طيبة، شجعني ذلك على الحديث معه، عدت وجلست بجانبه وقلت له: «هل أرسلت (كالينا) إلى (ليفاي)؟».

ضحك بتعب، فقلت له: «ما الأمر؟».

قال: «لقد كان من الممكن أن تسألي عن ذلك (كالينا)، ولكنك اخترتِ العجوز الذي يقبع في آخر الزنزانة لذلك».

شعرت بالخجل، فقال هو: «قولي ما تريدين يا بُنيّتي».

قلت ببعض الحذر: «على ظهر السفينة هناك تكلمتَ معي عن حيوان الـ... لا أذكر اسمه».

- «البينولي».

- «آه. نعم. ماذا كنتَ تقصد حينها؟»

ابتسم ونظر إلى (هوسيرل) نظرة ذات معنى، ثم صمت. كنت خائفة من ذلك.

ضحكت هازئة بحزن وقلت: «ليس الأمر كذلك».

- «أتقولين ذلك لأن الأمر ليس كذلك فعلًا، أم لأنك تخافين أن يكون كذلك؟».

- «ولماذا أخاف من هذا؟».

- «ربما لأنك أصبتِ بالكثير من الجروح فصرتِ تخافين من احتمالية أي ألم جديد».

ابتلعتُ رأيي في صمت ولم أعلق. أنت لا تعلم شيئًا أيها العجوز. لا أحد يُعجَب بالجمال الكامن، لا أحد. ولا حتى أنا!

التفت (سولي) لي فجأة وأمسك بيدي وقال بلهجة تقريرية: «كل الجمال مؤقت، الجميلات لسنَ جميلات، فقط سنهنّ جميل، وظروفهن ملائمة! في النهاية كل شيء سوف يتغير مع العمر، وما يريده كل واحد منا حقًّا هو يد حانية تمسك بيده عند نهاية الرحلة».

قبل أن أعلق كان قد جاء (تومان) وكأنه كان يعلم أني أفكر فيه وقال لنا: «لقد وصلت هذه من النافذة الآن».

كانت لفافة مغلفة بأوراق شجر مربوطة، قال لنا (تومان) إنها من (ليفاي) يخبرنا فيها بنجاحه فيما أسندناه إليه. لقد دمّر الآلة البصرية في قبة المعبد بالفعل!

كانت خطة (سولي) أن ينسل أحدهم بين فتحات قضبان القبة التي رآها قبلًا في شبابه وتذكر أنها كانت واسعة الفتحات. الآن وقد تدمرت آلة أضواء الطيف صار بوسعنا أن نستمر في خطتنا للخروج من هنا.

قام (سولي) من مقعده، واتجه إلى بوابة الزنزانة المغلقة ووقف خلف القضبان ثم نادى على الحارس النحيل (إيدن) الذي كان أمدنا بأدوية (كالينا). التفت له الحارس ثم اقترب منه ليعلم ما يريد.

قال له (سولي): «كيف حالك؟ (إيدن) أليس كذلك؟»

هز رأسه أن نعم.

قال له (سولي): «هل تسمح بأن تزجي وقت رجل عجوز مثلي ببعض الحديث؟».

قال (إيدن) وهو يجلس على مقعده أمام الزنزانة مواجهًا (سولي) بين القضبان: «أسمح، فيم تريد الحديث؟».

قال (سولي): «بني، ألا تراودك الشكوك؟».

- «عفوًا، ماذا؟».

أشار (سولي) إلى القبة السماوية والكرة المرمرية وعرش الكاهن وقال: «بشأن كل هذا.. ألا يراودك شك أن ربما كانت الحقيقة أكبر من... أن تكون بكل هذه السهولة؟».

التفت (إيدن) إلى حيث أشار ثم نظر له بريبة ولم يعلق، فتابع (سولي): «صدقني، أنا دونًا عن معظم الناس أعلم ما يمكن أن يحدث لإنسان يؤمن بشيء لا يراه! الآخرون لن يفهموا أبدًا. لن يفهموا ذلك النقاء الذي يشعر به من يقدر أن يرى بروحه ما لا تبلغه عيناه. أن يكون جسدك محاطًا بحدود حسّك وقلبك يجبره على تجاوز كل ذلك إلى حدود جديدة، أن تعيش في دنيا عفنة مع قدرة غير محدودة على الترفع عنها إلى عالم آخر، عالم لا يتحدث بذات لغتنا ولا تسري عليه ذات القواعد، عالم تختار أن تعيش فيه لأنه يفسر لك كل شيء آخر».

بدا (إيدن) يزداد اهتمامه بكلام (سولي) بينما العجوز يتابع: «إنه أمر عظيم، صدقني، أنا أعرف ذلك، ولأنه كذلك فإني أسألك، ألم تراودك يومًا شكوك أن ربما كان كل هذا يبدو سهلًا للغاية أكثر مما يحتمله الأمر». ثم نظر إلى الكرة المرمرية وقال باشمئزاز: «يبدو متضمخًا بالتفاهة».

قال (إيدن) معاندًا: «لا، لم تراودني أية شكوك».

قال (سولي) متجاهلًا كلامه: «أتعلم يا (إيدن)، لقد زرت الكثيرين ممن رفضوا أن يستسلموا لخرافة الكميت فقاموا بصنع خرافة خاصة بهم مثل هذه، هل تعلم ما يجمع جميع هؤلاء؟»

سكت (إيدن) ثم لما انتظر (سولي) جوابه رد بثقل: «ماذا؟».

قال وهو يبتسم بلطف: «جميعهم طلبوا مني صلاتي مع وعد بتسليمها إليه! جميعهم ادعوا أنهم الوجهة الصحيحة، وكل وجهة منهم تذهب في اتجاه. فكرتُ حينها أني لو راهنت على طريقي مع أحدهم فسأخطئ العنوان المقابل حتمًا!».

ثم تابع: «ألم تفكر يا (إيدن) أنك لن تخطئ أبدًا لو لم تأتمن أحدًا منهم على صلواتك؟! أنك لن تضع قرابينك في المكان الخطأ أبدًا لو لم تضعها عند أي من الذين طلبوها منك؟ هل فكرتَ من قبل أن السيد الذي خلقك لا يعجز أن يسمع ابتهالاتك بنفسك، أنه لا يحتاج إلى معبد شاهق كهذا كي يدخل إليه مريديه؟ أنه موجود هناك دائمًا لكل خلائقه، وقتما شاؤوا أينما شاؤوا».

ثم أشار إلى العرش الذهبي: «دون الحاجة إلى مباركة فانٍ آخر أو العمل كوسيط مزعوم».

انتهى (سولي) من كلامه، فنظر (إيدن) إلينا، كنت أنا و(تومان) نراقب الحوار ونحدق فيهم، شعر (إيدن) بالتهديد والحرج، فقال مدافعًا: «لقد انضممت إلى هذا المعبد منذ كنت طفلًا، أتدري ما حملني على ذلك؟ جئت مع أمي للصلاة وكان جاري العجوز قد أتى للتطهير. يضع يده على الكرة فتحكم عليه وينفذ فيه حكمها، إن كان الموت فيرحل من الدنيا في نقاء، وإن كانت الخدمة في المعبد فيخدمه بقية حياته بشرف، وإن كان الخير فيأخذ من خيرات المعبد ما شاء ثم يرحل لداره.

هل تعلم من سيد السماء الذي اختاره له؟ سيد الخصوبة! أنارت الكرة بالضوء الأخضر. لم يفهم الكهان حينها الأمر، ظنوا أنه أمر آخر من السماء بالمباركة، أعطوه بعض المال ورحل لداره. بعد عام كانت زوجته قد وضعت ابنهما الأول! العجوز الذي كان قد بلغ السبعين وعاش حياته عقيمًا يوهب ولدًا الآن بعدما باركه سيد الخصوبة. أتريد أن تقنعني أن كل ذلك كان صدفة؟».

ضحك (سولي) بحزن وقال: «أهذا كل شيء يا (إيدن)؟ أهذا هو الأساس الذي بنيتَ عليه في ذهنك كل ذلك؟ حادثة عجيبة لم تقدر على تفسيرها، فقط! دون أن يساندها أي صوت ينبع من داخلك ويصرخ فيك أن استمر على ما أنت فيه فإني قد اهتديت؟ ماذا حين تعلم الحقيقة إذن؟».

- «أية حقيقة؟».

- «حقيقة أن كل ذلك مجرد خدعة! الكرة المرمرية مصممة كي تكون أسفل أشعة ضوء منفصلة إلى ألوان عدة، جهاز شفاف فوق هذه القبة، دمره أصدقائي صباح اليوم، ولن ترى في معبدك منذ اليوم أية معجزة أخرى!».

- «أنت تكذب».

- «لا أفعل».

صاح وهو يقوم مغضبًا: «أنت تكذب، وأنا مخطئ أني عاملتكم بكل هذا اللطف، أعدكم أنكم لن تروه ثانية».

ثم رحل من أمام الزنزانة في غضب.

قال (تومان) لـ (سولي): «لم يسر الأمر على ما يرام إذن».

رد (سولي): «لماذا تقول ذلك؟ بل سار الأمر جيدًا».

أشار (تومان) إلى الحارس المبتعد وقال: «أيبدو لك ذلك نجاحًا؟».

نظر إليه (سولي) ووضع أصبعه على صدره وقال: «كل المصائر يجب أن تبدأ من هنا، لا يمكنك أن تفعل أي شيء بخصوص هذا. لا تملك إلا دَفعة، في النهاية فهو لن يقدر على أن يمسك بأية حقيقة، الحقيقة هي من ستمسكه».

ثم أعاد النظر إلى الحارس الذي غاب عن البصر الآن وتابع: «إن كان مستحقًّا لها»!

هز (تومان) رأسه مؤيدًا أو مستسلمًا ثم دخل إلى داخل الزنزانة وترك (سولي) في موضعه.

مر نصف النهار حتى أتى الزائر الأول!

المرأة التي أتت تسأل الآلهة إن كانت تتزوج من الخاطب الغريب الذي أتاها من قرية مجاورة، ترتبت كل المراسيم، وجلس الكاهن الأكبر على عرشه، وفتح الكاهن الصغير كوة قبة السماء واقتربت المرأة من الكرة المرمرية بعد أن وضعت قربانها الذهبي في الحوض الصغير أمامها. ثم لمست الكرة، فلم يحدث شيء.

نظر الكهنة إلى الأعلى في تعجب. نظرت المرأة خلفها غير فاهمة لما يحدث، حاولت المرأة من جديد، لا شيء. أغلق الكاهن الكوة ثم أعاد فتحها، لا شيء!

سرت الهمهمات في المعبد وارتفع اللغط، اعتذر لها الكاهن الأكبر وأعاد لها قربانها وأخبرها أن تعود في وقت آخر، قالت المرأة شيئًا عن السادة الذين لا ينامون، فأين ذهبوا؟ فنهرها الكاهن وأمرها بالخروج.

تشاجروا بعد أن أغلقت الكوة مجددًا وبعد أن انفردوا بعيدًا عن أعين العامة في القاعة المغلقة. اختلفت الآراء ثم اتفقت على شيء واحد. هؤلاء الأنجاس الذين يسكنون الزنزانة في المعبد المقدس ويأكلون من طعامهم ويعيشون في خيرهم قد أثاروا غضب سادة السماء عليهم. يجب عليهم أن يموتوا!

علت صيحات الاستحسان، غلبت على صرخات الاستهجان الذين كانوا ينهونهم عن قتل من لم تحل دماؤه بعد. شعرنا بالرعب ووقفنا بعيدًا عن القضبان حيث ارتفعت أصوات خطوات قادم تجاه الزنزانة، ووقفنا متشابكي الأيدي في آخر الزنزانة في وجل وعيوننا مثبتة على البوابة التي سوف يأتي منها الموت عن قريب.

ولكنه لم يكن الموت، كان (إيدن)، وقد اتسعت عيناه في رعب وارتسمت على وجهه أمارات الغضب وقال وهو يفتح لنا الزنزانة: «هيا، أسرعوا بالهرب، إنهم قادمون»!

هارول

كنت في غرفة مكتبي أقرأ بعض كتب (سولي) بعد العودة من العمل حين دخل الخادم مسرعًا وقال: «أسرع يا سيدي، لقد قبضنا عليه». قلت: «من؟!». قال: «أحد السفلة الذين جاؤوا في تلك الليلة السوداء».

قمت وراءه مسرعًا، حتى وصلنا إلى الحديقة. ووجدت الأخوين وقد أمسكا برجل طويل القامة ذي شعر بني. (جيرالد)، ماذا أتى به هنا؟

أشرتُ لهم أن يتركوه، فعلوا ذلك على مضض، وهم يتذكرون الوثاق الذي قُيِّدوا به في تلك الليلة، ولكنهم أيضًا تذكروا أنه كان من منع (كروماز) من قتلهم.

أشرت لـ (جيرالد) بالدخول إلى غرفة المعيشة، ثم للبقية بتركنا والرحيل.

قال (جيرالد) بسرعة فور ما أصبحنا وحدنا: «أحتاج إلى مساعدتك».

قلت ساخرًا: «توقعت تحيةً من نوع ما أولًا».

نظر لي في جمود، ثم قال: «لقد وصلتُ إلى أمر ما، أمر قد يساعدنا على إنهاء هذا الصراع بأكمله، ولكني أحتاج إلى معونتك».

فككتُ أزرار معطفي وجلستُ مرتاحًا على الأريكة وأشرت له بأن يجلس هو الآخر وقلت له: «أي صراع؟ أنا لست في طرف صراع من أي نوع».

قال وهو يشير بأصبعه متهمًا: «هل هذا هو ما تخبره لنفسك كل ليلة أنت و(سولي تراك) كي تستطيعا الخلود إلى النوم؟ هل تخبر نفسك أنك لم تشارك في الدماء التي سفكناها نحن أو في تلك التي سفكها الوكيل؟ وأن هؤلاء الشباب الذين غيبتهم السجون ليس لك ذنب فيما حدث لهم، وليست لديك حيلة لتحريرهم!».

أخذته زفرة غضب ثم قال: «أنتم مشاركون في ذلك مثلنا تمامًا، لقد بدأتم التفكير، والبدء بالتفكير كان بداية انهيار كل شيء!».

قلت لـ (جيرالد) بسرعة: «نحن نبحث عن الحقيقة فحسب!».

قال وهو يجلس أمامي: «وهذا هو ما أتيت لك من أجله!».

- «وضّح أكثر».

- «حين تعدني بالمساعدة».

- «ربما لا أقدر عليها».

- «ربما لا تفعل. ولكن لو لم تقدر عليها أنت، فلا يقدر عليها أحد، بأموالك، ونفوذك وحسن سيرتك، لا أعرف غيرك يمكنه أن يفعل ما أريد».

فكرتُ قليلًا ثم قلت له: «سوف أساعدك بشرط واحد».

قال: «وما هو؟». نظرتُ له في حدة وقال: «أن تعدني بهدم الثكنات.. إلى الأبد».

كالينا

تعثرت، أخذت (سيرا) بيدي، تعثَّرَت هي، أخذ (هوسيرل) بيدها، اصطدم (تومان) بحاجز من القرميد فنزف وتابع الركض وهو يعرج، أما (سولي) فكان أبطأنا ولكني كنت آخذ بيده مساعدة.

فعلنا كل ما يمكن أن يفعله خمسة أشخاص يركضون من جموع غاضبة تطلبهم!

خرجنا من مخرج لم نكن نعلم بوجوده يقودنا إلى قبة السماء أرشدنا إليه (إيدن)، (إيدن) المسكين الذي لا أعلم ما هو مصيره الآن. وما إن وصلنا إلى القبة حتى رأينا الحطام الذي قام به (ليفاي) والعمال معه. نزلنا من القبة من سلم طوارئ خارجي يصل إلى خلف المعبد حيث تابعنا ركضنا حتى وصلنا إلى الشارع الرئيس.

توقفتُ ألتقط أنفاسي، بينما كان (سولي) العجوز على وشك الاحتضار بكل هذا الركض.

قال (تومان) وهو ينظر إلى الشارع المزدحم أمامنا: «لن يفلح ذلك أبدًا. الميناء على الطرف الآخر من الجزيرة، ولو صاح أحدهم بين الناس أننا هاربون من المعبد فسوف يمسك بنا ألف متحمس.

قال (سولي) وهو يجاهد لأي نفس: «هناك طريق مختصر»!

نظرتُ إليه مستفهمة فأشار إلى زقاق على اليمين: «هنا، في آخر هذا الزقاق الضيق طريق يفضي إلى البحر مباشرة، كان هذا هو الطريق الذي أتيت منه في شبابي إلى المعبد أول مرة».

دخلنا إلى الزقاق الذي كان ضيقًا جدًّا لا يسمح إلا بعور واحد في المرة، وانطلقنا في الركض مجددًا، حتى رأينا السفينة بالفعل.

آآه سفينتنا الآمنة الجميلة! لكم اشتقنا إليكِ!

كان أول الواصلين (تومان) و(سيرا) و(هوسيرل). على الفور قفزوا في الماء وتابع (تومان) طريقه سباحة بينما (سيرا) و(هوسيرل) تشبثا في الحبل الذي أمده لهم البحارة على ظهر السفينة.

وصلت أنا بعد ذلك، وانتظرت (سولي) العجوز الراكض بأقصى ما يقدر عليه من خلفنا. ولكن كان جنود المعبد قد وصلوا إلينا بالفعل، من الواضح أنهم كانوا يعرفون طريقًا أكثر اختصارًا عن طريق (سولي).

ولكنهم لم يأتوا في اعتباط، بل في تشكيلة دائرية وكأننا في حرب، مسلحين بالرماح والنبال وقفوا حولنا في نصف دائرة وحاصرونا، وبينما وجه بعضهم سهامه تجاه البحارة على ظهر السفينة البعيدة مهددين!

أُسقِطَ في يدي، نظرت إلى (سولي) مستغيثة ولكنه بدا وقد نفدت حِيَله.

سمعنا دويًّا عاليًا فلم نفهم ولكن رأينا أحد الجنود أمامنا يسقط وسط بركة من الدماء تنزّ من صدره، التفت باقي الجنود إلى خلفهم فأصابتهم قذائف مماثلة، ثم ارتمت زجاجة صغيرة محشورة بقطعة من القماش وسط تجمع للجنود فانفجرت بدويٍّ عالٍ وأطاحت بهم بعيدة.

استمرت الألعاب النارية فترة من الوقت كان جنود المعبد فيها قد استسلموا وانسحبوا راكضين بعدما قُتِل عدد كبير منهم، بينما بدأ يظهر حاملو البوارید من خلف الأشجار وساروا متجهين إلينا. وفي مقدمتهم رجل أشقر الشعر يلبس سروالًا جلديًّا ومعطفًا من الصوف، اقترب منا حيث نقف، وناول بندقيته لأحد جنوده بجانبه، ثم أخرج عويناته ينظفها، وقال وهو ينظر إلى (سولي) مبتسمًا في ود: «لقد مر وقت طويل يا (سولي)»!

سولي

- «حسنًا، هات أفضل ما عندك، لا يهم السعر لو كانت بضاعتك جيدة، هيا أذقني».

صببتُ له كأسًا من النبيذ الأبيض وناولته إياه قائلًا: «هذا أفضل نبيذ في البلاد يا سيدي، لم أستأمن على قارورتي هذه خادمًا ولا حاجبًا، كيف يمكنني مناداتك سيد....؟»

- «لا تهم الأسماء».

- «حسنًا، الأمر أمرك. صدقني سوف تجنّ به، السيد (تيبا-بولت) هو من رشحك لي مباشرة لما ذاق نبيذي وقد أراد أن يشاركك روعة اكتشافه».

ثم ناولته الكأس وانتظرت بأدب فراغه منه.

كنتُ وبصحبتي (ليمان) قد وصلنا إلى قصره بعدما أرشدنا (تيبا) إلى مكانه، كان قصرًا باهظًا ولكنه عمليّ تمامًا على عكس بهو شركتهم الفني الجميل.

لم نجد كبير صعوبة في لقائه لما ذكر له خادمه أننا أتينا من طرف مساعده المخلص، لم يكن يعلم أن مساعده ليس بذاك الإخلاص الذي يظن.

فرغ من كأسه فوضعه على المنضدة أمامه ونظر إلى الأرض في سأم، قلت له: «حسنًا ما رأيك؟». قال: «زُبالة»!

ثم قام من مقعده بصعوبة وهم بالابتعاد عنا بمشيته المتأرجحة العجوز استعدادًا لطردنا من منزله.

- «سيصحبكم الخادم إلى باب الخروج».

- «ولكن سيدي، ماذا لو كان الخادم قد خنقه أحدهم وترك جثته بجوار جثة الحارس في غرفة الخدم الصغيرة بالأسفل، من الذي سيصحبنا للخروج حينها؟!».

التفت إليّ بعين متسعة خائفة وقد بدا عليه عدم الفهم في البداية، ولأول مرة بدا مهتمًّا بأن يرى من نحن فعلًا. نقّل بصره بيني وبين (ليمان) الذي كان صامتًا كعادته يحدّق فيه فحسب ويحمل عني زجاجة النبيذ التي صببتُ منها إليه للتوّ.

قال: «م...»

قاطعته متوقعًا سؤاله في ملل: «من فضلك اجلس، نريد التحدث فقط».

ثم جلستُ على أحد مقاعد الصالون الفاخر، وأشرت إلى (ليمان) ليجلس على آخر. جلس العجوز في النهاية مستسلمًا ولم يرفع بصره عني وقد بدا متوجسًا ولكن على قدر كبير من الهدوء.

كان مسنًّا بالفعل، ولكن على صحة جيدة، يميل إلى البدانة قليلًا، وشعره أبيض بالكامل مع لحية نصف نامية، ويلبس ملابس حريرية داكنة بينما تزدان يداه بالكثير من الحلى مما أعطاه طابعًا منفّرًا.

بدأ هو الكلام بسؤال ذكيّ: «(تيبا-بولت)؟».

- «لا تخف، صديقك على ما يرام، باستثناء أنه قد خانك بالطبع».

قال وقد فهم بذكاء أن الرابط الوحيد الذي يربطه بـ (تيبا-بولت) لا بد أن يكون مرتبطًا بالرابطة: «هل جئتَ من أورارا؟».

قلت صادقًا: «لا، على عكس ما تتوقع، أنا لا أعلم عن الرابطة سوى اسمها».

ثم أضفت بلهجة ذات معنى: «حتى الآن».

قال ببسمة هازئة قليلًا: «هل تطمع أن تعرف عنها مني أنا؟».

- «نعم».

- «ولماذا أفعل ذلك؟».

- «أنت أذكى من أن تسأل هذا السؤال».

جَمُدَ وجهه قليلًا وقال مشيرًا إلى (ليمان): «هل ستقتلني أمام ابنك؟».

وقعت الكلمة في قلبي موقعًا جميلًا، ونظرتُ إلى (ليمان) مبتسمًا وقد بادلني النظرات ثم قلت للعجوز: «ثق بي، لقد رأى ما هو أفظع بكثير».

صمت قليلًا ثم بدأ في الكلام ببطء: «لماذا تريد أن تعرف عن الرابطة؟»

ثم قال هازئًا: «سيحتاج الأمر منك إلى أكثر من نبيذ زائف لتصل إلى أي من أعضاء الرابطة».

ضحكتُ بعصبية ثم قلت: «كنتُ لأقلق بشأن نفسي وفقط لو كنت مكانك».

أخذ نفسًا عميقًا وقال بوضوح وسرعة وحزم وكأنه يريد إنهاء كل هذا بسرعة: «الرابطة هي أربعة عشر رجلًا يحكمون كل ما يتعلق بجمهورية التوك، وفي كل جمهورية أخرى من كل اتحاد دساتير الكِميت».

- «والوكيل؟».

- «دمية»!

قطّبت جبيني قليلًا ثم قلت: «ولماذا لا يكون أحدهم هو وكيل الجمهورية؟ لو كانوا بهذه القوة لن يجدوا صعوبة في إقناع الناخبين».

قال وكأنه يعلم طفلًا: «لو كانت الانتخابات تصنع فارقًا، ما كانوا سمحوا لها بالحدوث».

ثم استطرد: «لا، أعضاء الرابطة لا يظهرون للعامة، يتلاعبون فقط من بعيد، يجب أن يبقوا في الظلال، يجب أن يكونوا أشباحًا، يجب أن يظن الناس أنهم يعيشون في تلك الدولة التي يظنون أنهم يعيشون فيها. حقوق، كرامة، حريات، قانون، كل شيء يجب أن يكون براقًا لامعًا بشكل كافٍ كي يطغى على الحقيقة القذرة».

- «وما هي هذه الحقيقة؟».

التفت قليلًا إلى (ليمان) الذي كان يثير أعصابه بكل هذا التحديق الهادئ وقال: «إنه لا يوجد حقًّا سبب لكل ذلك، لا يوجد سبب للحياة، ولا يوجد مانع من الموت، وكل قوانيننا اعتباطية تمامًا، ليست قوانين حقًّا، وضعناها فقط كي يبقى القدر المغلي على النار أطول فترة ممكنة دون انفجار».

ثم أشار إلى النافذة خلفه وقال: «أقول لك، بداية النهاية للكِميت سيكون من مكان مثل هذا! شريعة الغاب سوف تنتج جميع الأسئلة في النهاية، سرعان ما ستخرج جميع عقائد وأديان الزمن البائد. ما أفعله مع (تيبا-بولت) سيتم من غيرنا، فقط نحن نعلم ما نقوم به».

ثم أردف: «كي يبقى الكِميت يجب أن تبقى الرابطة، وكي يبقوا هم يجب أن يبقى الكِميت، لا نجاة لأحدهما دون الآخر».

تكلم (ليمان) لأول مرة منذ وصلنا هنا قائلًا: «أعد ما قلتَه من فضلك»!

استخفّ به وقال: «هذا كلام كثير، يمكنك أن تسمعه من أبيك لاحقًا».

تحرك (ليمان) في عدائية قليلًا، ثم قال: «فقط آخر جزء من كلامك».

نظر لي العجوز وبدا غير مستوعب، ثم قال: «كنت أقول لا غنى لأحدهما عن الآخر».

قال (ليمان): «تقصد أن الكِميت بالنسبة إليهم مجرد وسيلة للبقاء؟».

- «لا يوجد ما يتهدد أي سلطة أكثر من رؤية أكثر سلطوية! لا يمكنهم أن يطمئنوا بإحكام الأمور طالما الناس تسير في الشوارع مؤمنة أن لهم وجودًا حقيقيًّا مستقلًّا له معنى، أن لهم هدفًا لا يعتمد على كفاءتهم في العمل أو تقييمهم

الشهري من مجلس مدينتهم. الإنسان متمرد بطبيعة الحال، وأسهل الطرق لقتل تمرده ألا يعود إنسانًا مجددًا».

قلتُ أنا: «هذا مثير للاشمئزاز».

- «ولكنه ناجح إلى أقصى حد، لم تعد الشعوب تثور إلا من أجل حياة أفضل، يمكن لأعضاء الرابطة أن يضمنوا ذلك دومًا. سياسي فاسد؟ بوم! سوف نقتله بزناد بارودة إن احتاج الأمر، سرعان ما سيدرك الناس أن كل أحلامهم أوامر!

الناس في غاية البساطة! سوف ينسون موت عزيز لديهم بشكل أسرع مما سينسون به فقدان شيء من ممتلكاتهم. إنهم يخضعون دومًا للظرف الراهن، ويتطبّعون بالمألوف، ويُسلّمون للمتداول..

إنهم في خوف دائم وفي حالة حرب مستمرة! إما بالصراع وإما بالاستعداد له. ولكنهم يرغبون في السلام والأمن، لذا يخضعون لمن يلوّح بهما، لصاحب السيادة المطلقة، يتركون له مهمة سن القوانين وتحديد أفكار الجمهورية كما يشاء، ويستمر خضوعهم له طالما استمرت سلطته المطلقة التي تحميهم من... أنفسهم!

مع الوقت سوف تموت ببطء جميع الأفكار التي تحتاج إلى الظلام كي تزدهر. هل يمكنك أن تتخيل مدى روعة الحكم دون أفكار؟».

قال (ليمان) وهو يناوله كأسًا أخرى من النبيذ لا أعلم متى صَبّه، وقد أصر على نقطة معينة في الحديث: «إذن الكِميت هو مجرد... خدعة؟».

تناول العجوز الكأس، وشربه في توجس، ثم قال: «أتصورتَ أننا فتشنا كل ركن من هذا العالم فلم نجد فيه غيرنا؟ أم تظن أنا عدنا بالزمن للوراء فجزمنا أننا كنا هنا منذ الأزل؟ لا يمكنك أن تتهم رجلًا يتكلم عمّا لا يعلمه أنه كان يخدعك. من الجليّ أنه لم يكن يعلم، وتصديقك له هو مشكلتك أنت!».

كان وجه (ليمان) هادئًا دائمًا لمن لا يعلمه، ولكني قد اعتدت في آخر عامين كيف أميّز لمحات الغضب الهائج بداخله على هذا السطح الهادئ. لا يمكنني أن ألومه، لقد مات أبوه من أجل لا شيء!

قلتُ: «من أعضاء الرابطة؟».

ابتسم في عصبية وقال: «لا أحد يعيش إلى الأبد، لا بد أن نصف من أعرف قد مات أو تقاعد الآن».

- «كيف يحصلون على مناصبهم إذن؟».

- «هل سمعتَ من قبل مقولة (المال سهل المنال، ولكن القوة قوة)»؟

- «نعم».

- «حسنًا، عليكَ أن تنساها إذن، المال هو القوة، والقوة هي المال».

قلت: «ولكن المال ينتقل بين الناس دائمًا»!

ابتسم وقال في غموض:» كما قلت لك، لا أحد يعيش إلى الأبد».

نظرت حولي مفكرًا وقلت بعد أن فهمت: «أنتَ لم تفر كي تصبح أكثر ثراءً، أنت فررتَ بحياتك من أحدهم».

لم يعلق، أكملتُ أنا: «لماذا يريدون قتلك بعد التقاعد؟ ما كانت مهمتك في الرابطة؟».

بدا مترددًا. قلت: «بالنسبة إلى رجل يهتم ببقائه على قيد الحياة إلى هذا الحد، أرى أن ترد على كل سؤال صغير عندي».

لم أكن أهدده بشكل حقيقي، كنت أصطنع الخطر تمامًا، بينما يرقد بالأسفل خادمه والحارس مقيدين وفي صحة جيدة في الحقيقة.

قال العجوز: «كنتُ مسؤولًا عن الكونوراد»!

- «ما هو هذا الكونوراد؟».

لم يجب، التفتّ إليه بحدة وقلت: «اسمع، ليس لدينا اليوم ك...» وقطعت جملتي فور وجدت وجهه، كان يتقلص بألم ويمسك بصدره ويحاول أن يتكلم فلا يقدر! ازرقّت شفاهه وأطرافه وجحظت عيناه.

كان يشير إلى الكأس الأخيرة التي شرب فيها نبيذه، وقال وهو يتكلم بصعوبة: «هذا... لم يكن مجرد نبيذ، أليس كذلك؟».

عم يتحدث الأحمق؟

- «لا، لم يكن».

كانت هذه من (ليمان) الذي أخرج من جيبه قنّينة فارغة ووضعها أمام العجوز في حركة ذات معنى. بينما كان العجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة ناظرًا إليه في رعب.

التفت إليّ (ليمان) وأنا لا أكاد أصدق، ولما رأى نظرتي المذهولة، قال: «لقد كان يومنا ناجحًا! أظن أن علينا الرحيل الآن».

تومان

على ظهر السفينة انتشرنا جميعًا على سطحها. كانت أول صدمة لنا لما تعرفنا على جثة (ليفاي) مع بعض البحارة الآخرين مُكوّمين على ظهر السفينة!

من رائحة الجثث قدّرتُ أنهم قُتِلوا منذ فترة، هذا يعني أنه لم يكن (ليفاي) هو الذي أرسل إلينا الرسالة في الزنزانة صباح اليوم. لم يكن هو من دمر آلة معبد القوس البصرية. لقد كان جنود (كروماز) هم من فعلوا!

اقتاد الجنود البحارة المساكين إلى الخلف حيث أبقوهم ساكنين، بينما كنا نحن الخمسة نواجه (كروماز) الذي ما إن استقر على ظهر السفينة حتى أمر رجلًا غريبًا لا أعرفه بالإبحار شمالًا، وفهمتُ أن هذا قبطان جديد أتى مع (كروماز)، ونظرتُ حولي لأجد كما توقعت سفينة أصغر راسية بجانبنا، لا بد أن (كروماز) قد جاء على متن هذه ثم هجرها.

ظللنا صامتين على هذا الوضع فترة، نجلس بحانب بعضنا متعبين تحت تهديد الجنود المسلحين، بينما تتجه السفينة إلى الشمال في إصرار وكأن (كروماز) يريد أن يصل إلى الحافة هو الآخر.

عاد إلينا (كروماز) بعدما وصلنا إلى المياه المفتوحة، ثم ما إن وقعت عينه عليّ حتى حياني مبالغًا وصافحني، ثم التفت إلى (سولي) وقال: «هذا هو العالم؟».

ثم عاد والتفت إليّ وقال: «أظن أن الكثير من الحديث الماتع فاتني قد جمعك بهذا الرجل الـ...» وهمس لي بحروف كلمة مجنون وهو يشير إلى رأسه بعلامة ذات معنى.

ثم عاد يواجه الجميع يعدنا وقال: «أظن أن الطبيب لم ينجُ من معبد الألوان».

وأشار إلى (سيرا) وقال مبتسمًا: «فتاة العلم الشابة»، ثم أخذ يدها وقبلها. ثم اتجه إلى (كالينا) وقال: «جارية (نوبير)»! وأشار بيده إليها محييًا. ثم التفت إلى (هوسيرل) وقال: «رجل عشوائي لا أعلم عنه شيئًا»! وحيّاه بشكل عابر.

ثم التفت إليّ وقال: «الرجل الكِميتي المادي القميء! لقد تعرفنا منذ قليل». وأشار إلى (سولي) وقال: «العجوز المؤمن الطيب». ثم أشار إلى نفسه وقال معرفًا نفسه: «كروماز» وانحنى بشكل مسرحي يحيينا. ثم قال مشيرًا بيده بعلامة دمج: «هيا، لنتفاعل ونتحاور ونتجاذب أطراف الحديث كما يحدث على مسرح (هنا)، لطالما رغبت أن أشارك في واحدة».

صمتنا جميعًا وتبادلنا النظرات في قلق، بينما قال (كروماز): «أمهرنا في الكلام هو من يفوز، أليس كذلك؟». ونظر إلى (سولي) وقال ساخرًا: «أظن أن هذا سوف يكون أنت طبعًا. لا أحد يغلب (سولي تراك) في كلامه أبدًا».

ثم وضع يده خلف ظهره وقال وهو يتجول بيننا: «يدور النقاش بين أطراف الصراع الدائر حول... حول ماذا؟».

قال (سولي) بتعب يائس: «(كروماز)، أرجوك أن تعاقبني وحدي، ليس لأحدهم ذنب، يكفي ما مروا به بسببي».

التفت له (كروماز) وأشار له شاكرًا وقال: «نعم، حول الذنب، يدور النقاش حول الذنب الإنساني. ما رأيكم؟ هل يوجد شيء كهذا؟».

التفت إلى (سيرا) وقال مملسًا على شعرها: «فلنبدأ بفتاة العلم اللطيفة، ما رأيك، هل يملك العلم شيئًا ليقوله حول ذنب الإنسان؟».

قلت بانفعال: «ابتعد عنها».

تحفظ بعض الجنود الذين كانوا وضعوا بواريدهم جانبًا وأمسكوا بالسيوف والخناجر، قال (كروماز) بهدوء دون أن يلتفت إليّ: «لا يُنصَح بأي نوع من أنواع الانفعالات اليوم يا سيد (تومان)».

ثم ترك (سيرا) واتجه إلى (كالينا) قائلًا: «ماذا عنكِ يا سيدتي؟ هل لديكِ ما يمكن أن تقوليه فيما يخص ذنب الإنسان؟».

تحرك (سولي) تجاه (كروماز) قائلًا: «توقف عن تعذيبهم بالقل...» قاطعه أحد جنود (كروماز) بلطمة عنيفة على وجهه أطارت واحدة من أسنانه مع الكثير من الدماء. سقط (سولي) على الأرض، انحنى عليه (كروماز) وعاونه على القيام وقال له: «هل أنت بخير؟».

هز (سولي) رأسه أن نعم، فقام (كروماز) معتدلًا، ثم سار بهدوء إلى الجندي الذي لطم (سولي) ونظر له قليلًا حتى

ارتبك الجندي، ومن دون أن نفهم ما حدث كان (كروماز) قد استل خنجره وذبح الجندي الذي لم يجد وقتًا للدفاع عن نفسه، سقط أمامنا يتلوى ودماؤه تغسل سطح السفينة حتى نفدت منه الحياة.

سولي

بعد أن ابتعدنا عن القصر بمسافة كافية، توقفت لاهثًا وواجهت (ليمان) ليفهم أن قد جاء وقت الحساب. أو لعله وقت الفهم.

- «أنت قاتل، أتدرك ذلك؟».

هز رأسه بالموافقة وهز كتفيه بلا مبالاة، ثم قال: «ألا ترى أنه يستحق الموت؟».

قلتُ وقد انتفخت أوردتي غضبًا: «ومن الذي لديه الحق في الحكم بذلك؟ ومن يحكم لي أني أنا لا أستحق الموت؟ أو أنت. أو ذلك الرجل هناك! من الذي لا يسرق ولا يخون ولا يكذب ولا يظلم أحدًا؟».

نظر إلى حيث أشير وقال في شرود: «معك حق. ربما نحن جميعًا نستحق الموت!».

ثم استطرد قائلًا: «وهذا ما تقوم به الحياة بالفعل. أتعلم، لربما لا ينال البشر الخلود لأننا جميعًا مذنبون بشكل كافٍ. ربما لا تقوم الحياة بذلك ونحن نموت لأن أجسادنا تخرب فحسب. ربما لا يوجد أحد مذنب فعلًا لأنه لا يوجد ذنب. ربما لا يوجد خطأ ولا صواب. هناك ألف ربما. أرأيتَ يا (سولي)؟ قلت لك إن كل العقائد خاطئة».

- «اعتقد ما تشاء ولكن لا تظلم أحدًا».

- «هل القتل ظلم؟ لربما عليك أن تجد الحياة ظالمة إذن. لربما صاحب العالم المزعوم الذي تبحث عنه هو ظالم أيضًا. أتجد فعلًا كبير فرق بين قتلي لذلك العجوز هناك، وبين زوجتك العليلة التي فارقت الحياة مبكرًا؟ ثمة شيء غير مكتمل، أحقًّا لا يمكنك أن ترى ذلك؟ ثمة شيء غبيّ بشأنك رغم كل حكمتك. أنت تشمئز من الدماء، وتقدس من يسفكها كل يوم»!

بدأ يفكر قليلًا ثم قال: « كل شيء عادل. الأمور تحدث فحسب. لا خير، لا شر، لا قسوة ولا رأفة، لا يوجد إلا الحظ!».

قلت باشمئزاز وأنا أبتعد خطوة للوراء: «أي حياة قميئة تلك التي تتحدث عنها؟!».

- «الحياة الموجودة لدينا!».

- «لو كان هذا صحيحًا لكان على كل عاقل منا أن يقتل نفسه الآن».

أعطاني ظهره وقال: «أقتل نفسي وينتهي كل شيء ببساطة؟ لم لا؟ تبدو خطة جيدة في رأيي. لكني لا أشعر بذلك بعد. لا أدري لربما أنا أحب البقاء على الحياة فحسب».

ثم التفت إليّ وقال: «أوتعلم؟ ربما علينا أن نُري لهؤلاء الحمقى غباء اللعبة التي تسجنهم. لو رأوا العبث سيشاركوننا اللهو. سوف يكون من اليسير حينها أن ندفعهم ببساطة من الحافة ونشاهدهم وهم يسقطون. حينها سيبدأ المرح حقًّا. وحين ينتهي كل شيء، قل لي من الذي سيفتقد البشر؟».

لم أجبه. كيف أجيب الجنون ذاته؟!

قلتُ له محاولًا إيقاظه: «أنت.. أنت لا تفهم. أنت لا تستوعب ما فعلتَه للتوّ! لقد دمرتَ روحك إلى الأبد، لن تعود أبدًا كما كنتَ! أنتَ لستَ كالآخرين. أنتَ لستَ كِميتيًّا كي يمكنك أن تعيش بسلام مع أخذ حياة إنسان بلا حق! سوف يمزقك هذا إلى الأبد».

نظر لي ولم يعلق ولم يهتز! بدأت أشعر بالخوف. شيء ما ليس على ما يرام في (ليمان). شيء ربما كان موجودًا فيه منذ أن رأيته واخترتُ أن أتجاهله.

قال (ليمان): «لا تفهمني بشكل خاطئ. أنا لا أحتقر البشر! أنا أحب كل شيء بخصوصهم». ثم قال مشيرًا إلى رأسه: «قدرة هذا الشيء على صنع عوالم جديدة كاملة لكل منا تجعلني لا أحترم شيئًا في الحياة مثله. ربما كان هذا الشيء هو المشكلة! ربما لا يسمح لنا بأن نظن أننا مجرد شيء تافه لا يبالي به أحد. يصنع لنا قدرًا لا نستحقه، يجعل لكل واحد منا نسخة من عالمنا وكأنه عالمه.

تقول لي إن روحي قد تمزقت. لا بأس، أنا أشعر بذلك بالفعل، أشعر أني على ما يرام لا أنكر ذلك، أعدك أني سأحرص على تذكر ذلك دائمًا، كان هناك ذلك الرجل في القصة التي كنت أقرؤها الشهر الماضي، لقد غيّر اسمه على اسم ضحيته كي يتذكر دائمًا يوم تقسّمت روحه بذلك العبء الكبير. حسنًا أنا سوف أفعل ذلك.. ما كان اسم ذلك العجوز؟ (كروماز) أليس كذلك؟»

ثم قال: «سيكون اسمي من اليوم (كروماز)، تكريمًا لضحيتي الأولى!».

قلتُ: «الأولى؟ هل تعني أنك تنوي المزيد من القتل؟».

- «بالطبع».

نظرتُ إلى الأرض في حزن، وقلت: «إذن هو الوداع بيننا».

لم يرد.

تراجعت ببطء إلى الخلف ثم التفتُّ وأعطيته ظهري وأخذت أتحرك مبتعدًا بينما تنهمر دموعي بعنف.

من خلفي سمعته يقول بهدوء وقد بدأ يحاول إقناعي بألا أتخلى عنه: «ألا تريد أن تعرف قصة الجزيرة المعزولة؟ القصة الحقيقية كما حدثت فعلًا؟».

عدت إليه وجففت دمعي ونظرت إليه في دهشة قائلًا: «ماذا تقصد؟».

قال: «لقد زرت هذه المدينة من قبل! في الحقيقة لم أزرها تمامًا ولكني ولدت هنا في (سيرانتي)، لا أعلم من كانت أمي، ولكني كنت بضاعة في متجر (الأمل). وحين تشكل وعيي كنت في بيت من اشتراني بالفعل، أبوان اشتاقا إلى طفل يلاعبانه مقابل قدر من المال حصل عليه المتجر بعد أن اشتراني من أمي ببضعة روكيات.

أخبرتك أنه ليس لي والدة، أتراني كنت مخطئًا في ذلك؟ أية أم تلك التي تبيع طفلها الذي لم تحبه قط؟!

أبي الذي اشتراني كان سكيرًا يعتدي على زوجته بالضرب طوال اليوم حين تلعب الخمر برأسه. وفي يوم كان الضرب أكبر من المعتاد، ماتت زوجته بين يديه والتفت إليّ حيث كنت طفلًا ذا خمسة أعوام ولكنه كبير بما يكفي للشهادة.

أخذني إلى غرفة مظلمة، وتركني فيها ويفتح لي الباب كل يوم ليمرر لي كسرات من الطعام. في البداية بكيت، طالبته بالشفقة، ثم فهمت الأمر، لم يكن هناك أحد يسمعني، لم يكن أحد يؤمن بالشفقة. لماذا عليّ أنا أن أفعل؟ لماذا أنتظر شيئًا لم يوجد في هذا العالم.

قررت أن أخلق عالمي الخاص، جزيرتي الخاصة، في تلك الجزيرة كنت وحدي، لم يكن معي من بشر، كان أبي معي، أب آخر غير أبي الذي ضاجع أمي ثم تركها، وغير الآخر الذي أغلق عليّ الغرفة المظلمة.

لم تكن سفينةٌ تلك التي جاءت إلى جزيرتي بل كان رجال الضبط الذين أخبرهم الجيران برائحة تعفن جثة أبي المتكومة في غرفة نومه بعدما قضت عليه الخمر. لم تكن إصلاحية للفنون ولكن كانت إصلاحية رجال التهيئة تلك التي أخذوا أبي إليها، لم تكن مدرسة ولكن مشفًى للعُصَاب ذلك الذي أخذوني إليه، ذلك الذي هربتُ منه».

شعرت برجفة تغزو جسدي، بينما سكت هو قليلًا ثم قال: «أنت أبي الوحيد، لا أعرف أبًا لي غيرك، إن تركتني الآن فأنا ليس لدي أحد».

أخذته واحتضنتُه برغمي ودموعي تنهمر، ثم أرسلته وقلت وأنا أنظر إليه وكأني أنظر إلى غريب عني لا أعرفه: «أتعدني أن تطهّر يديك من الدماء؟».

نظر لي متحديًا ثم هز رأسه نافيًا ببطء!

ارتعشت يدي وأنا أرفعها عنه، ثم جلست على الأرض وقد أسقط في يدي وأنا أحاول تحاشي النظر إليه، وبعد فترة قلت له: «يمكنني أن أعيش مع (ليمان)، لا يمكنني العيش مع (كروماز)».

قال وقد تغيرت علامات وجهه باشمئزاز وأَنَفة: «أنت ضعيف! مثير للشفقة! لا يمكنك أن تقوم بما يجب أن تقوم به لنصرة الخير الذي يسكن صدرك. سوف تبقى دائمًا شاة. تظن أنك مقدس؟ كل الشياه المقدسة سوف تُذبَح في النهاية».

اتسعت عيني في دهشة، ثم أدركتُ الحقيقة، أنا لم أعرف (ليمان) يومًا. لقد كنت أخادع نفسي في رحلة بحثي عن (ناجيلي) أخرى.

قلت من بين دموعي بصوت متحشرج: «سامحني يا بني! لقد كان اختيارك!». وقمت من على الأرض ومن دون أن أنظر له أعطيته ظهري ومضيتُ بسرعة. لم يكن أبدًا (ناجيلي)، أنا وحيد!

ومن خلفي سمعته يقول بهدوء وكأني ما زلت بجانبه: «ستكون أنت يا (سولي) ضحيتي الأخيرة»!

حاولتُ أن أكتم صرختي قدر الاستطاعة وأنا أرى دماء الجندي الذي ذبحه (كروماز) تصل إلى أقدامي، بينما (سيرا) كانت قد أطلقت العنان لصراخها المتواصل. وضع (كروماز) يده يغطي أذنيه وضم شفتيه ممتعضًا من صوت صراخ (سيرا) ثم مسح خنجره في قميص الجندي الميت وأعاد الخنجر إلى غمده.

نظرت إلى بقية الجنود فلم يبد على أي منهم علامة تمرد واحدة، بينما كان (سولي) يبكي على الأرض وقد شعر أن هذه دماء جديدة في رقبته.

كانت السماء بدأت تصطبغ بألوانها الشفقية المميزة، والبرد ينخر في عظامنا جميعًا رغم الصيف، لقد اقتربنا من الحافة لا شك في ذلك.

عاد (كروماز) إليّ، ثم قال: «حسنًا، أين كنا؟».

شعرتُ برجفة خوف ولم أتكلم، خيّم على الجميع الصمت كذلك وقد شعرنا جميعًا بالرعب من هذا المجنون، لم يكن أحد يستطيع أن يعترض عليه إلا (سولي) العجوز والذي قال غاضبًا من خلفه وهو يغالب دموعه: «كم إنسانًا سوف تقتل؟ كم ضحية ستسقط كي تصل إلى مبتغاك؟ ماذا تريد يا (كروماز)؟ ماذا تريد؟».

التفت له (كروماز) ولأول مرة أراه منفعلًا إذ يقول: «أريدك أن تفهم الحقيقة التي تتشبث برفضها، أريدك أن ترى العالم على ما هو عليه. نحن نعيش في خواء، ألا تفهم؟ نحن نعيش بلا جدوى».

قال (سولي) مغمضًا عينيه في ألم: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لو لم يكن هناك شيء بالأعلى لما وُجِدَ أي إنسان داخل أي جسد بشريٍّ فينا!».

انحنى (كروماز) أمامه يواجهه وقال وقد هدأ قليلًا: «الإنسان ووجوده. نعم، كان ليكون موضوعًا أجمل للنقاش من قبل. فيما يخص ذلك؛ فأنا وأنت لا نختلف في شيء، كل منا قد لاحظ أن الإنسان في هذا العالم.. مُعطّل، لا يمكن تحقيقه، لا يمكن إيجاده حقًّا. كل منا قد شعر بالضجر من هذا، كل منا اعترض على ذلك بطريقته الخاصة».

ثم أخرج خنجره مجددًا، وناوله إياه وأصر على أن يمسك به (سولي)، وقال: «القتل هو طريقتي للاعتراض على عدم جدوى هذه الحياة. أنا أعطي معنى للحياة بكل ضحية أسلبها منها! أنا أكرّم كل من أقتله، بأن أضع له سببًا لموته. لا يوجد سبب للحياة إن لم يكن هناك سبب للموت!

أما أنت.. أنت تؤله ما يسحقك، وتحاول أن تفتش عن الأمل في مرابض الفناء. لا يوجد أمل. لا يوجد من يبالي بك يا (سولي) هناك بالأعلى».

ثم نظر له في احتقار وقال: «أنت تعبد وجودك أنت في تلك النظرة الساهمة إلى السماء، أنت يا (سولي) مجرد مغرور يأبى أن يعترف أنه بلا طائل، أنه بلا هدف، وقررت أن تصبغ ما في داخل عقلك الجميل على العالم أجمع! ها أنت ذا، وبعد سنين طويلة، أخبرني، هل وصلتَ يومًا إلى يقينك الذي كنت تبحث عنه؟ هل تأكدتَ من شيء واحد فقط من كل تلك الأشياء التي تؤمن بها؟ أخبرني يا سولي، هل تكلمتَ يومًا مع صاحبك؟».

ثم قام وقال بانفعال وهو يبتعد عنه: «إذا تكلمتَ معه فأرجو أن تخبره أن (كروماز) يبحث عنه هو الآخر». ثم ركل جثة الجندي وقال: «أخبره أنه افتقد صمتك في كل مرة استعمل فيها خنجره ضد إنسان لا يستحق، أخبره أنه شعر بخيبة الأمل فيه حين لاحظ أنه شريكه في كل جريمة قام بها بصمته عليها». ثم قال وهو يشير إلى عقله: «أخبره أني قد قبلت هديته المزعومة، وأني قد شكلت بها معنى الحياة الخاص بي فوجدت أن هذا المعنى لا يكتمل إلا بغيابه!». ثم قال وهو يشير إلى السماء وقد وصل في الانفعال مبلغه: «أخبره أنه في كل يوم، في كل ليلة، في كل صباح يستيقظ من نومه ليسأل إن كان ثمة خطة قد أعدها لهذا العالم قبل إيجاده أم أنه يفعل الأشياء فحسب».

ثم التفت فجأة إلى (تومان) وقال بعد أن هدأ قليلًا: «ماذا عن هذا؟ هل يبالي صاحبك بذلك الرجل؟ ذلك الرجل الذي يفتخر أنه لا يختلف عن أكياس القمامة». ثم ضحك باستهزاء وقال: «ثم يعاتبني أني أعامله مثلما أعامل أكياس القمامة».

ثم أشار إلى جنديين من جنوده، فأمسكا بتومان والذي ظل يقاوم ويحاول التملص منهما، حتى وصلا به إلى سور السفينة فكبّلاه ومعظم جذعه خارج السور، ووقف (كروماز) أمام (تومان) ملاصقًا وقال وهو ينحني لينظر إلى عينيه:

«هل تعلم يا سيدي ماذا نفعل بأكياس القمامة؟ نرميها في المحيط!»، ثم دفعه في المياه!

صرخت (سيرا)، وصرخ (سولي) غاضبًا، وانهرتُ أنا على الأرض باكية، بينما حاول (هوسيرل) أن يتحرك لإنقاذه فمنعه جنود (كروماز) من الاقتراب.

ومن بين دموعي رأيت (كروماز) واقفًا يراقب الموج وهو يغيّب (تومان) وقال: «لا، لم يسترعِ هذا أيضًا انتباه صاحبك يا (سولي)».

ثم اقترب من (سيرا)، وقال: «ربما لو هذه الشابة الجميـ...»

قفز (سولي) عليه، هم أحد الحراس أن يمنعه ولكن خاف أن يمسه بسوء فيصيبه ما أصاب زميله، وصل (سولي) إلى (كروماز) وأدخل خنجره في بطنه عميقًا، فقام أحد الجنود بطعن (سولي) من ظهره، بينما استغل (هوسيرل) ما حدث واستولى على سلاح الجندي الذي كان قد قتله (كروماز)، وفي وسط الفوضى انقضّ البحارة على بقية الجند، مات منهم اثنان وجُرِحَ معظمهم ولكنهم في النهاية قتلوهم جميعًا إلا اثنين استسلما قبل فوات الأوان فقيدوهما في أحد صواري السفينة.

لما انتهى كل شيء كنتُ أصبتُ بدوار من كثرة الدماء التي لطخت كل شيء أمامي، بينما كانت (سيرا) لا يتوقف بكاؤها على (تومان) الذي اختفى تمامًا وسط أمواج البحر.

أمرت القبطان الجديد الذي كان يرتجف أن يبحر في اتجاه الموج بحثًا عن (تومان). وخفت كل شيء إلا من صوت تنفس (كروماز) الثقيل، بينما (سولي) يحتضنه في غرابة ويبكي بنشيج يقطّع نياط القلوب.

اقتربت منهما، فكان (سولي) يقول لـ (كروماز) من بين دموعه: «(ليمان)، سامحني!». بينما يقول (كروماز) بصوت متقطع بين أنين ألم وضحكات ساخرة: «أنت واحد منا الآن.. لم تعد بالنقاء الذي كنتَ عليه. هل تذكر يا (سولي) ما قلتَه لي في آخر يوم تقابلنا فيه؟ قلتَ إن روحي قد تمزقت إلى الأبد.. هل تفهم الآن؟ لقد مزقتُ روحك أنت أيضًا. كما قلت لك يومها. أخبرتك.. أخبرتك أنك ستكون ضحيتي الأخيرة. أخبرتك يا أبي»!

أغلق (سولي) عينيه في ألم بينما يرتفع نحيب بكائه، بينما ضحك (كروماز) ثم قطع ضحكته في تأوهات ألم، وقال بصوت متقطع بطيء: «لا تقلق سوف تتغلب على الألم بداخلك يومًا ما... أنت الآن أقوى... هيا اذهب واصنع العالم كما تحب له أن يكون... ربما عليك الآن أن تتسمى بـ (ليمان) بقية حياتك...» ثم غلبه الألم فصمت، وشهق مرة أو مرتين ثم أغمض عينيه.

وارتفع صوت نشيج (سولي) وهو يحتضنه والدماء تنزف من ظهره هو بغزارة.

جيرالد

دخل (هارول) إلى البناء المظلم وسط حراسة رجالي، وتخطى عتبة الباب في تقزز محاذرًا أن يتلطخ بالدماء، نظر لي نظرة لائمة لما رأى الجثث المكومة على الجانبين فتحاشيت نظراته المؤلمة. كانت الطريقة الوحيدة لإنهاء كل هذا، لإنهاء كل الدماء!

شهق حين رأى اتساع المبنى من الداخل، كان بحجم عدة مصانع مجتمعة، خارج مدينة (أورارا) على طريق الريف القديم حيث لم يعد يذهب هناك أحد، بدا ذلك البناء الشاهق غريبًا عن المكان، ولولا مغامرتي القصيرة مع (نوبير) بصحبة (كروماز) ما كنت وصلت إليه أبدًا.

قلت مشيرًا بيدي إلى المكان معطيًا له ظهري بعلامات سأم على وجهي: «مرحبًا بك في الكونوراد!».

قلب نظره في المكان أكثر، وألقى نظرة على الأوراق التي كان يصادرها رجالي ويجمعونها بأمر مني في عربات محملة بالخارج، منذ يومين وهم يجمعون كل ما يجدونه هنا.

نظر لي (هارول) مستفهمًا أكثر، فقلت: «أحد أنشطة الرابطة، ذلك الذي أجابني عن كثير من الأسئلة التي كانت مختبئة في صدري».

ثم نظرت له وقلت: «أنت تعلم، نحن جميعًا متشابهون في النهاية! البشر ليسوا بذلك التفرد الذي يحسبونه في أنفسهم. لقد صنعنا من لحم واحد، لا يوجد شيء تفكر فيه لم يسبقك إليه أحد، لا يوجد ما يمكنك أن تبدع فيه فعلًا، إنما تتعلم فقط كيف تخفي جيدًا مصادرك.

لذلك كان غريبًا عليّ أن أجد نفسي وحيدًا في ذلك الشعور الجارف الذي صاحبني معظم حياتي، الظمأ المشتعل والذي لا تعلم أين مكان الماء الذي يرويه. كنت أقول لنفسي، لماذا أنا فقط؟ لماذا لا يفتقد الناس في كِميتيتهم شيئًا؟! لماذا لا يعانون مثلما أعاني؟ لماذا لا يشعرون بالعطش؟!».

ثم بدأت أتجول في المكان وأشير إلى محارق الورق وآلات الطباعة والمكاتب المغلقة التي أخليناها منذ يومين من عامليها، وقلت: «حتى وجدت هذا المكان».

قال (هارول) وهو يسير خلفي: «ما هذا المكان؟».

- «معمل صناعة واقع جديد».

- «ماذا تقصد؟».

قلت وأنا أتوقف وأعود للنظر إليه: «تخيل أنك في عالم لا يوجد له.. غرض حقيقي. لا يوجد فيه امتياز للإنسان عن المقعد الذي يجلس عليه. لا يوجد اتجاه لحركة التاريخ يسري فيه. سفينة تبحر في بحر مظلم دون أمل في الوصول إلى أي وطن. لا يوجد فيه صالحون لأنه لا معنى نعرفه للصلاح، لا يوجد فيه مذنبون لأنه مهما فعل الإنسان فهو لم يقترف الذنب فعلًا!

تخيل أنك في عالم قرر البشر فيه أن يتحولوا إلى حيوانات ضارية، لا، بل إلى وضع هو أشد سوءًا من أية حيوانات. فالحيوان يتحرك بالغريزة فيرحم ابنه أو يؤثر جاره كي تبقى قبيلته صامدة أمام الأعداء. أما إنسان الكِميت فقد احتال بعقله على الغريزة، وسرعان ما أدرك أنه ليس مضطرًا أن يفعل أيًّا من ذلك، ولا يحتاج حقًّا إلى القبيلة.

تخيل أنك في عالم من الأحجار دبت فيها الحركة لتسير وتتكلم وتتزاوج، ولكنها في الحقيقة ليست أحجارًا فعلًا، هم بشر، يحملون ما يحمله البشر».

ثم أشرت إلى رأسه وإلى قلبه، وقلت: «يحملون هذا وذاك، وينظرون إلى النجوم تلك النظرة الخالدة التي أفسدت عليه كل شيء، يصرخون بداخل أنفسهم أنهم يتجاوزون كل ذلك حقًّا، يتعالون من الداخل على كل شيء غيرهم لأنهم يعلمون أنهم احتووه وعالجوه وأطلقوا عليه حكمهم الخاص. ثم استفاقوا على عالم يعاملهم كالحجارة، ويعاقبهم إن تصرفوا على أي أساس آخر.

قل لي يا سيد (هارول)، هل سيبدو عالمًا كهذا بكل السكون الذي هو عليه؟».

أجاب وقد بدا أدرك لتوه أمرًا بدهيًّا كان قد نسيه: «بالطبع لا».

قلت: «حسنًا، الكونوراد يضمن ألا يعلم العامة أنه: (بالطبع لا)! يتولون الأخبار التي يجب أن تخرج للناس، وتلك التي يتم إحراقها في غرفة مغلقة في بناية مهجورة على طريق ريفي قديم. في كل مرة تسمع فيها عن فتاة يتم اغتصابها بشراهة ثم تُذبَح على قارعة الطريق، تأكد أن هذه كانت واحدة من آلاف الفتيات اللاتي لم يسمع عنهن أحد شيئًا!

في كل مرة تتساءل في تعجب عن السبب الذي يجعل رجلًا يتحمل صراخ أطفاله وإزعاج امرأته وألم عناء العمل كل يوم من أجل دخل بالكاد يكفي من أجل معيشتهم من دون أن يذوق الراحة، المتعة، أو السعادة الحقة ثم لا يقتل أسرته ويشنق نفسه فرارًا من عالم لم يعد له فيه كبير حاجة، فتأكد أن هناك الكثيرين فقط أنت لم تعلم عنهم شيئًا!

في كل مرة تتساءل عن مصير المساكين الذين قد عضهم الفقر وهم يعيشون في عالم لا يؤمن بجدوى الحنان على أية مخلوق، فتأكد أن ظنك صحيح، لقد مات هؤلاء من الجوع والمرض في الأزقة، ثم لم يفتقد وجودهم أو يعلم برحيلهم أحد!

في كل مرة تتساءل في وجل عن الفظاعات التي لا بد وقد ارتكبها إنسان ليقينه أنه مجرد آلة في حروب صممت لسيطرة السادة على الثروات والأمم، فتأكد بأن ظنك صحيح، وأن هذه الفظاعات قد أُخفِيَت جيدًا.

يصنعون هنا واقعًا لطيفًا، فيه لا يتوقف الناس عن الإنتاج ويكفون عن الأسئلة، ولما يسأم أحدهم من هذه الحياة يكممون فاه -إذ يعترض- بالقتل أو الموت أو الجنون. ثم يلتفتون للبقية ويقولون: لم يحدث شيء، عودوا إلى عملكم! كل شيء على ما يرام. كل شيء هادئ هنا على الضفة. نرجو أن تكونوا في صحة جيدة!».

نظر (هارول) حوله وتناول بعض التقارير التي يعدها المراسلون من كل شبر في كل مدينة من قارة الشمال، وقرأ بعضًا منها ثم بدت على وجهه علامات التقزز، فأطاح بها بعيدًا، ثم قال: «سيد (جيرالد)، ما هي الرابطة فعلًا؟».

سكتُّ قليلًا محاولًا أن أزن مقدار ما سأخرجه له من الحقيقة وقلت: «هم أشبه بصنبور مياه مصنوع بدقة كي لا يغرق البناء بالماء الزائد. يخرجون لك قدرًا من مادية الكِميت يسمح لهم بأن يكونوا في العالم المجرد من روعة أفكار ما فوق الطبيعة، ذلك العالم الذي يحتاجونه لتهدئة حركة التاريخ نحو التغيير الدائم، عالمهم المثالي الخاص بهم.

ولكنهم يسمحون لك بأمور ليست من الكِميتية في شيء، يقرّون مراسم الزواج، يشجعون على الفنون، يعطونك حرية اختيار من يحكمك في انتخابات نزيهة، لا يعارضون الحب، ولا يمنعون الأدب. أرأيت؟ يخونون مذاهبهم الخاصة! يمنعون عنك ذلك القدر من الكِميتية الذي يجعلك تدرك أن كل شيء نسبي، كل شيء يتحرك، كل شيء يتغير، لا ثوابت، لا قيم، لا حقيقة.. لا إنسان!».

- «ولماذا يفعلون ذلك؟».

- «كي يمنعوا الانفجار الحتمي لإنسان يبحث عن إنسانيته!»؟

- «ألم تقل إن (كروماز) قد أطاح بالرابطة؟».

هززتُ رأسي أن نعم، ثم قلت: «على الأقل في هذا البلد، ولكنهم سرعان ما سيجدون طريقة للعودة. إلا لو...».

قال: «إلا لو ماذا؟».

نظرتُ إلى الأوراق المكدسة هناك فوق العربات وقلت: «إلا لو أعنتَني على الإسراع بالانفجار!».

فكر قليلًا ثم قال: «تريد مني أن أنشر الحقيقة للناس؟».

رددت معدلًا على كلامه: «أريد منك أن تفضح الحقيقة بين الناس!».

- «وكيف أفعل ذلك؟».

- «سوف تجد طريقة، أعلم ذلك!».

فكر طويلًا، ثم التفت إليّ وقال في حدة: «وتعدني بتنفيذ ما طلبته منك؟».

قلت بسرعة: «افعل ذلك، ولن نريق أي قطرة من الدماء بعد اليوم».

بدا وقد تذكر شيئًا فقال: «و(كروماز)؟».

قلت له وأنا أتحاشى النظر في عينيه: «(كروماز) قد رحل.. إلى الأبد! لن أراه مجددًا، ولن ترى أنت (سولي) مجددًا».

قال وقد بدا عليه القلق: «ماذا تقصد؟».

قلت: «قبل رحيله اعتذر لي أنه لن يستطيع أن يحقق لي وعده. أخبرني أن عمله قد انتهى، لكنه يرى أن هناك من هو أحق مني بأن ينال هذا الشرف».

قال: «أي شرف؟».

نظرت له وابتسمت قائلًا: «قتله».

سيرا

لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لا يمكن.

كانت (كالينا) تحاول جذبي إذ أقف على حافة ظهر السفينة أنظر إلى البحر وأفتش بين الأمواج عن (تومان) لعلي أراه هناك يصارع الأمواج فأقفز إليه وأنقذه أو أموت معه. لا يمكن ألا يحدث ذلك. لا يمكن أن يختفي وينتهي الأمر بهذه السهولة.

كانت صفحة الماء أمامي خالية تمامًا إلا من رؤوس الخوالد تلعب هنا وهناك بين الماء والهواء. بينما أفتش بعيني في كل ركن من اللون الأزرق أمامي عن رجل لم أحب غيره طوال حياتي، وفؤادي ينفطر بداخلي. قالت لي (كالينا) همسًا وهي تبكي: «(سيرا)، أرجوكِ، أعيني نفسك، لقد انتهى الأمر».

ثم أخذت تعانقني ونحن نبكي معًا، بينما (هوسيرل) يقف بجانبي ولا يدري كيف يواسيني، نظر إليّ محاولًا أن يتكلم بعينيه فيقول ما لا يقدر على قوله بلسانه. فاكتفى بأن وضع يده على كتفي في صمت. ثم اقتادتني (كالينا) إلى حيث يرقد (سولي) وقالت: «يحتاج إلى مساعدتك».

كان البحارة قد نظفوا السفينة من آثار الدماء وكوّموا الجثث في مؤخرة السفينة حيث كانت ترقد آلات فحصنا التي تحطمت الآن من المعركة. بينما رفض (سولي) أن نأخذ جثة (ليمان)/(كروماز) بعيدًا عنه. وظل بجانبها يعاني من ألم جرحه في ظهره.

حاولت (كالينا) تضميد جرحه ولكنه كان عميقًا بما يكفي، لم يوقف ذلك الدماء النازفة بغزارة.

قلت له وأنا أبكي: «سوف نكويه كما فعلنا مع (كالينا)». فهز رأسه رافضًا بعف.

قال (سولي) بينما يحتضر ناظرًا إلى اللامكان: «لقد بحثت عنه طويلًا، كنت أصل إليه في كل مرة دون أن أعلم».

نظرتُ إلى (كالينا) في عدم فهم، وقلت له: «عم تتحدث؟».

قال بصوت متعب بين أنّات ألمه وزفرات حزنه: «لم أكن أعلم أن الظهور الذي كنت أطمح إليه لن يحدث أبدًا، ليس في هذه الحياة على الأقل».

ثم التفت إليّ وأمسك بيدي وقال: «الفشل! الفشل يعني أن هناك ما هو وراء الحجب! الفشل يعني أننا نعيش في المستحيل، والمستحيل نحتاج فيه إليه! أما الممكن فنحن نقدر عليه».

قالت (كالينا): «هل تفهمين شيئًا؟ هل هو يهذي؟».

أجبتها في حزن: «يبدو ذلك».

قال (سولي) بلسان ثقيل وهو يغمض جفنيه: «لا أهذي! لقد فهمتُ فقط الآن كل شيء. فهمتُ لماذا كان يجب أن يحتجب عني. لماذا كان يجب عليّ أن أقوم برحلتي. لماذا كان يجب عليه أن يشوّقني إليه، لقد قالها لي العجوز!».

ثم توقف عن الكلام. هززته في وجل فأفاق وبدا في حال أفضل قليلًا، قلت له: «ماذا تقصد يا (سولي)؟ أي عجوز؟».

قال وهو يشير بأصبعه بصعوبة إلى خلف رأسه: «العجوز عند الحافة، قابلته عند الحافة هناك على الشاطئ الذهبي منذ أربعين سنة، حين أعطاني لفافة مكتوبًا عليها: (الكميت يكذب). كنت... كنت أطمح أن أعود إليها فأقابل من يعرفه ليخبرني عنه أكثر. ليخبرني كيف أصل إلى ذلك الذي تعرفت عليه حين وجدت أن الكميت كان يكذب. لقد رحل يومها قبل أن يخبرني، أخذت أنادي عليه أن يخبرني بالمزيد ولكنه رحل ببساطة كما ظهر. لم أكن أعلم أنه لم يكن مفترضًا له أن يخبرني أبدًا. كان يجب علي أن أصل بنفسي. الأمر يجب أن يكون كذلك دائمًا!».

ثم نظر لي وقال بحنان: «أتعلمين يا عزيزتي، أنكِ تشبهين (ناجيلي) كثيرًا! لا مزيد من الشوق الحارق، لا مزيد من الانتظار، حان اللقاء المرتقب».

وبعد لحظات قليلة كان قد رحل!

(سولي تراك) العظيم قد مات الآن بين يديّ باكية.

انحنيتُ عليه أبكي، بينما (كالينا) تربت على كتفي، وتشير إلى القبطان وتقول له: «عد بهذه السفينة اللعينة إلى الوطن»!

تومان

استفقتُ على لهيب حر الشمس! والرمال الصفراء تجرح أسفل خدي من جهة، والموج يغرق خدي الآخر في حركة رتيبة تسللت إلى حلمي كحركة بندول في صف مليء بالطلاب في مجمع الأبحاث هناك في الوطن.

فتحت عيني بصعوبة ولكن لم أقدر على القيام إلا بعد لأي. تئن كل عضلاتي وعظامي وكل ما يشعر في جسدي يئن من الألم، تحرقني عيناي من كثرة ما ارتطم بها من ماء مالح.

نظرتُ إلى أفق البحر من بعيد فوجدت أفقًا مستويًا، قد جئتُ منه، يشبه أفق الحافة، تلك التي كانت آخر ذكرى لديّ حين سقطتُ منها بعد أن وصلتُ إليها بعد أن قذف بي (كروماز) في مياه المحيط.

في السماء من فوق ألوان شفق شبيهة بالألوان عند الحافة ولكنها تبدو بشكل مختلف، وكأنها في الجانب الآخر منها، وخطر على بالي خاطر سخيف دفعته سريعًا.

لا أدري ما حدث. هل كنت أتوهم؟ أم أني أتوهم الآن؟ هل هذا هو الموت؟ أم أن هذا ما بعد الموت؟ هل كان (سولي) محقًّا حين افترض أنا سوف نحيا بعد الموت؟ ولكن لماذا نستيقظ من الموت إلى حياة شبيهة بحياتنا؟ ما الغرض؟

كانت رمال الشاطئ شديدة الصُفرة، لم أر مثلها قط، وكأنها برادة ذهب!

جلست على الشاطئ الذهبي أتأمل المكان الذي وصلت إليه. كانت جزيرة حجرية غريبة الشكل، لها هضاب متوسطة الطول ترتمي في مد البصر، بينما أشجارها شديدة خضار اللون تتدلى منها ثمار كبيرة لم أرها من قبل.

ومن بعيد رأيتهم قادمين! وقفت معتدلًا لأحيي القادمين، وتحسست عنقي وعلمتُ أني فقدت القلادة!

التف حولي القادمون، كانوا رجلين وامرأة وطفلًا.

«مرحبًا». لم يرد عليّ أحد. «هل يتحدث أحدكم الدارجة؟». لا رد.

جربت أن أتحدث بلغة اليور القديمة، اللغة الوحيدة الأخرى التي أعرفها. ولدهشتي ردوا عليّ حينها، يبدو أنها لغتهم.

قلت لهم: «هل أنا في جزيرة (إلي)؟»، تبادلوا النظرات في غير فهم لما أعنيه. سألتهم: «على الأقل نحن بعيدون عن قارة الشمال، أليس كذلك؟».

قال أحدهم لي: «ما هي قارة الشمال؟».

لم أفهم. قابلت الكثير من البدائيين من قبل، ولكنهم على الأقل يعرفون شيئًا عن تضاريس العالم الذي يحيونه! أخذت أذكر لهم أسماء مدن شهيرة، أعلام، تواريخ هامة. لم يعرفوا أيًّا منها!

تراجعت بظهري قليلًا، وأخذت أقلب النظر في المكان الذي وصلت إليه. أين أنا؟!

هارول

أخذني (كاي) من مكان عملي بعربة مخصصة لي بأمر (جيرالد) إلى الثكنات. لما رآني (كاي) لأول مرة منذ تلك الليلة في بيتي، قال وهو يمضغ أوراق القِميط: «أرجو ألا تكون هناك أية ضغينة، كنت أقوم بعملي فحسب». تجاهلته واحتفظت برأيي فيه لنفسي.

في الطريق إلى الثكنات كنت أنظر إلى الشوارع من حولي، الكثير قد تغير منذ ذلك اليوم الذي جمعني بـ (جيرالد) في مقر الكونوراد منذ عدة شهور. الكثير من الفوضى، الكثير من الجدل، الكثير من عدم التأكد إذ أراقب ما صنعت وأسأل إن كنت فتحت للناس باب السؤال أم أغلقت عليهم مصاريع الأمل!

وصلنا إلى الثكنات، الآن فهمت لماذا لم يصل إليها أحد؟ لقد كانت بعيدة هناك في وسط الصحراء! حيث يمكنك أن ترى العدو قادمًا من بعد ميل.

كان هناك الكثير من الرجال يحملون أشياء ويخرجون من البوابة المعدنية. وكان (جيرالد) واقفًا في الخارج يشرف على عملية الإخلاء، لما وصلت قال دون أن يلتفت إليّ: «أردتك أن ترى بنفسك أني قد وفيت بوعدي».

سألته: «والأسلحة والذخائر؟».

قال: «دفنتها بنفسي في الصحراء في مكان لا يصل إليه أحد».

ثم التفت إليّ وقال: «لا تقلق، سيعود الأمل للناس في النهاية».

ثم سألني بعطف: «هل دفنتم (سولي) حقًّا؟».

هززتُ رأسي أن نعم، وقلت: «كانت وصيته لي حين يموت ألا يُحرَق أو يُرسَل في البحر على أخشاب النول. كان يرى في ذلك إهانةً للبشر، وكأنهم كيس آخر من النفايات، ولطالما ندم على نول (ناجيلي)، وشعر أنها منه قد تبعثرت».

هز (جيرالد) رأسه متفهمًا، وأتى صبي صغير له بمتاع خفيف مربوط بإحكام، وناوله إياه وقد بدا أنه كان ينتظره. ثم قال(جيرالد) بود وهو يصافحني بإحكام: «لقد كان من الجيد معرفتك يا (هارول)».

ابتسمت ولم أعلق.

أشار إلى (كاي) مودعًا، ثم ركب طمجنًا أسود وعلق متاعه خلفه، وألقى نظرة أخيرة على الثكنات في أسى. سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟».

نظر لي وابتسم في غموض، ثم انطلق مبتعدًا، فأخذتُ أراقبه حتى غيّبه الأفق.

تمتمت بصوت خفيض: «عسى أن تجد ماءك يا صديقي»!

كالينا

نادى (بيدرا): «(كالينا)، هناك زائرة لكِ من (أورارا)».

زائرة! لا بد أنها معلمة (ماندا) الجديدة، اشتكت لي من عدم قدرتها على فهم الرياضيات، صارحتني أنها تحب التاريخ أكثر. تذكرتُ على الفور (تومان) وحكايته التي كان حكاها لي هناك في المعبد المأفون. أخبرت (ماندا) أنها ليست مجبرة على المعافرة في شيء لا تجيده، ووعدتها أن أساعدها على أن تبرع أكثر في التاريخ. وها هي المعلمة التي أرسلت لاستقدامها من العاصمة لا بد أنها وصلت.

هندمتُ ملابسي ونزلتُ من غرفة نومي على الدرج الخشبي المهترئ. الأموال التي ادّخرتها من سنين عملي أنفقتُ بعضها في مدرسة (ماندا) الجديدة، وبعضها في تجديد أثاث البيت القديم، والبقية في إعادة حفل زفافي بـ (بيدرا). وفي تلك الليلة التي عدتُ فيها إلى ذات البيت مع ذات الرجل في ليلة زواجنا الأولى للمرة الثانية، صارحني أنه لم يتزوج طيلة الأعوام الستة لأنه كان ينتظر عودتي! لم يكن يعلم أنه لولا صدفة الرحيل في بعثة فاشلة ورحلة ملأى بالموت والحسرات، ربما ما كنت اتخذت قرارًا بالعودة أبدًا.

وصلت إلى غرفة المعيشة أستعد لاستقبال المعلمة الجديدة، وفتحت عيني في دهشة، لقد كانت (سيرا)!

صحت في دهشة وأخذتها بين ذراعيّ أعانقها بود حقيقي غير مصطنع. بينما اختلط عناء تعب السفر على وجهها مع بعض الفرح والكثير من اللهفة.

ثم سألتها: «أية ريح طيبة؟». قالت: «سوف تعرفين بعد قليل، أريد فقط أن أرى (ماندا)، أحضرتُ لها هدية».

أرسلتُ في طلب (ماندا)، فجاءت الصغيرة تعقص شعرها بعود خشبي، لما رأت (سيرا) ذلك نظرت لي بنظرة ذات معنى، فضحكتُ وقلتُ وأنا أشير بقبضتي بفخر: «قوية الشكيمة مثل أمها».

ناولتها (سيرا) هديتها وداعبتها قليلًا ثم أرسلتُها لتعود بمنقوع المارين الساخن وبعض الكعك.

جلسنا في استرخاء فنظرت إلى (سيرا) متسائلة، فابتسمت الأخيرة في خجل وقالت: «ما سأخبره لكِ جنون». قلت بسرعة: «لقد رأينا كل أنواع الجنون». قالت: «ليس بعد».

قلت لها وقد بدأت أقلق: «أخبريني ما لديكِ».

قالت بعد أن تنهدت قليلًا: «لا أظن أنكِ ستندهشين حين أخبرك أني قضيت عدة أشهر بعد عودتنا من رحلتنا لا أبحث إلا عن شيء واحد، كل ما كُتِبَ عن الحافة في أي مكان وبأية لغة في العالم».

هززتُ رأسي لها أن نعم، فتابعت: «معروف عن الحافة أنه لم يصل إليها أحد قط. كنتُ أعرف أنا و(تومان) ذلك، قوانين الثقالة في منتصف سطح الأرض تقضي بأن تزداد قوة الجذب كلما ابتعدنا عن المنتصف، يعني ذلك أن السفينة التي تحاول الوصول إلى أطراف الأرض فهي لا تبتعد حقًّا، ولكنها تحتاج إلى بذل جهد يكفي لمقاومة الثقالة في المنتصف. أي إنها لا تبتعد حقًّا، ولكنها.. ترتفع».

أغمضتُ عينيّ محاولةً تخيل الأمر، ثقالة في المنتصف؟ وأطراف تزداد قوة الجذب فيها أضعاف قوتها، فقلت لها: «أنتِ تتحدثين عن أرض مسطحة ولكن في حقيقة قوة جذبها هي أشبه بـ.. وعاء»!

قالت في حماس: «بالضبط. تمامًا كما قلتِ. لذلك فأقوى نظريات العلماء أن هذا هو السبب في عدم وصول سفينة إلى الحافة قط».

ثم سكتت، وبدأت تتردد في الكلام، فعلمتُ أن هذا هو الجزء المجنون من كلامها: «حسنًا، ولكن الثقالة تتعامل مع المياه أليس كذلك، الماء هو ما سيرتفع، بوجود جسم ثقيل كالسفينة فلن تستطيع التغلب على ارتفاع المياه، أما جسم خفيف فيمكنه أن يطفو على الماء بسهولة. مثل.. مثل قطعة صغيرة من البطاطا تطفو فوق طنجرة من الحساء بعد خضه!».

أغمضتُ عيني في ألم، وقلت لـ (سيرا): «عزيزتي، أرجوكِ..».

- «صدقيني أنا لا أعذب نفسي بالأمل، لا يوجد كبير أمل عندي في أن يكون (تومان) ما زال حيًّا عند الطرف الآخر من

الحافة، في كل الأحوال أنا لن أراه أبدًا. كان (سولي) يتحدث دومًا عن أنه عبر من الحافة بعد سقوطه من سفينة في عرض البحر، وهناك قابل من أعطاه لفافة الكميت توبو، ولكن أحدًا لم يصدقه. أتعلمين ما وجدتُ في إحدى مخطوطات جامعة الكرم؟ وجدت كتابًا يتحدث عن قصص الكثيرين ممن عبروا الحافة ذهابًا وإيابًا، كلهم بذات الطريقة».

- «ولماذا لم يعد (تومان) كما عاد (سولي)؟».

قطبت جبينها، وقالت: «لا أدري، ربما أعجبه المكوث هناك».

نظرتُ لها بنظرة ذات معنى، فقالت: «حسنًا، وربما مات. أعلم ذلك». ثم سكتت.

ناولتها فنجان المارين، وقلت لها بابتسامة ساخرة لم تلحظها: «حسنًا، لم يكن كل ذلك جنونيًّا تمامًا».

ضحكت بخجل وقالت: «في الحقيقة، أنا لم أبدأ الجنون بعد!».

نظرتُ لها متسائلة، قالت: «الفكرة ليست جديدة تمامًا ولكنها تشكلت ببطء عبر الكثير من الجهود لعلماء من أماكن عديدة، بأن الحافة هي في الحقيقة.. أشبه بمرآة!».

- «الحافة ماذا الآن؟!».

- ليست مرآة بالمعنى المعروف، ولكن قوانين الطبيعة تنحني عندها وتتقوس ثم تعود! أنتِ تعرفين أن الكثير من علمائنا يظن أن الأرض قرص مزدوج، الحافة ما هي إلا نقطة تلاقي السطحين. الذي يعبر الحافة إلى الجهة الأخرى فإنه سيعود إلى الوراء في كل شيء حتى يصل إلى مركز الثقالة في المنتصف!».

- «الوراء؟ ماذا تقصدين؟».

قالت وهي تضم شفتيها في حذر: «نفس مقدار الزمن في اتجاه معكوس!».

- «تقصدين الذهاب للماضي والمستقبل؟ كما في قصص الأطفال؟».

- «لا، يمضي الزمن إلى الأمام وفقط، لا يعود إلى الوراء قط. على الأقل بالنسبة لمن يعيش فيه، لكن المكان ذاته، فالزمان فيه.. يتغير حسب موضعه، على هذه الجهة من الأرض نعيش بزمان يسير في اتجاه، على الجهة الأخرى فالزمان يسير في اتجاه معاكس».

حاولتُ أن أعتصر عقلي لأفهم ما تريد قوله فلم أستطع، هل جُنّت (سيرا)؟!

نظرتُ لها ورغمًا عني ابتسمت، فتضايَقَت من ذلك، اعتذرتُ لها ثم نظرتُ إلى الأرض في خجل.

نظرت لي وقالت بامتعاض: «تظنين أني غبية، أليس كذلك؟».

- «بل أنا لم أقابل امرأة أبدًا في ذكائك».

ظنت أني أخدعها، ولم أكن.

حوّلَت مسار الحديث عمدًا، وسألَتني عن عملي في الريف هنا، فأخبرتها أني ابتعتُ متجرًا للأصواف أديره، تحدثنا قليلًا عن ذلك، ثم أتت (ماندا) فظلت (سيرا) تلاعبها حتى حان وقت رحيلها.

قمتُ أودعها وأعانقها بحرارة وكأني أعتذر لها عن فتور حماسي لما كانت قد جاءت به، قالت لي وهي تبتسم: «ستظلين دومًا تلك المرأة التي أتطلع لأكون مثلها يا (كالينا)!».

شعرتُ بإطراء عظيم، وتابعت هي: «لقد أحسنتِ صنعًا بالعودة إلى عائلتك».

هززتُ رأسي موافقة وشكرتُها بعيني، قَبَّلَت (ماندا) وقالت بينما أهمّ بمرافقتها إلى الباب: «أعرف الطريق، لا داعيَ».

راقبتها بعيني حتى خرجت، جلست على المقعد الخشبي في غرفة المعيشة، وبرغمي أخذتُ أفكر فيما قالته. ليس لدي

مقدار يكفي من الغرور للجزم بصحة أشياء لم تكن، أو القطع بخطأ أشياء هي كذلك.

العالم مكان غريب! ربما كل ما في عالمنا هو خيال وجنون بالنسبة إلى رجل من مكان آخر. ربما توجد آلاف العوالم مثلنا في كل مكان ولن نعلم عنها أبدًا شيئًا. لا نحتاج إلى تكلف العناد ولا تجاوز حدود الممكن. يكفي ما نجده من معجزات في واقعنا بالفعل. ربما ما تقوله (سيرا) صحيح، لا أدري، ولن أدري أبدًا.

قاطعت (ماندا) حبل أفكاري إذ اتجهت لي حاملة في يدها مظروفًا مغلقًا وأعطته لي، نظرتُ لها متسائلة، قالت: «تركته لكِ هذه السيدة على المنضدة بجانب الباب قبل أن ترحل»!

قلّبتُ المظروف في يدي وقطّبتُ جبيني في تعجب.

أية أسرار خفية أخرى يا (سيرا)؟!

سيرا

خرجتُ من بيت (كالينا) فمشيتُ مسرعةً أرتحل عن المكان قبل أن تكتشف (كالينا) المظروف الذي تركتُه لها، أخذت الانعطافات في الطريق الريفي الواسع الشحيح من البيوت حتى وصلت إلى عربة الخيول التي أتت بي من العاصمة. تعمدتُ أن تكون بعيدة، لم أرد لـ (كالينا) أن ترى من بداخلها.

ما إن دخلت العربة حتى أخذتُ أفرك كفّيّ يدي من البرد. ما أعذب الشتاء في هذا الريف الهادئ! ربّتَ (هوسيرل) على يديّ وقال: «كيف سار الأمر؟». هززتُ رأسي أن: على ما يرام.

فتحت حقيبتي وأخرجت سواري الذهبي ألبسه أمام عيني (هوسيرل) المغتاظين، وقال: «لم تخبريها بزواجنا هي أيضًا؟». ابتسمتُ بدلال، وقلت: «بعض الأمور لا تتغير».

ثم نظرت له في خجل وقلت: «سامحني، فقط اعتدت ألا تجاوز مشاعري صدري الكتوم»!

أشار (هوسيرل) إلى سائق العربة أن يبدأ رحلة عودتنا، ثم قال: «كيف تقبلت أمر (تومان)؟».

قلت بسرعة: «لم تصدق».

ثم أضفت: «هل تلمها؟».

قال: «بالطبع لا، ولكن ماذا عن رسالته إليها؟ لم تقرأها؟».

قلت: «لم أكن هناك! تركت المظروف ورحلت».

ضحك بهدوء ولم يعلق.

لقد مر أسبوعان منذ أن وصلتنا المظاريف الثلاثة، رسائل من (تومان) إليّ أنا و(كالينا) و(سولي)، لم يكن يعلم أن (سولي) قد مات.

ما إن رأيتُ خط (تومان) الذي أحفظه في رسالته لي، حتى اغرورقت عيناي بالدموع، (تومان) حيّ!

ولكن خفت حماسي شيئًا فشيئًا حين علمتُ أني برغم ذلك لن أراه مجددًا.

كيف وصلتنا هذه المظاريف؟ لا أدري، ربما مع أحد العائدين من الحافة التي تحفل الكتب بقصصهم. أما لماذا لم يحاول (تومان) العودة بنفسه فأمر لم أفهمه إلا بعد قراءتي لرسالته لي، ترى هل أرسل رسالة شبيهة لـ (كالينا)، وهل شعرت بذات الغيرة مثلي؟!

بعد فترة صمت، قال (هوسيرل): «ألن تخبريني أيضًا، بم كانت رسالته إليكِ؟»

نظرتُ له في غموض، ثم ابتسمتُ ولم أرد، وبدون دعوة رفعت ذراعه وارتميت على صدره وتدثّرتُ بذراعه على كتفي، وأغمضتُ جفوني حتى غبت في النعاس.

خاتمة

العام هو العام الذي أكمل فيه أبي خمسة وسبعين عامًا! لقد حفظتُ وحفظ كل سكان القرية هذا الرقم، من كثرة ما ردد على أسماعنا أنه ينتظر ضيفه حين يتم الخامسة والسبعين.

لما حل العام أصر والدي على الارتحال إلى بيت قريب من الشاطئ الذهبي، ثم أخبرني مفسرًا أن ضيفه سوف يأتيه من جهة البحر عند حافة العالم! كان أبي يعرف ضيفه ويعرف اسمه ويعرف موعد قدومه وجهتها. لذا لم يكن يصدقه أحد!

قلت له: «كيف سيأتي من عند حافة العالم». ابتسم ولم يرد، ولكني كنت أعلم أن أبي لطالما آمن أن العالم ليست له حافة، وأن هناك في الأفق البعيد مدخل إلى عالم آخر، إلى جهة أخرى. مثلما كان يردد بعض المجاذيب الذين كنا ننتشلهم من البحر على مر الأعوام.

لقد هَرِمَ أبي الآن وكبر، ولكنه حين كان شابًّا كان بارعًا في العلوم، أشار عليه بعض الناس بالخروج من قريتنا والنبوغ في إحدى المدن الكبيرة، ولكنه كان قد قابل أمي هنا، فتمسك بالرفض وكان يردد قائلًا: «لا حاجة لي بالمزيد من التشبث، لا أخشى السقوط من الهاوية»! لم أكن أفهم الكثير مما يقوله أبي.

اليوم هو العام الخامس والسبعون في عمر أبي، أخبرني أهل القرية أنهم يعرفونه هنا في هذه القرية منذ ما يقرب من أربعين عامًا. لم يكن أحد يعرف من أين جاء ولم يتكلم كثيرًا عن موطنه. ولكنه لطالما صارحني أنه لم يجد السكينة إلا حين وصل هنا. «حياتي كانت بحثًا محمومًا عن شيء لم أكن أعلم كنهه». كذا قال لي أبي عن تلك الحياة التي عاشها قبل الوصول إلى هنا، ثم أضاف: «ولكني فطنت إلى أن البحث كان ضروريًّا كي أفهم جمال ما وصلت إليه»!

العام هو العام الخامس والسبعون من حياة أبي، وقد هَرِمَ الآن وفقد بصره ولازم الفراش إلا قليلًا. وفي ذلك اليوم أتتنا أخبار من الصيادين أن رجلًا هناك عند الشاطئ الذهبي قد جاء من البحر! لما سمع أبي بذلك سارع إلى القيام من فراشه فوقع! اتكأ عليّ وتسنّد وأمرني أن أذهب معه إلى هناك.

لاحظتُ أنه يتوكأ عليّ بيد واحدة، نظرتُ إلى يده الأخرى، فإذا بها لفافة جلد مطوية بعناية. سألته: «كيف كتبت هذه اللفافة بدون بصر؟». ضحك وقال: «يا بني لقد كتبتها من قبل أن تولد. منتظرًا لهذا اليوم». تعجبت ولم أعلق، لقد كففت عن أن أصاب بالعجب من كلام أبي.

لما وصلنا إلى الضيف الذي جلس يساعده الناس ويجففون ملابسه ويطعمونه، كان حماس أبي قد بلغ أشده، طلب مني أن أجلسه أمامه، وقد فعلت، وأمام أعين الشاب المندهش ذي الشعر المسترسل وقد عقده البحر وكأنه جدائل، وجد يد أبي المرتجفة تتلمس وجهه وعليه أعتى علامات السعادة.

قال له أبي بصوت يرتجف من الحماس بينما يداه ترتعشان وكأنه قد مسه المرض: «أنت (سولي تراك)».

قال وقد شعر بالرعب من فرط المفاجأة: «نعم، أنا هو بالفعل!».

قال أبي بينما الدموع تتحدر على شفتيه المبتسمتين: «أعلم، لم أكن أسأل».

بدا (سولي تراك) مرتبكًا بشدة، وقال: «كيف عرفتَ اسمي؟».

ابتسم أبي بينما ينظر بعينيه اللتين لا تريان في كل موضع يمينًا ويسرة، وقال: «من بين الأسئلة الكثيرة يا ولدي، يجب عليك أن تختار أهمها، كلما قل كلامنا صار أسهل لك أن تتذكره».

أخذ (سولي تراك) يفكر قليلًا، وقال: «حسنًا، من أنت إذن؟».

قال أبي بحنين واضح: «أنا صديقك القديم، غير أنك لما تقابلني بعد»!

نظر لي (سولي تراك) متعجبًا، لا تنظر إليّ، أنا مثلك لا أفهم شيئًا.

تابع أبي: «أعرف السؤال الذي يؤرقك»!

نظر إليه (سولي) في توجس ولم يجب، فتابع أبي: «أعرف أنك تسأل عن معنى وجودك في الدنيا، وتحقق ذاتك، وأسباب تألمك. أعرف أنك تلح على الوجود أن يوحي إليك بتفسير اتساع روحك وإفاضتها على محدودية عالمك. أعرف أنك تفتقد أحبتك وتتساءل كيف لرابطة تجمعك بإنسان بكل هذه القوة أن تنحل عُرَاها بطريقة عشوائية بكل هذا اليسر..

لقد بذرتَ يا (سولي) بداخلي تلك البذرة الصغيرة وتكفلت السنون برعايتها حتى ازدهر كل شيء بداخلي. تلك الفكرة الغريبة التي لم أستطع نسيانها مهما فعلت، وحين دخلت عقلي أول مرة استقرت في موطنها تمامًا، وكأنها كانت تعرف طريقها منذ الأزل..

سرعان ما وجدت بعدها أن كل شيء قد صار في موضعه، كل الإجابات تراصت في أماكنها الصحيحة، لقد كنت أتساءل مثلك، بل صرت أتساءل بعدك بوقت طويل، ثم فهمتَ كما أخبرتني أن عالمًا بدون صاحب سيكون فيه الكثير مما يثير العجب، الكثير من الحُفَر، الكثير من الخروق، الكثير من العطش الجاف دون ماء ليرويه، الكثير من اليأس المتمكن من القلوب، والكثير من الأمل الزائف حين يخيب..

آه! لكم يؤذي ذلك الأمل الزائف حين يوضع في غير موضعه، في حب مفقود لا يكتمل ولا يدوم، أو نجاح تتمنى أن يقوم بتثبيتك على حافة الهاوية قبل السقوط، أو فوضى تبحث في طريقها عن عدالة تتساءل عن غيابها لما اكتمل كل شيء آخر وبقيت هي في نقصان مستمر! أو فناء يأتي بعد هذا ويطيح بكل شيء وكأنه لم يكن! وكأنه لم يوجد قط! ويتركك في تساؤل: لم كان كل هذا؟ وفيم عانيتَ إذن؟»

صمت أبي، فقال (سولي) في ذعر من جديد: «من أنت يا سيدي؟».

قال أبي: «كنتُ لأخبرك باسمي ولكني أصبحت أكثر حكمة الآن، فهمتُ أن هذا أمر كان يجب أن يتم، وتلك رحلة يجب أن تُخاض»!

بدت عينا (سولي تراك) الذكيتان تتسعان اهتمامًا، بينما تابع أبي: «أنا تلميذك النجيب ومعلمك كذلك. أنا يا ولدي بداية الدائرة ونهايتها، لقد صنعتُك وصنعتَني»!

ثم ناوله أبي اللفافة، وقال: «خذها يا بني، وابدأ رحلتك الخاصة، خذها وابحث عن سيدك، حين تصل إليه سوف تعرف.. سوف تعرف لم تركك كل هذه السنين تبلى قدماك بغية الوصول إليه! صدقني، يومًا ما، سوف تغمض عينيك إلى الأبد وتفكر بعد انتهاء رحلتك، أنك كنت تبحث عن شيء ما كان ليكون لك لولا بحثك عنه، وأنك وصلتَ بقلبك فقط لأنه قد تفطرت بك قدماك قبل الوصول».

ثم أشار لي أبي أن آخذ بيده، وقبل أن يرحل، وضع يده على كتف الضيف وقال: «لقد اشتقت إليك يا صديقي، كنت أنتظرك لسنين طويلة. حان الوقت كي أرتاح الآن».

ومضينا إلى البيت تاركين إياه في حيرة. وحين وصل أبي إلى فراشه هذه الليلة نام وعلى شفتيه ابتسامة قل أن أراها. وقبل أن أتركه لينام وأرحل أمسك بيدي وقال وكأنما يخاطب نفسه: «كنت أطلب منه دائمًا أن يحييني إلى هذا اليوم».

قلت له: «من تقصد يا أبي؟».

ابتسم في راحة وأغمض عينيه.

(تمت)